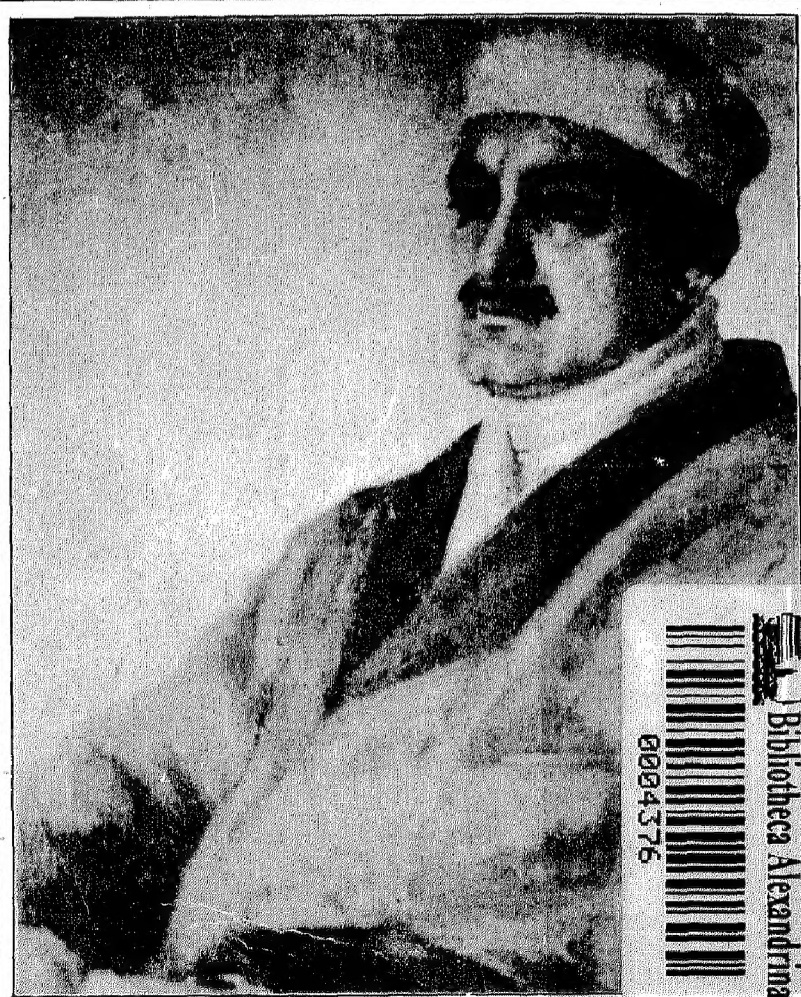


دكتورة نعات أحمد فؤاد

الجمال والحُرِّيَّة والشَّخصيَّة الإنسانيَّة  
في أدب العقَّاد



دارالمعارف



الحمل والحرية والشخصية الإنسانية  
في الحرب العظمى



دكتورة نemat أحمد فؤاد

الجمال والحريّة والتخصّص الإنسانيّة  
في أدب العقاد



الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

## البَابُ الْأَوَّلُ

# للجَمْعِ وَالْحُرِّيَّةِ











## العقاد

وكأنه مندور للمعبد . . . فقد وهب نفسه للكتابة ووهبت نفسها له . .  
 هى صاحبه والولد . . . لا يكاد يخلو إلى نفسه أو إلى الناس إلا وهو على  
 موعد معها يعود إليها فيه؛ على أنه فى خلوة الظاهر، لا يخلو حسه وشعوره منها،  
 فهو مع الناس تعيش معه فكرة فى عقله ، أو صورة فى عينه ، أو مسئولية  
 فى ضميره ، أو خاطراً فى خياله ، أو خلجة فى شعوره . . لا يذكره الناس  
 وما أكثر ما يذكرونه - إلا مقترناً على لسانهم بكتاب جديد ، أو رأى جديد  
 أو فتح جديد فى عالم الكتابة . . عالمه . . يراه الناس وحده ، ويرى نفسه  
 فى جمع لا تمل صحبته ولا تدم رفقته ولا ترث صداقته . . صداقة صافية  
 صفاء الخير ، سامية سمو الأدب ، صداقة أدباء يعيشون معه فى بيته . .  
 ويعيش معهم فى نتائجهم. يطلون عليه أينما يخطو من زجاج المكتبات  
 العديدة المنتشرة فى داره حتى لتكاد تحجب جذرائها وتخفى معالم أثاثها.  
 فى كل ركن ، فى كل زاوية ، فى كل ردهة ، فى كل حجرة أكداس مركومة  
 من الكتب بعضها سمح الوقت بتنسيقها والبعض ينتظر دوره فى القراءة . .  
 ومكانه على الرفوف الخاصة . . يراه الناس حياة عريضة خصبة وأراه  
 حيوات كثيرة. ويعيش المرء أيامه ويعيش هو أجمل أيام العباقرة المحيطين به

في صمت وزهرة حياتهم . . وتثير وحدته من التفاسير ألواناً . . إنها ظاهرة  
عجيبة في دنيا التطاحن والصراع والزحام والتدافع والجلبة والطنين واللغظ . .  
هذا الرجل المتوحد المتشامخ كيف يعيش ؟ . . ويذهبون في الجواب أشتاتاً . .  
يراه قوم هادياً كالشعاع . . عالياً كالمنار . . وارفاً كالظل . . زاخراً كالنهر . .  
عميقاً كالبحر . . حالياً كالروض . . رجباً كالأفق . . خصيباً كالوادي . .  
مرتفعاً كالأسد . . مصعداً كالنسر . . مهيباً كالعلم . . عنيداً كالجبروت . .  
لا يرجو ولا يخشى ، إذا تكلم أسمع ، وإن حاجي أقنع ، وإن عادى  
أفحم ، كثير بنفسه ، سلاحه لا يقل ، صبره لا يمل ، وجده لا يكل ،  
وطاقته لا تنضب ، كأن وراءها مدداً يرفدها من سر الخلود أو من روح الله .  
 ويفرض عليه آخرون برودة الوحدة وكآبة الوحشة وجذب القلب وفراغ البيت  
حوله من إنسان يعيش له ويرمجيه . إنسان يخرج من جوه بين الحين والحين .  
لا بل إن المرء محتاج إلى التفاهة أحياناً تجدد شوقه إلى الجد فيعود إليه  
أنشط وعليه أقدر ، كما يحتاج محرك السيارة إلى الماء يبرده بعد سير طويل .  
ويؤيدون رأيهم بالشيخوخة من القادرين يتخذون جليلة تقوم على مطالبهم في مثل  
مسئولية الزوجة أو قريباً منها . أليس هذا دليل إحساس بالفراغ يحتالون  
على ملته ؟ . . وهب هؤلاء يستغنون بهذا الحل عن بلادة في التفكير أو  
بلادة في الإحساس . . عن كثافة لا ينفذون معها إلى القيم العليا في الزواج  
من سكن وأمان وراحة وتعاطف ومودة ورحمة ، ولكن الكاتب العبقري  
وهو يدرك هذه المعاني كيف احتمل الحرمان ؟ ولا عبرة عند هؤلاء بهوم  
الأولاد ومشاكلهم ، فقد يدفع الملائكة الصغار الثمن في لحظة ، يدفعونه

ابتسامه منورة أو كلمة مسكرة ، أو لغواً عذباً أو لهواً منعشاً ، أو دعاية هائلة ، تغسل نفس المكدود فتسترد في ظلهم الرطيب صفاءها وسلامها .

ويعودون من جولاتهم وعلى لسانهم . . هذا السؤال لا يزال : كيف يعيش هذا الكاتب ؟ أيامه كلها قلم وكتاب حتى مجالسه وأسماره مع أدباء أى كتب حية . . حتى ضحكاته على نواذر أدبية . . هل أقفرت الحياة إلا من هذا ؟ إن الأدب جميل معجب ممتع شئ يستطيع أن يملأ القلب والنفس والحس جميعاً . . إنه موسيقى ذات أفكار ولكن على أن يكون هوية . . إن الفن ابن الموهبة والهوية ولكن إذا انقلب حرفة فقد الطلاوة والبهاء .

على أن الأمتياز ١٠٠٪ كما يقول الرياضيون مخيف . . إنه في هذه الحالة يضر القلب ويغدو العقل مسيطراً على نفسه وتغدو الحياة بدورها جافة صعبة . . هل يمكن للجسم أن يكون رأساً فقط ، لا بد من أعضاء صغرى تؤكد إنسانية الحى . . تؤكد وجوده . . لا بد من رجلين تسعيان . . ويدين تصفقان ولسان يتكلم وثرغر يضحك وحسب العقل أن يهيمن . . أن يسيطر . . حتى في هذا لا بد له من التجاوز لحظات أو حتى ساعات لتلوين الحياة . ومرة أخرى يعودون إلى الكاتب العملاق والسؤال على لسانهم لا يزال : كيف يعيش في هذه السن العالية ؟ أين الراحة التي يرتاح إليها في شيخوخة العمر ؟ والحقيقة أنى ضعيفة أمام هذا السؤال . . إني ممن يحبون الحياة حباً جمّاً وأرى في كل مرحلة من مراحلها جمالاً خاصاً لا يفوقه جمال الصبا ورنيعه . . يخيّل إلى أن الرجل أو المرأة أعنى الزوج والزوجة في الكبر ، يحب كل منهما الآخر أكثر من حبه لأولاده . . إنهما عندئذ عالم خاص . .

عالم من الأسرار . . من الذكريات . . من التجارب . . فسلم الحياة الطويلة لكل درجة فيه عندهما قصة . . وما أحلى العمر عند القمة . إن الشيخين لا غنى لأحدهما عن الآخر . . العلاقة بينهما معنى خالص . . معنى عميق لا دخل للجنس أو الشهوة فيه . . إنهما يجلسان على حافة نبع غير منظور من الذكريات المزدوجة . . من الأحلام المحققة والتي ظلت أمامي . . يعيش الفرد عمراً واحداً ويعيش كل منهما عمريين .

مسكين الكاتب العملاق في توحده . . نخلة سامقة وسط الحجر . . إرتكازه على شخصه فقط حين يتركز كل واصل على ظروف محيطه . . ووضعه وضع نادر في الدنيا . . لقد زادت الفردية عنده على حدها . . فهو لا يهني ولا يعزى أقصد بشخصه ، ولا عبرة بالرسائل والبرقيات تنوب عنه . . فهو ليس قطب مجالس ، ومن ثم ترى حديثه كعود القصب مستقيماً صلباً وإن لم تحجب صلابته ما فيه من سكر . وكتابته كحديثه صلبة هي الأخرى دقيقة . . خير من تمثل عنده دقة اللفظ العربي ومطابقته للفكرة . . الكلمة عنده ( قفاز ) محبوبك ولو أنه أمد له في الإتساع نصف نعمة لأراح بعض الناس، ولكنه يأبى ويصر لأن المسألة تتصل عنده بطاقة القدرة . ولهذا لا يتذوقه إلا متخصص . وقارئه إما أن يفهمه كله أو يتركه كله ، والكاتب في الحالين كأن صومعته قد كتب عليها بيت المتنبي إن جاز أن يقبل صاحبها في شموخه البالغ . . الاستعارة من أحد ولو كان عبقرى الشعر :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم  
ولكن لماذا يلوم الناس الكاتب ، لماذا لا يلومون ، أنفسهم ؟ هل من

١٣

الضروري أن يكون الكاتب هو المخطئ ؟ ولماذا لا يكون القارئ هو المختلف ولا أقول المتخلف ؟ لماذا لا يصعدون إلى الكاتب . . ويحشمون أنفسهم جهد الصعود بدلاً من أن يقولوا له . . انزل سلينا .

ولكنها كلمة لا يجرون على كل حال ، مع هذا الكاتب أن ينطقوها فإن قالوها بمعنى أو بآخر فإنما يكون ذلك بعيداً في الفضاء على طريقة دون كيشوت . والكاتب العملاق إذا تصدر للسؤال والجواب ألفيته موسوعة جامعة تتطوح الأسئلة ولا تعيبه ، وتستعصى ولو في نظر قائلها ولا تعدم عنده الجواب ! كيف اجتمعت له حقائق العلوم مع لطائف الأدب ولا سيما في عصر التخصص الذي غدا الامتياز في مادة واحدة كسب يزدهي صاحبه ويعليه ؟ كيف تهيأ له هذا كله ؟ قد يكون هذا هو السؤال الوحيد الذي يزهد في الإجابة عنه .

على أن وضاعة النبوغ فيه ، ولألاء العبقريّة ، وعبقرية العصامية لا تسكت تافهين يتصايحون حوله بالغل والحفيظة ، ومن عجب أمرهم أو أمر بعضهم على الأقل أنهم يقولون مالا يعتقدون إنّه هو إلا ابتغاء للشهرة أو رثاء للخصوم ، فإن حدث أن رقى صياحهم إليه كما يتصاعد الدخان إلى السماء لم يسكنهم واحداً واحداً بل يدعهم يطنون كالذباب ويتهافون مثله حتى إذا تكاثر جمعهم وألهاهم التكاثر هشهم بمذبة واحدة فيفترقون بكلمة منه جامعة أو لطمة منه رادعة يدخلون بعدها جحورهم كالنمل . . ومن الطريف قوله فيهم إنهم ( واغش بشرى ) يعجزه الصعود ويحنقه الهبوط . .

ميزته وعيبه الفحولة . . . كل إنسان فيه جانب أنثوي وجانب ذكرى ولكن

العقاد جانب الذكورة فيه كان طاعياً . . . والفنان تخدمه صفة الأنوثة . .  
فالفنان رجلاً أو امرأة ، أم في احتضان البذرة أى الفكرة وتربيتها . . ثم  
الخضوع للوحى أو التلقى الذى يقابل فى الطبيعة ، الحمل  
التأنيث بالنسبة للإنسان وبصفة خاصة ، الفنان ، هو الاستقبال والتلقى  
والضيافة والإضافة . .

إن الصين حين تقول ( ين ) أى المؤنث تقصد المتلقى .  
إن النفس البشرية مكونة من الثنائية المتضادة من الأنوثة والذكورة . .  
كل صفات الجمال أقرب إلى الأنثى .  
كل صفات الجلال أقرب إلى الذكر .  
ولعل هذا سر انجذابهما أحدهما إلى الآخر . والإنسان المثالى عند  
أفلاطون إنسان لا هو ذكر ولا هو أنثى ، ولكن مزيج منهما ثم انشق قسمين  
ولهذا عندما يجد شق ، الشق الآخر ، فى الحياة ، يسعى إليه ويتكامل به  
ومعه وهو ما يسمونه الحب من أول نظرة .

الرجل والمرأة والطفل  
أى الذكر والأنثى والأمل .

وجنت عليه الفحولة فى معاركه الأدبية والسياسية إذ دفعته إلى العنف  
وورطته فى خصومات لم يتأخر أصحابها عن التهجم العنيف . . .  
ومرة أخرى ميزته وعيبه ، الإرادة الحديدية . كانت هذه الإرادة وراء  
إنكاره أستاذاً له<sup>(١)</sup> ولعل ثورة العقاد على المرأة انعكاس للمعاناة من الفحولة

(١) اقرأ كتاب العقاد ( حياة قلم ) .



والإرادة الحديدية .

ومن فحولته وإرادته أنه يرى الرأى فيغدو عقيدة .

شب العقاد في عصر افتقد الحرية فعرف الجمال بأنه الحرية مع أن الجمال عدل الحرية وصنوها . حتى التناسب وهو أحد مقاييس الجمال سلط العقاد عليه فحولة منطقة فيقول : ( . . . ) قد يتم تناسب الشكل في وجه قسم صحيح ثم لا يعجبك ولا تنشط إليه روحك لأنك لا تحس فيه ما يدل على حركة الحياة في نفس صاحبه وذلك ما يسمونه بثقل الروح . . . وندع الأعضاء والأجسام وننظر إلى الفضائل والأخلاق فلا نجد خصلة من الخصائل الجميلة المحموده إلا وكان فيها معنى من غلبة الحرية على الضرورة ) أكد هذا في ( مطالعته ) و ( مراجعته ) .

حتى الأشياء طبق عليها نظريته في الجمال الذي يراه تكاملاً بين الشكل وبين معنى يوحيه أو يضيفه ( فاللادة الصماء نفسها تتفاضل في الجمال بحسب ما يبدو لها من حرية الحركة ومشابهة « الإرادة » فترقنا النيران والرياح والأمواه ، وتطلق في نفوسنا خوالج الحياة ، ونعاطيها شيئاً من العطف لا نعاطيه لغير الأحياء ، وليس لهذا فضل ظاهر على عامة الجماد إلا بما تخيله للناظر من حرية الإرادة ومحاكاة الحياة . ) .

لقد عاش العقاد شبابه في ثورة ١٩١٩ التي جعلت كل مصرى بله الفنان يلهج بالجرية ويعتقها . ومن هنا تأكدت نظرية الحرية وصارت عقيدة ، حتى رفضه ( الوظيفة ) نابع من عقيدة الحرية .

اتخذ السياسة وسيلة لتحقيق الحرية بمعناها الواسع . حرية البلد

وبالتالى حرية كل شىء فيه . . وفى مقدمة هذا قيم الجمال والفن . . وقد كان هذا وراء دفاع العقاد عن الدكتور طه حسين فى الأدب الجاهلى . . . كان موقفاً بطولياً رأى نفسه كرجل فكر وجماليات ملتزماً بالدفاع عن الحرية . ومع تقديسه للحرية يعبد النظام خاصة فى حياته الفكرية . . . هنا تكون الحرية تنظيم القيود . . . إن لعبة كرة القدم لها قوانين ضابطة وأصول وقواعد . . فأولى الفن أن يكون له نظام مميز والإنقلب فوضى .

ومن الحرية ، اهتمامه بالفرد .

ومن الحرية ، حربه الشيوعية لأنها تلغى الفرد . . . واهتمام العقاد بالفرد نابع من ضمير البلد الذى ابتدع فن البورتريه . حتى شكه الأول نوع من الارتفاع على النمطية وتحرر منها ... ولعل نضجه العقيدى الأخير مرجعه أنه وصل بنفسه لا بالتلقين ...

إن مركز الإيمان ليس الشعور ولكن الخبرة التلقائية الدينية من تنمية الذات تصل إيمان صاحبها مباشرة بالله .

إن من يعكف على نفسه يتحسسها ويتفهمها يؤكد أهليتها للأهمية وهذا كرامة .. وهذه التجربة .. هذه المعاملة مع اللاشعور هى الوسيط الذى تتدفق من خلاله التجربة الدينية ، حين يفقد الإنسان الانطباعى الخبرة النفسية الناضجة التى تنسجها الدراسة المستأنية والتمحيص .

واستطاع الإسلام بواقعه وروائحه أن يكون رافعة وجدانية نقلت العقاد من القلق إلى مرتقى عال .

إن الوعى الدينى قدرة القلب البشرى على استشفاف المقدس فى الكون

أو في أعمال الإنسان ...

وغير هذا التدين فإنه ظاهرة . . . عادة قد تكون مجردة من الوعي الديني وقد تتحول إلى الضد . . . إلى نوع من الوثنية التي يحاربها الدين حين تكون التجربة الدينية خبرة مباشرة محققة ذاتية بوجود المقدس أى وعى ديني بلغ الشد . ينسبون إليه أنه قال في مرحلة الشك حين سئل عن الله ( هانسيه يدور علينا هو ) . . . إذا صح صدور هذه القولة فقد يكون فيها من التسليم بالعجز ، إيمان يعدل ما في ظاهرها من التمرد . . . .

على كل حال لقد دور عليه وجابه وشغله لحسابه فكتب كتابه ( الله ) . . . ومن اهتمامه بالفرد واعتداده بنفسه هو ، أنه لم يترجم إلا مجموعة قصص قلما يذكرها أحد . . ثم عدل وإن كان أشرف على سلسلة لفرانكلين . المترجم عادة في رأى الناس هو الرجل الثانى وهو معنى لا يطيقه العقاد . ثم لماذا يترجم آراء الآخرين وعنده جديد دائماً ليعطيه ؟ وكما لم يترجم العقاد ، لم يكتب المسرحية ، لعمق إحساسه بفرديته . . . . المسرحية تحتاج إلى معايشة الناس والانغماس في حياة كل يوم . . وهذه ليست عند العقاد المعتكف المتوحد . . .

وينسحب هذا الكلام على ( القصة ) . ولهذا نجد القصة الوحيدة التي كتبها « سارة » قصته هو (١)

(١) كتب العقاد في أوائل الثلاثينات قصة للسينا تسمى ( أنشودة الفؤاد ) بل وكتب أغاني القليل . . ولكن العملية أو العمل أقرب إلى التكليف منه إلى الانبعاث الشخصى أو الفنى .

المسرحية أشخاص متباينون وعلى المؤلف أن يتقمص كلاً منهم ...  
تري هل يستطيع العقد بعملته أن يتقمص شخصية إنسان تافه أو مخطئ  
أو منحرف مثلاً ؟ مثل هذا التقمص ليس عيباً في كاتب القصة بل قدرة من  
قدراته ولكن طبيعة العقد لا هي تستطيعه ، ولا هي ترضاه ...

المسرحية يبدل ويغير فيها الإخراج المسرحي فهل يطبق العقد هذا ؟  
والمسرحية لا تحمل اسم المؤلف وحده ... إنما اسم المخرج والممثلين ...  
والعقد فرد متفرد ...

المسرحية توزيع للذات .. والعقد تجميع للذات وإدلال بها .. ودلال .  
وحين أصدرت له دار الهلال قصة حياته ، خرجت في كتاب اسمه ( أنا ) ..  
وسواء لدينا أكان هذا الاسم من عندياتها أم من اختياره هو . فإنه بلا شك  
استيحاء نافذ وتعبير صادق عن حقيقة ... إنه يؤكد من خلال هذا العنوان  
( الفردية ) : إنه يقول : أنا الفرد ، لا أناية ، ولكنه الإيمان بالإنسان ...  
إنه يقول أنا الكاتب لا المنشئ ... فقد عاش في عصر العقد ، الأديب  
المنفلوطي الذي كان يصوغ بأسلوب شاعري ما يفكر فيه الآخرون أو يترجمونه  
له . ولكن العقد ، أو الأصالة ، هو الذي يفكر ويدعو ويتعاطف أو يثور ...  
العقد هو الكاتب لا المنشئ .

أما القصة فقد كان يفضل بيتاً من الشعر عليها ، لأن بيت الشعر يركز له  
التجربة الإنسانية أو الموقف الإنساني في ألفاظ قليلة ووقت قصير سريع ...  
ووراء هذا التفصيل خلفية من طبيعة العقد وطبيعة القصة معاً ....  
أما طبيعة العقد فهو كرجل موسوعي يريد أن يقرأ ، وهو يفعل ، في شتى

أنواع المعرفة المتاحة .. وهو كرجل فكر ومسئولية يقرأ للمعرفة لا للتسلية أو حتى للمتعة الفنية ...

وهو كأسلوب شخصية أو شخصية ذات أسلوب كان منهجه في القراءة أن يقرأ في المادة العلمية أحسن ما كتب فيها ولأحسن كاتب في هذا ، بل إن الكاتب المختار يقرأ له خير ما في كتابه من الفصول الجامعة أو الفصول المركزة المقطرة تقطيراً ... خلاصة الخلاصة .

ولا يفرض العقاد هذه الطريقة على أحد فقد كان في معرض حديثه عن عبد الرحمن شكري يقول : ( إنه يقرأ أكثر مني ) ويستدل على هذا بأن عبد الرحمن شكري يقرأ حتى للكتاب من الدرجة الثالثة ... وجهات نظر .

رجل كهذا وخاصة بعد أن بلغ نضجه الزمني والفكري لا يمكن ولا يتسنى له ، أن يقرأ ما تخرجه المطابع من قصص مثنوية أو ألفية ....

ودعنا قليلاً من العقاد هل نحن أنفسنا نطبق هذا ؟ إن القصص الطويلة لا تجد فسحة من وقت إلا عند الشباب .. أما حين يمتد العمر وتغلو الساعات فإنها تكون محسوبة ... والإنسان لا يعطيها إلا باقتناع وقدر ... وليس من هذا ، البذل للقصص الطويلة إلا إذا كانت قمة لها قيمة معينة ... وقد قرأ العقاد رباعية الإسكندرية للورانس داريل وكتب عنها كتابة من استوعبها .

إذن تفضيل العقاد الشعر على القصة له مبرراته المعقولة ولو من زاويته هو ، فليس كل قارئ أو حتى كاتب عنده هذا ( الانضباط الثقافي ) الذي كان يعيشه العقاد .

ولا وجه هنا للحديث في هذا المجال عن الأشكال الهندسية وتشبيه فضل

الشعر على القصة بفضل الدائرة على المربع كما يقول بعض ناقديه .  
 وبلغ من اعتزاز العقاد بإنسانيته وشخصيته وموهبته أنه وقف شعره على  
 نفسه والناس في وقت سار فيه الشعر في حكايا السياسة والإمارة فدواوينه الأولى  
 أفكار وأعماق وتأملات ... أما دواوينه الأخيرة فغنائية تعبيراً عن الإنسان  
 فيه ، عواطفه وآلامه ...

والشعراء عادة يبدؤون بالغنائيات وينتهون بالتأملات ولكنه العقاد الشخص  
 والظروف .

ويراه بعض النقاد في احتفاله بالفرد ، مرحلة لاحقة ومكملة لمرحلة  
 الأفغاني والشيخ محمد عبده ولطفي السيد الذين كانت رسالتهم دعوة إلى  
 « تعقيل الحياة » وترشيد الوعي ، فكان العقاد بشخصه ودعوته ، علامة لدور  
 جديد يجد فيه الإنسان المصري نفسه ، ويحترم ذاته وكرامته .

لم يفرغ بعد حديث الحرية ... فقد كانت معنى يلح على العقاد في نثره  
 وشعره وسلوكه وتصرفه .. كانت الحرية بالنسبة إلى العقاد قولاً وعملاً وكتابة  
 لا شعاراً للزينة .

لقد ورد العقاد والمآزني الأدب الإنجليزي وكثيراً ما كانا يقرآن معاً مرجعاً  
 بعينه أي أن ثقافتهما الغربية واحدة أو متلاقية . وكانا في الحياة متلازمين على  
 امتداد أربعين عاماً ... وكتب المآزني كثيراً عن الحرية .. ولكنها لم تكن عنده  
 التوتر المتوفر كما كانت عند العقاد .

وصف المآزني - نثراً - العصفور ، وصفاً كأنما هو بدع ريشة مصورة ملونة .  
 ووصف العقاد - شعراً - العصفور فكان خط الحرية هو بيت القصيد ....

عصفور المازني ( يذهب إلى حيث يشاء ويحلق في الجو ويسبح في الفضاء .  
ويبصر وهو ناشر جناحيه كل ما بين الأرض والسماء ... عصفور ينحدر على شعاع  
من نور الشمس أو خيط من ضوء القمر .. عصفور يرفع منقاره وهو طائر ويتلقى  
في فمه الدقيق قطرة من المطر ... عصفور يحط على أعلى فتن في أسمى  
شجرة ، أو يهوى إلى الأرض ويخطو بين أغصان البرسيم فتحجبه ، ويضع  
بيضه الصغير في حيث يروقه أن يؤلف عشه .. وعمد منقاره إلى الماء حيث يجده  
ويعص قطرة ويتلفت ... عصفور لا يغير ثيابه ولا يبدل أفواف ريشه ولا يكون  
في رأى العين مع ذلك إلا جميلاً ... آه إنه روح الكون ولا شك في العصفير  
والسحب سابعة تجوب الآفاق ، وفي الأزاهر والأشجار التي لا تكون إلا عطرة .  
ولا تبدو إلا حالية موقفة ولا يعتورها قلق ، ولا يساورها اضطراب ) .

وعصفور العقاد بين الأيك والأيك ... بين السحب والروض .. بين الماء  
والشجر طائر مرفرف حتى بين الشباب والشيخوخة لا يسكن له جناح « مرفرفاً  
قط ما استقر » .

طار وليدًا وطار شيخاً بين البساتين والغُدر  
وهو سعيد سعيد لا يعنيه بل لا يخطر على باله الجنود والحشود والعروش  
والتيجان وما ينجم عنها ويعلق بها من مداهنة ومدارة وخوف وحذر وكل ما يكبل  
الإنسان من قيود تنال حرته ووجوده :

|                            |                               |
|----------------------------|-------------------------------|
| حَطَّ على الغُصْنِ وأنحدرَ | أَقْلَّ منْ لَمْحَةِ البَصَرِ |
| مغرِّداً قطَّ ما تَوَافَى  | مُرفرفاً قطَّ ما اسْتَقَرَّ   |
| كخِفَّةِ الطِّفْلِ في صباه | لكثِّها خِفَّةُ العُمُرِ      |

وَرُودُهُ نَعْبَةٌ فَأَخْرَى      مِنْ خَوْفِ الطَّائِرِ الصَّادِرِ ؟  
يُقَارِبُ السُّحْبَ ثُمَّ يَهْوَى      يُبَشِّرُ الرُّوحَ بِالْمَطَسْرِ  
أَصْدَقُ مَنْ سَارَ فِي سِرَارِ      بَيْنَ الْحَيَاةِ الْعَذْبِ وَالشَّجَرِ  
وَيَسْتَحِثُّ الرِّيحَ ضَرْبًا      بِخَافِقِيهِ فَتَبْتَلِرُ  
أَخْبِرْ . بِالنُّصْجِ مَقْلَتَاهُ      مِمَّنْ سَقَى الْحَبَّ أَوْ بَلَدَ

سَلَهُ عَنِ الْجُنْدِ وَالزُّمَرِ      سَلَهُ عَنِ الْمُلْكِ وَالسُّرْرِ  
لَمْ يَأْتِهِ عَنْهُمْ بِلَاغٌ      وَلَا دَلِيلٌ وَلَا خَبَرٌ  
هَذَا هُوَ الْعَيْشُ فَاغْبِطُوهُ      عَلَيْهِ يَا أَيُّهَا الْبَشَرُ

ومع هذا لا تخلو حياته من المشاكل - وهل خلت حياة العقاد على الرغم من تركه للناس المناصب والمنافع والعروض ؟ ففي حياة العصفور الصغير الكاسر ، والنسر الجارح ، والشرار والشباك .

حَبَائِلُ الدَّهْرِ قَانَصَاتُ      مِنْ طَارٍ أَوْ غَاصٍ أَوْ خَطَرٍ  
إِنَّمَا الْحَيَاةُ دُخْرٌ لِمَا فِيهَا      وَحَارِسُ الدَّخْرِ فِي خَطَرٍ  
وحين تهون على ناس أعمارهم يريقونها على الأرض ، أى على أعتاب الممدوحين ، يرى العقاد أن الطير المغرد هو الشعر كله ( لأنه هو الطلاقة والريبع والطرب والعلو والتعبير والموسيقية . فمن لم يأنس به ، لم يأنس بما في هذه الدنيا من طبيعة شاعره ولم يختلج له ضمير بما في الحياة من فرح وجيشان وتعبير) وهكذا وصل العقاد بشعره ونثره بين عالم الطير وعالم الشعراء . إنه من هذه الزاوية يذكرني بشيلى في قصيدته الجميلة عن ( القبرة ) .. إننا نرى القبرة



٢٣

كثيراً ويبدو أنها دخلت في خية الروتين ولكن « شيللى » شاعر لم ( تترتون )  
رؤيته ... وكم غشى الروتين ، الرؤية وكم طمس أخرى . ولكن هذا بالطبع  
غير إشارات أخرى تزواج بين عصفور العقاد وقبرة شيللى . وليس بين عصفور  
العقاد وقبرة صاحبه إلا خط خلو بال الطائر من العروش وأصحابها والعروض  
والزبوف . ولكن العقاد يستقل بوصف حركة العصفور ودنياه كما يستقل ببعد  
آخر ... وهو آفة ( حبال الدهر ) التي تقنص كل شيء مهما ابتعد بنفسه ..  
تقنص كل ( من طار أو غاص أو خطر ) ...

العقاد منذ عشرات السنين يرى في الطير عوالم شتى :

كل إلف له من الطير إلف      هكذا تجمل الحياة وتصفو  
أمل يرتقى ، وحب ينأجى      ولسان يشدو وقلب يرف  
بك خف الجناح يا لها الط      ير وما كنت بالجناح تحف  
لطف روح أعار جنبيك ريشاً      فمن الروح لا من الريش لطف  
ليس ينميك للسماء جناح      بل غناء عن الضياء يشف  
إن مضى الناس يعجبون قديماً      كيف تعلو؟ عجبت كيف تسف

حقاً إن الطيور فيها من جمال الصباغة وتنوع الشكل ووفرة اللون ، ونخفة  
الحركة في الأرض ، ورفقة الجناح في السماء ما يجعلها من أجمل ما خلق الله .  
إن الريشة في حسن نظامها ودقته وحسمه ورياضة منحنياته ، وفي تمامه ،  
وملمسه ، وفي تماسك نسجه ، مسرح كبير للفكر ...

فيض كبير تستطيع أن تسكبه ريشة من جناح طائر ....

ولأمر ما وضع المصريون القدماء قلب الإنسان في كفة ، والريشة في كفة .

إن القلب الذى يعادل الريشة فى هذه المعانى له جنة النعم ...  
لو تأملنا الجناح لأحسنا أنه موجة بحر فى صورة أخرى من التشكيل ..  
كم فى الطيور من سحر أشكال وألوان . إن الطبيعة فى باب الطيور  
كالمغنى الشرقى الذى يسهر الليل مع الليل ( يقسم ) ويقول : يا ليل .  
الطبيعة فى باب الطيور تبدع أنماطاً مختلفة .  
وفى باب ( الحيوان ) تخلق أنماطاً متعددة وكذلك فى باب ( الحشرات ) .  
والقرآن الكريم يقول : ( وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه  
إلا أتم أمثالكم ) . ( سورة الأنعام : آية ٣٨ ) .  
من معانى الطير عند العقاد ، من واقع عبارته ، ( العلو ) ..  
إن الطير فى طيره رمز للنفس الإنسانية فى تحليلها وشوقها إلى السامى ..  
إلى العالى .. رمز تطلعها ...  
لقد تصور الغزالي فى رسالته ( منطق الطير ) الطيور ، رموزاً ، للنفس ...  
وكان هذا منطلقاً للشاعر الفارسى فريد الدين العطار الذى نظم قصيدته الرائعة  
منطق الطير ....  
والروح أغلى وأعلى ما فى الإنسان ، صورها ابن سينا فى صورة طائر  
فى أبياته :

هبطت إليك من المحل الأرفع      ورقاء ذات تعزُّز وترْفُـع  
محبوبة عن كل مُقلِّد عالم      وهى التى سَفَرَتْ ولم تتبرِّق  
وصلت على كره إليك وربما      كرهَتْ فراقك وهى ذاتُ تفجع  
كما كان السهروردي يرى الروح ( عصفوراً ) والجسم قفصاً .

العقاد إنسان حساس وشاعر في نظرتة رهافة وشمول - ومن الناس من يستخدم عينه جهاز إخطار . إشارة فقط - فهي نافذة إلى عوالم شتى ونافذة على دنى عريضة . إن نسيج الحياة فيه من الطيور والنبات والإنسان . والنظرة المقتصرة أو المبتسرة تورث الاضطراب ...

أن ندرك الطبيعة ككل هو الاتزان بعينه . فالحياة ليست أشتاتاً متفرقة ولكنها وحدة متكاملة . حتى ليقول العقاد للكروان :

|                                 |                                 |
|---------------------------------|---------------------------------|
| أنا لا أراك وطالما طرق اللهى    | وحى : ولم تظفر به عَيْنَانِ     |
| أنا في جناحك حيث غاب مع الدحى   | وإن استقر على الثرى جُمَانِي    |
| أنا في لسانك حيث أطلقه الهوى    | مرحاً ، وإن غلب السرور لسانِي   |
| أنا في ضميرك حيث باح فما أرى    | سراً يغيبه ضميرُ زَمَانِي       |
| أنا منك في القلب الصغير مساجلُ  | خفق الربيعُ بذلك الحَفَقَانِ    |
| أنا منك في العين التي تهب الكرى | وتفيض بالصحوات والأشجانِ        |
| طير في الظلام بمهجة لو صافحت    | حجر الوهاد لَهَمَّ بالطيرانِ    |
| تُغنيك عن ريش الجناح وعزمه      | فَرَحَاتُ منطلق الهوى نَشْوَانِ |

كل هذا الخفق من المشاعر ، والدفق من المعاني يهديه العقاد للكروان ..

حين يقول بعض الناس الطير ويقصد ( الدبان ) . . . ! . . .

فإذا ارتفع قليلاً كانت الطيور هي العصافير . . . !  
 بل أهدى العقاد ، الكروان ، ديواناً كاملاً ( هدية الكروان ) مع أن الشعر المصرى لم يلتفت إلى هذا الطائر المصرى حتى ليعجب العقاد في مقدمة الديوان :

من العجيب أنك لا تقرأ صدى للكروان فيما ينظم الشعراء المصريون ،  
على كثرة ما يُسمع الكروان في أجوائنا المصرية من شمال وجنوب !  
وأعجب منه أنك لا تقرأ فيما ينظمون إلا مناجاة البلبل وأشباهاها  
على قلة ما تُسمع في هذه الأجواء !

فكأنما العامة أصدق شعوراً من الشعراء ، لأنهم يلقبون المغنى  
بالكروان ولا يلقبونه بالبلبل ، فيصدرون عن شعور صادق ويتحدثون  
بما يعرفون .

إن كثيراً من شعر العقاد الذى لا يقرؤه الكبار يجب أن نعلمه الأطفال  
لنربطهم بروعة الحياة ، أو نعلمه الأم المصرية لتكون سبابة إليه قبل  
طفلها حين يكبر حتى لا يقول مقالة ذلك الذى قال عن أمه ، يكفيها  
فخراً أبي لها ابن ، امتداداً لادعائه النبوة .

من أوصاف الأدب العربى للسعيد ، القول : غنت بلبله . . .  
وهذا القول رمز عندى إلى أن داخل الإنسان فيه عوالم شتى منها الطيور . . .  
فإذا كان سعيداً تغنى بلبله . . . وإذا كان تعبساً متطيراً تنعق في داخله  
البوم والغربان ، وإذا كان ثرثاراً تنق فيه الضفادع . . . وهو بالغناء  
والنعيق وبأشياء أخرى كثيرة ، إنسان . . .

إن في حديث العقاد عن الكروان تربية للوجدان . . .  
والشعراء عندنا ينمون وجدان الناس على المستوى الأتقى . . .  
البارودى شاعر عظيم . . . نفص التراب عما عندنا من جيد . . .  
وهذه بلا شك مرحلة . . .

وشوقى عارض الأقدمين وتفوق عليهم أحياناً كثيرة . . . ووفر لشعرنا أصواتاً كثيرة وملأه موسيقية . . . وهذه مرحلة .

عندنا في العربية رثاء كثير ولكن نادراً ما نجد موقفاً كبيراً أمام الموت .  
عندنا غزل كثير ولكن نادراً ما نجد موقفاً كبيراً أمام أجمل العواطف الإنسانية .

عندنا الكروان والعقاب والعصفور وكل ما ألهم العقاد الشعر لا الكلام ،  
ولكننا مررنا به بلا عطف أو تفضلنا عليه بالوصف ولكن من الظاهر  
لأننا انشغلنا باللغة لا بأفاق النفس واللغة مطلب يسير . . .

هل ينترف الكوز من البحر وهو كنوز ، أكثر من قطرات ؟ . . .

ولكن الغواص إلى الأعماق يظفر باللؤلؤ والمرجان . . .

لماذا قال القرآن الكريم : ( وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . . . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . . . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ) .

( سورة الشعراء : آيات ٢٢٤ - ٢٢٦ )

لقد انتفى الصدق . . . مثل هذا الشعر صناعة . . . لقد أزرى القرآن  
بمثل هذا الشعر وهو أروع كتاب لا من الناحية الدينية فحسب ، ولكن  
من الناحية الأدبية الفنية الجمالية . . . ولكنه رأى الشعر الجاهلي الموجود  
وقت نزوله هوية وغواية يتنزل بالنفس حين يرتفع هو كأدب حقيقى راق  
بالنفس ويسمو بها . . .

وحتى اللغة كثيراً ما أسأنا إلى الألفاظ والمعاني . . . فحرفنا معنى الحبلة  
إلى الحذقة والصرامة الصارمة ، مع أن الإمام أحمد بن حنبل من أرق

الأئمة وأوسعهم أفقاً .

ولفظه ( البركة ) التى تعنى الزيادة والخير والنعمة أخرجناها عن مدلولها وأدخلناها فى جو السهولة .

ومثل هذا لفظ ( الفن ) الذى يعنى فى التخريج الجديد ، البوهيمية . فإذا لم نحرف الكلم عن مواضعه ، قلق به من التكرار المستوم؛ موضعه . فنقول ونعيد حضارة سبعة آلاف سنة حتى باتت العبارة وكأنها اكتفاء وإيحاء بالجهد الجهد وبالتالى النوم والراحة . . . مع أن سبعة آلاف سنة معناها عبء ومسئولية وكثر يستوجب السهر للحفاظ عليه .

\* \* \*

والعقاد الشاعر والكاتب والمفكر يقدر مع الحرية الفن والفنان : والشعر من نفس الرحمن مقتبس والشاعر الفذ بين الناس رحمن والفق عند العقاد أعلى وأعلى من الأغراض والمنافع . . إنه الحياة مصفاة من الرتابة والآلية وغبار الاحتكاك اليومي . . . الفن عنده كشف لا وصف من الظاهر الخارجى . . .

( الأمة بغير علم ، أمة جاهلة ولكنها قد تكون على جهلها وافية الخلق والشعور . . . والأمة بغير صناعة أمة تعوزها أداة العمل ولكنها على هذا قد تكون صحيحة الحس صحيحة التفكير . . . والأمة بغير تعبير أمة مهزولة أو مشرقة على الموت ، وكذلك تكون الأمم التى خلعت من الفنون لأن الفنون تعبير الأمم عن الحياة ) .

وليس بفن عند العقاد الخطوط الصماء أو التصوير المحسوس . . .

٢٩

ليس بفن عند العقاد ما لا يحمل رؤى ممتدة تصل قلوبنا بقلب الفنان .  
فالظمآن لا يجديه شيئاً وصف الماء ولكن يرويه الشرب . . المذاق . .  
الذوق بكل ألوانه شيء ليس في الكتب . . إنه كما يقول العقاد استعداد  
خاص وبذل خاص .

ليس الخطوط الصماء ولكن أناقة المبنى ولطف المعنى ونصاعة الشكل . .  
حشد من الدختر والبشر .

الدختر حين تثبت في الراحة من فرط الدقة ، وتكسو البساطة غزارة  
التركيب كالزهر يهر بالألوان ، ولكنه بعد اللون عالم فسيح للفن . .  
وللعلم . . وللحياة . . أما البشر فسر من أسرار الشخصية المصرية . .  
إنه يغطي بحراً من المهوم . .

ولأمر ما يقترن في ذهني وشعوري ، الفن ، بالآية : ( يرزق من يشاء  
بغير حساب ) فعطاء الفنان ، وقد يكون في عمل واحد ، قدره وتقديره  
بغير حدود . . . وإلا فأى حساب يقابل الموهبة نفسها ؟  
يقول العقاد في غنائه للكروان إذ يرفرف في الهزيع الثاني :

يحدو الكواكب وهو أخفى موضعاً من نابغ في غمرة النسيان  
ما ضرَّ من غنى بمثل غناؤه أن ليس يبطش بطشة العقبان

إن الجمال والفن قيمة كبرى عند العقاد . . . دونهما بكثير القوة  
والسلطة . . . ولغة الموسيقى أغنى عنده من لغة الحروف :

أغنى الكلام عن المقاطيع واللغى بث الحزين وفرحة الجدلان

وهو يقرن بين المعرفة والموسيقى :

مُعَلِّمَةُ الْإِنْسَانِ مَا لَيْسَ يَعْلَمُ      وَقَائِلَةٌ مَا لَا يَبُوحُ بِهِ الْقَمُ  
أَعْيَدِي عَلَى الْقَوْلِ أَنْصَتَ وَأَسْتَمِع      حَدِيثًا لَهُ فِي نَوَاطِلِ الْقَلْبِ مِسْمُ  
حَدِيثًا يَنَاقِشُنِي وَأَذْكُرُ أَنِّي      تَسْمَعُهُ وَالْقَلْبُ وَسْنَانُ يَحْلُمُ  
وَأَوَّغِلُ بِالذِّكْرِ فَأَزْعُمُ أَنَّهُ      قَدِيمٌ كَعَهْدِ الْقَلْبِ أَوْ هُوَ أَقْدَمُ  
أَعْيَدِي عَلَى الصَّوْتِ أَنْظِرْ لِعَلِّي      أَرَى فِي ثَنَابِ اللَّحْنِ مَا يُتَوَسَّمُ  
وَيَا رَبُّ وَجْهٍ يَطْرُقُ السَّمْعَ حُسْنُهُ      إِذَا غَنَّتِ الْأَوْتَارُ أَوْ يَتَسَنَّمُ  
والجمال والفن جوهريهما عند العقاد ، الصديق . . . إن مقياس  
العمل الفني ليس العرق كالأعمال اليدوية وحتى هذه ليس العرق وحده  
مقياسها فقد يعرق المرء لأنه يعمل خطأ . . . ولكن المقياس أن يكون العمل  
إنسانياً أى مترعاً ببشرية العامل وجهه له ، وأن يكون الفن صادقاً وأميناً  
منبثقاً في لحظة خلوص . . . والخلوص نقطة لا ترى . . . نقطة تلاقي  
الكيان الإنساني بمذخوره ، مجمعا ، في سن القلم أو الريشة عند ملامستها  
للصفحة أو اللوحة .

هنا يكون الفن عطاء قلب . . . وفيوض روح . .

والفنان الصادق عند العقاد رؤية جديدة للحقيقة . . . كشف لها  
في داخل نفسه وخارجها . . . فهو يفتح بالبصيرة النافذة ، للحقيقة  
حوله وفي أعماق نفسه . حتى الصورة الفوتوغرافية محكومة برؤية المصور نفسه .  
ورؤية العقاد لكثير من أعمال الفنون التشكيلية وكتابته عنها ونقده  
التطبيقي لها ، رؤية بصيرية ، وكتابته (ساعات بين الكتب) هو في



الحقيقة أيام بين المعارض والمتاحف أيضاً ، كما أن بيته ليس مكتبة أدبية ضخمة فحسب ، ولكنه بيت يضم مع المكتبة مجموعة موسيقية عظيمة ومجموعة لوحات تتقدمها لوحة (أنس الوجود) للفنان هدايت، ولوحات من فن فنائنا شعبان زكى ولييب تادرس ومحمد حسن حتى ليقول الفنان الأستاذ بدر الدين أبو غازي :

( ليس من جيل العقاد مفكر أو أديب مثله عكست كتاباته اهتماماته بالفنون وأصبحت منذ البدء عن وجهة نظر بل عن يقين في ضرورة الفن للمجتمع ، وعن مدلول الفن الجميل في نظره ، ومصاحبة العقاد في كتاباته تطلعننا على منهج متماسك في النظر إلى الأعمال الفنية . ويصدر عن خلفية فلسفية لمعنى الجمال عنده ، ويقدم أمثلة تطبيقية تشير إلى ذوقه ومطالبه من العمل الفني ، ويحدد مدارس وأعمالاً يؤثرها بحبه ) .  
لقد نقد العقاد ١٩٢١ النموذج الأول لتمثال نهضة مصر وأخذ على الفنان محمود مختار ما في أبي الهول في النموذج من ملامح بظلمية . .  
وقد وقع هذا النقد من الفنان المثل مختار موقع الأهمية العلمية لصحته ودقته فأخذ به وأخرج أبا الهول ، على هدى رأى العقاد ، في صورة مصرية فرعونية .

والعقاد الفنان داخله مملوء النفس بمجالى الطبيعة ونداءاتها فهو :

كلما أشرقَ في الليل القمرُ  
وسها الناسُ ولادُوا بالحُجَرِ  
خِلت أرواحاً تداعَتْ للسَّمَرِ  
زُمراً تهجس من حول زُمَرِ

أن هذا الحُسْنَ لا يَمُضِي هَدَرٌ  
حيثما أَسْفَرَ نورٌ وانتشَرُ

( ديوان وحى الأربعين )

في النور يحلو في عينه . . عين الفنان كل شيء :  
في الليلة القمر ما أحلَّ النَّظْرُ لكل شيءٍ لَاحَ في ضوء القمر  
حتى الترى ، حتى الحصى ، حتى الحجر

فإذا تنفس الصبح تهلل العقاد وهلل للنور . . للحياة :  
صَفْحَةُ الْجَوْعِ عَلَى الزَّرِّ      قَاءَ كَالْخَدِّ الصَّقِيلِ  
لَمْعَةُ الشَّمْسِ كَعَيْنٍ      لَمَعَتْ نَحْوَ خَلِيلِ  
رَجْفَةُ الزَّهْرِ كَجِسْمٍ      هَزَّةُ الشَّوْقِ الدَّخِيلِ  
حَيْثُ يَمُتَ مَرُوجٌ      وَعَلَى الْبَعْدِ نَحِيلُ  
قُلْ وَلَا تَحْفَلْ بِشَيْءٍ      إِنَّمَا الْعَيْشُ جَمِيلُ

(إنما العيش جميل) وهو الذي لاقى فيه أهوالاً . ولكنه الفنان فيه  
الذي يحس (رجفة) الزهر و (هزة الشوق الدخيل) . إنه الفنان فيه  
الذي يسعده أبسط الأشياء في أعين الناس وإن كانت أكبرها في عينه  
هو . . . .

حتى سهولة الكلمات في هذه الأبيات تنم على نفس راضية منبسطة  
متطلقة ، في ذلك الوقت على الأقل ، هذه البساطة تكاد تجعل الأبيات  
على غزارة مشاعرها عفوية . . . بريئة، طفلة . . .  
إنه العقاد الذي يرق هذه الرقة كلها في الشعر وهو نفسه العقاد



اللى اشتغل بالسياسة على أنها قضية حرية . وفي سبيل هذه الحرية والوطنية فجر قبلتين في البرلمان في ٢٣ يونيو عام ١٩٣٠ مهدداً الملك فؤاد بتحطيم الرأس الذى يعتدى على الدستور ؛ فإذا بالوفد حزب العقاد تأخذه المفاجأة المدوية كالقصر سواء بسواء بل كان العقاد أحياناً يعتمد تصعيد الهجوم حتى لا يترك للوفد وهو حزبه طريقاً للمهادنة أو المساومة . وكانت صيحة العقاد علامة كبيرة نبذت الأحزاب خلافاً لها على أثرها لتلتقى على طريق الدستور تعيده إلى البلاد .

وسرت اليقظة في الحياة المصرية فظهر القديثيون وسمع للمتفجرات دوى كأنه تجديد لدوى الكلمة المججلة . . . وسارت المظاهرات .

وأسرّها القصر للعقاد . . . بل إن المعتدلين من نواب حزب الوفد استنكروا جرائه ! حتى رئيس الوفد لم يكن راضياً ! رئيس آخر كان راضياً وملياً ذلك هو الشعب .

كان العقاد على بسطة الجسم وفراة الطول ، ضعيف البنية ، ضعيف الصدر خاصة ، يتوق البرد والحر ويتحرى ما يأكل وما يدع . . . ومع هذا استقبل الحكم عليه بالسجن ثابتاً من وثوق ، واثقاً من إيمان بالله والرأى والوطن .

ودخل السجن وهو يعرف ما ينتظره فيه من تهديد لحياته ، مرفوع الرأس . وخرج منه مرفوع الرأس رفيع التصميم . . . لم تهدأ له ثورة داخل القضبان . . . وحين انتهت المدة خرج من

السجن ليقول بيتيه العتيدين :  
 وكنت جَنِينُ السَّجْنِ تسعة أشهرٍ      وهأنذا في ساحة الخُلْدِ أولد  
 عِدَاتِي وصَحْبِي لا اختلافَ عليهمُ      سيعهدني كلُّ كما كان بعهد  
 لجأ القصر إلى المصانعة فعرض عليه أن يكون مدير الإدارة العربية فرفض .  
 عرض عليه المعارضون منصب مدير دار الكتب فرفض .

ويرتقى العرض فيما بعد إلى منصب مدير الجامعة فرفض !  
 وفي وزارة الائتلاف الدستوري تعرض عليه الوزارة فيرفض .  
 لم يستهوه منصب أو جاه أو منفعة فقد أسقط هذا كله من حسابه  
 مع كثرة ما عرض عليه منه . . . إنه لا يريد لأحد عنده من نعمة تُجزي  
 حتى الوفد ثار عليه حين أنكر منه ما لا يرضيه . . . لهذا لم يدع استبداداً  
 في أى صورة من الصور إلا حمل عليه مستجيباً لنداء الكرامة والفكر معاً . . .  
 إنها رسالة الكاتب عرف الأمانة فيها ، وشرف الكلمة والرأى والضمير ..  
 (عباس محمود العقاد) .

لو أن العقاد بتركيبته هذه ، جاء بعد القرن العشرين أى بعد أن  
 فرغنا من عملية نفض الركام - في الأدب والسياسة على السواء -  
 وإرساء قواعد النهضة والتطلع إلى الغرب ثم اللحاق به وما يجرى هذا  
 المجرى في الميادين الأخرى من مصاولات أدبية وتيارات فكرية . . الخ  
 لو جاء العقاد بعد مرحلته التاريخية التي شدته إليها وغمسته فيها بحكم  
 منطقها . . . لو عاش متخففاً من هذا كله لأعطى العقاد عطاءه كاملاً  
 بلا تشبث أو تفتيت في النفس والجهد . . . فعند العقاد من الأصالة

والفحولة الفكرية ما يعطى معه على الصعيد العالمى .  
ولكن لعل هذه المرحلة التاريخية من حياة وطنه هى التى أصّلت  
دوره فى حياتنا الفكرية بما أصّله من معان ومضامين وإرساء قواعد وأفكار .  
إن الدكتور ( طه حسين ) أستاذ أدب .  
أستاذ جامعة ورجل دولة .  
أستاذ يشرح ويفصل ويطوف ويربط وينقد ويعرض . . . ويستوزر  
ويحكم ويتمتع بهالات وشيآت .  
الدكتور طه حسين بهذا كله أستاذ أدب ورجل دولة .  
ولكن العقاد رجل فكر وراهب صومعة .

## المَبَابُ الثَانِي

### الشَّخْصِيَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ







## الفصل الأول

### عقريات العقاد

الكتابة عن العبقرية والبطولة أو العباقرة والأبطال خط واضح مميز في أدب العقاد . وهذا الخط له أهمية خاصة عند الدارسين، فهو عنوان تدرج تحته عناوين كبيرة من حيث الموضوع والدلالة . فالشخصيات الإنسانية التي كتب عنها العقاد منها ما هو أدخل في فن التراجم ومنها ما هو مزيج فني بين الترجمة والدراسة الأدبية . وهي في الحالين وعلى أي الصورتين مفتاح من مفاتيح نفسه هو ، وشخصيته هو ، بل لعلها أهمها جميعاً وأقربها إلى دخول عالمه . . . الأدبي والإنساني .

وليست الشخصيات التي كتب عنها العقاد كلها من طراز واحد هو طراز العبقرية والتفرد المميز أو الامتياز الفرد ، فقد كتب العقاد عن عمر ابن الخطاب ، وعن عمر بن أبي ربيعة ، بل ظهر كتاباه عنهما في وقت واحد . ابن الخطاب بما في شخصيته الرائعة من مذخورات للكتابة وموضوعات للقلم ، وابن أبي ربيعة . . يحسن بي أن أترك الميدان لفارسه ، يقول الأستاذ العقاد : ( ابن أبي ربيعة ولا ريب ظاهرة أدبية ، وظاهرة نفسية قليلة النظير في الآداب العربية ، وحقه في الدراسة كحق جميع الشعراء المعروفين بجهة الفن وصدق التعبير . . وإنه لفي الطليعة الملحوظة من هؤلاء ) (١) .

---

(١) ص ٧ شاعر الغزل .

أما كون ابن أبي ربيعة شعره كله غزل وديوانه كله رسائل غرام فلا يثير دهشة عند العقاد : ( لأنه كان يعبر عن حاجة من حاجات عصره تتسع للدواوين )<sup>(١)</sup>.

فابن أبي ربيعة يستحق الكتابة بما يمثل من حقيقة عصره : ( وإن لم يكن أفضل شعرائه نظماً ولا أبرعهم قصيداً ولا أقدرهم صناعة ، على إجادته الموفقة في أبيات ومقطوعات )<sup>(٢)</sup>.

كما كان في شعره يمثل حياته هو أصدق تمثيل ( وإن أصدق الشعراء فنا وحياة لمن تعرفه بديوانه وتعرفه لديوانه )

وكتب الأستاذ العقاد عن النواصي بما هو ( شخصية ) يعرفها المتأدبون والقارئون والأميون على سواء بينهم وإن تفاوتوا بعد هذا في ناحيته الفنية . ( شخصية تحجب حقيقتها - على الشهرة والذوبوع - أغطية كثيرة جعلت دراستها النفسية ودراستها التاريخية موضوعاً يستحق الكتابة بما يبرز من هذه الحقيقة من وراء تلك الأغطية المضللة . وحسب الكتابة أن تمحص حقاً وتدحض باطلاً وإن كان ( موضوع ) الحقيقة شخصية مأمونة كأبي نواس الذي لا يشفع له إلا عزوآفته إلى الضعف والشعور المغلوب لا إلى الشر والأذى )<sup>(٣)</sup>

ولئن كان حبه مشوباً بشهوته لقد كان لمحاسن الدنيا حب مطبوع

---

(١) ص ٢٩ شاعر الغزل .

(٢) ص ٦٢ » »

(٣) ص ٧ » »

» » » » » (۲) ص ۱۸۳

وقصيدة (ترجمة شيطان) فجرت في الأدب العربي آراء ومواقف لعل أبرزها وأظرفها موقف الدكتور طه حسين فقد قال عنها : ( . . . قصيدة لن ينقضى إعجابي بها . وقد أقرأها عشرين مرة أو ثلاثين . . . والسبب في ذلك أنني أجد فيها كلمات قرأتها معنى جديداً ، أو معاني جديدة . ثم هذه الطرافة المدهشة . وتستطيعون أن تبحثوا عن مثلها في الشعر القديم فلن تجدوا لها شبيهاً ) ومن أجلها قال : ( ضعوا لواء الشعر في يد العقاد وقلوا للأدباء والشعراء : أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه ) .

وتهامس الخبثاء إنه يخلع عليه إمارة الشعر لتخلوله إمارة النثر . وما كان العقاد أو طه حسين في حاجة إلى التقسيم أو المقابضة الأدبية فإن تصدرهما لدولة الأدب يغني فيه الواقع عن التنصيب والتلقيب . ومن الطريف أن الدكتور طه حسين على إثر محاولات نقدية بينهما ، أنكر أنه بايع العقاد بإمارة الشعراء ! في مقال له بجريدة الجمهورية .

\* \* \*

ما هو الخط الرابط بين النماذج المختلفة التي قدمها لنا العقاد ؟ لقد تناول ألواناً مختلفة من الموضوعات بينها من التباين ما بين فلسفة هيوم وبجون أبي نواس .

والعقاد لم يلتزم منهجاً واحداً في كتاباته اللهم إلا إذا استثنينا عبقرياته الإسلامية فهي تكاد تكون ذات طابع واحد .  
ما هذه الأنماط . . ما هي ؟

ما هذه المناهج ؟

ما هذه الموضوعات ؟

ثم ما هى القيم الفنية والإنسانية التى تعطيها ؟

ما هى الدلالات الكامنة فيها ؟

أسئلة يحاول هذا الكتاب أن يجيب عنها . . وأن يوفىها . .

تكلم العقاد عن سمو الإنسان فى محمد الرسول ، والمسيح ، وأبى بكر الصديق ، وغاندى ، والشيخ محمد عبده وعن عبقريته فى عمر ، وعن شاعريته فى عمر بن أبى ربيعة وجميل بثينة ، وعن إبداعه فى شكسبير وبرناردشو وجيته ، وعن طاقاته الخالقة والفاتحة فى ابن سينا وابن رشد ، وعن علمه فى فرانسيس بيكون . وعن ملكات القيادة فيه . . فى سعد زغلول ومحمد على جناح ، وبنيامين فرانكلين .

كل فى مجاله، شخصية . . والشخصية فى فكر العقاد وأدبه قمة الوجود الإنسانى . . تكامل الكيان البشرى نحو قيمة جديدة . . وينطبق هذا عنده على الأمم كالأفراد . . فالشخصية بالنسبة إلى الأمم خلق حضارى كالذى فعلته مصر والهند والصين فى العالم القديم .

طريق طويل أو عوالم شتى . . يضل فيها بلا مراء من لا يعرف كلمة السر . . أوسر الكلمة . . الكلمة التى قالها العقاد فى كل واحد من هؤلاء . هذا السر هو تهديسه للفرد وتهديسه للذاتية ، ذلك التقديس الذى يقف وراء الكثير من آرائه وكتابات ، ولعله مفتاح أشياء كثيرة عنده . . فتمجيده للديمقراطية التى تكفل حرية الفرد وأهم ما فيها عنده : ( أن

يشعر كل فرد ، وكل فريق بأنه صاحب رأى فى حكومة بلاده وبغير ذلك لا تتحقق لها مزية ) فالديمقراطية بلغته الحاسمة الحتمية ؛ ( إما أن تكون ثقة شعبية أو لا تكون شيئاً ) وحيثيات هذا الحكم العقادى يفصله تفصيلاً كتابه : ( الحكم المطلق فى القرن العشرين ) .

وحربه الشيوعية إذ يستحق كما يقول فى كتابه ( أفيون الشعب ) أن يسمى مذهباً هداماً كل مذهب يقضى على جهود الإنسانية فى تاريخها القديم والحديث ، ولا سيما الجهود التى بذلها الإنسان للارتفاع بنفسه من الإباحية الحيوانية إلى مرتبة المخلوق الذى يعرف حرية الفكر وحرية الضمير .

ثم ثورته على الشعر العربى التقليدى ومعظمه مدح بل إغراق فى المديح والتبعية بمسح شخصية الشاعر وبذبيها فى شخص ممدوحه وهدر القيم الفنية فى أثناء هذا لأن الفن عند هؤلاء وسيلة لا غاية . .

وتقديره ( العبقریات ) أى التفرد أى الامتياز الخاص ومقاييسه الفنية . . بل إن الإسلام نفسه لم يأت تفضيله له إلا باعتباره العقيدة المثلى للإنسان منفرداً أو مجتمعاً ، وعاملاً لروحه أو عاملاً لجسده ، وناظراً إلى دنياه أو ناظراً إلى آخرته ، ومسالمًا أو محارباً ، ومعطياً حق نفسه أو معطياً حق حاكمه وحكومته . . أى أن شمول العقيدة فى ظواهرها الفردية وظواهرها الاجتماعية مما فصله فى كتابه ( الإسلام فى القرن العشرين ) ، وهى المزية الخاصة فى العقيدة الإسلامية ، وهى المزية التى توحى إلى الإنسان أنه ( كل ) شامل فيستريح من فصام العقائد التى تشطر السريرة شطرين

ثم تعيا بالجمع بين الشطرين على وفاق .  
والقرآن كتاب الإسلام من مزاياه الواضحة الجديرة بالاعتبار مزية  
( التنويه بالعقل والتعويل عليه في أمر العقيدة وأمر التبعية والتكليف ) .  
والتفكير فريضة إسلامية أى الذاتية أى احترام الإنسان .  
وحين يكون العمل بالعقل أمراً من أوامر الخالق يتمتع على المخلوق  
أن يعطل عقله مرضاة لمخلوق مثله ، أو خوفاً منه ، ولو كان هذا المخلوق  
جمهرة من الخلق تحيط بالجماعات وتتعاقب مع الأجيال ) .  
كل هذه الخطوط الكبيرة في شخصية العملاق الذى سافر إلى  
أسوان ، تنبع من حقيقة كبرى تملأ عليه نفسه وهى تقديس الإنسان . .  
وتقديسه للذاتية هو الذى جعله يرفض تعريف ابن خلكان لشاعره الأثير  
ابن الرومى ، مع ما فى ظاهر هذا التعريف من مدح بالغ فى رأى كل  
عين إلا عين العقاد . أما النظم العجيب والتولد الغريب والغوص على  
المعاني النادرة واستخراجها من مكانها وإبرازها فى أحسن صورة ،  
واستيفاء المعنى حتى لا يبقى فيه بقية . كل هذا مما يبهز القارىء ، يراه العقاد  
ناقصاً بل ناقص فيه هو المهم وهو الأجدر بالتنويه كما يقول . فالغوص  
على المعاني . . إلخ هو لعب فارغ كلعب الحواة المشعوذين إن لم يكن  
صاحبه صادق التعبير مطبوع التمثيل والتصوير ، إذ المزية الكبرى  
للشاعر إنما هى الطبيعة الفنية ( هى تلك الطبيعة التى تجعل فن الشاعر  
جزءاً من حياته أباً كانت هذه الحياة من الكبير أو الصغر ، ومن الثروة  
أو الفاقة ، ومن الألفة أو الشذوذ . وتتمام هذه الطبيعة أن تكون حياة الشاعر

وفنه شيئاً واحداً لا ينفصل فيه الإنسان الحي من الإنسان الناظم ، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره وموضوع شعره هو موضوع حياته ، فديوانه هو ترجمة باطنه لنفسه يخفى فيها ذكر الأماكن والأزمان ، ولا يخفى فيها ذكر خلجة ولا هاجسة مما تتألف منه حياة الإنسان .

والشعر الجيد يساوى عنده الطبيعة الفنية ( أما المعاني والتوليدات فهي وسائل إلى غاية لا قيمة لها فيما تؤديه وتنتهي إليه ، ويستوى بعد ذلك من أدى إليك سريرة نفسه بتوليد وإغراب ومن أداها إليك بكلام لا إغراب فيه ولا توليد ) ،

فالشعر من الشاعر هو إهابه الموصول بعروق جسمه المنسوج من لحمه ودمه ، وليس لباساً للزينة في مواسم الأيام ولا لباساً يلبسه للابتدال في عامة الأيام .

\* \* \*

حتى الصحافة لم تستطع أن تجنى عليه جنايتها على الأدباء ، فظل أسلوبه له طابعه الذي لا يتغير ، طابع الدراسة والاستقصاء والتمحيص ، وهذا صدى لفرديته واعتزازه بذاته حتى لتغلب شخصيته فلا تطنى عليها شخصية أخرى فردية أو معنوية . . إن الصحافة تغلب بالكمرة وهو معتكف متعالم متفرد .

وما يتصل بصفة ( الذاتية ) عند العقاد ، إيمانه بالإنسان . فالعقاد الكاتب السياسى الذى هز الوزارات والعروش كان لا يرى رأى من يبررون القتل السياسى . وكان يأخذ على الشيخ جمال الدين الأفغانى أنه أوعز



بقتل الشاه . روى لى مرة أنه شاهد فيلماً يقضم فيه (Attila) زور عدوه فتقرز من المنظر حتى لم يَم ليلته ، فلما وقعت حادثة دنشواى هزته هزاً عنيفاً تضاءلت معه بشاعة هذا الحادث حتى خيل إليه أن إنجلترا لو تجسمت له لقضم زورها كما فعل (Attila) تماماً . لقد كان وقت الحادث فى أسوان حين طلعت عليهم اللواء بهذا العنوان ( يا دافع البلاء ) والتفوا حول الجريدة أربعة يقرءون فأغمى على أحدهم وانخرط الباقون فى البكاء . لقد سمعته يقول إن دنشواى أصابته بصدمة لم تتكرر فى حياته . ومع أنها حادثة فردية وهناك من الحوادث القومية ما هو أضخم منها ولكنها ، من الناحية الإنسانية ، كانت تأثيره وتفزعته وكان يتناولها بمنطقه المعهود وعقله الثاقب فىرى أن الاعتزاز بالقوة إلى حد الاستباحة . . . استباحة كل شىء يجرح كرامة الإنسان . وكان العقاد مؤمناً بالإنسان إيماناً يبلغ حد التطرف والمغالاة من حفاظ على الكرامة والشخصية جعله يغضب من التلويح البعيد غضبة إنسان آخر مما يجرح أويسوء .

كان العقاد يتمنى على لودفيج فى كتابه عن نابليون ألا يستطرد فى أسلوبه بتلك السهولة وذلك الانسجام ، وأن يعمد إلى التركيز من حين إلى حين ( ليستوقف السياق المألوف ويطلع قراءه على مواضع الغرابة والتفديس فى البطل الممتاز كما أطلعهم على شئونه التى تجرى فى الحياة مجرى العادة والعرف المشاع ) (١) .

وحجته فى هذا أن ( العرف المألوف لا يستفز القدوة ولا ينصف

العظمة ولا يبعث الشوق إلى المعرفة ، فأبراز جوانب الغرابة والتنويه بها هو الأساس في تراجم الأفعاذ الذين ما كانوا أفعاذاً إلا لأنهم غرباء يختلفون عن سواد الناس (١) .

الذاتية والشخصية الإنسانية هي محور تقديره وتفكيره . من أصالة ذاته هو وقوة شخصيته هو .

والعقاد أحب صفاته إليه : الشاعر . ولكل شاعر شيطان يسكن وادى عبقر - هكذا يقول العرب - وقد ترجم العقاد للشيطان . وحتى هذا يرى الأستاذ عبد الرحمن صدق أن ( الشيطان الذى أحياه العقاد ، وأماته ، وصور لنا حياته هذا التصوير البديع ، إنما هو شيطان العقاد وشعره . . . وهذه النفس الطامحة التى لا حد لآمالها . . هذه النفس التى لا يرضيها شيء ولا تستريح ولا تطمئن إلى شيء ولا ترضى إلا لتسخط ولا تستقر إلا لتتحرك حركة لا حد لها ، حتى إذا خرجت من الحياة وانتهى عهدها بالوجود ، فإن آثارها لا تزال قائمة تعمل فى النفوس وتغريها وتبعث فيها الحركة ، وإن كان الشيطان قد استحال إلى رماد فى القبر ، هذا الشيطان هو سحر صاحب الفن . والذى نلاحظه فى كل أثر من آثار العقاد أو الشعراء النابهين أمثال العقاد ) .

لقد كتب العقاد عن « الذاتية الإنسانية » فى مجال تفرد بها بما فيه

---

(١) ساعات بين الكتب ج ٢ ص ١٤٦ .

٤٩

هو من التفرد والامتياز وكأنه يرى نفسه من خلالها أو يرى نفسه من خلال .

\* \* \*

وهو بكتابته عن شخصية من الشخصيات فذلك علامة تقدير لأنها علامة طريق .

فابن رشد موضوع للكتابة بمكانته في تاريخ الفكر الإنساني إذ هو شارح المعلم الأول أرسطو وأكبر الفلاسفة الشراح أثراً في الغرب من القرن الثالث عشر إلى القرن العشرين .

وهو موضوع للكتابة بمشاركاته في الفكر والفلسفة والطب والفقه وما يتخللها من معارف ، موزعة كالعلم الطبيعي وما إليه في زمانه .

وهو موضوع للكتابة بما رزقه من أنصار ومعجبين من أصحاب الأديان الثلاثة ممن لم يرزق مثله فيلسوف قبله ولا بعده . وهو الذي كان له مصادر ومضطهدون من أتباع كل دين ، وخدام كل سلطان . ولو أن المصادرين عملوا قصداً وعمداً على نشر آرائه وشروحه لفاتهم بعض النجاح وأخطأهم بعض التدبير كما يقول العقاد .

وابن رشد موضوع للكتابة بما رزق من بعد الأثر واتساع مداه ، وبما رزقه من قوة الأثر وعمق البحث فيه وشدة الخلاف عليه . وبين هذين فروق يفصلها العقاد ( فربما كان بعد الأثر واتساع مداه مسألة مسافات وأبعاد ، ولكن قوة الأثر وعمق البحث فيه وشدة الخلاف عليه شيء آخر يقاس بدوافع الحياة والحركة النفسية ولا يقاس بالسنين والأمكنة . هو شيء في آفاق النفوس والعقول ، وليس في آفاق الفضاء أو صفحات

الأوراق ، وقد رزق ابن رشد من هذا الحظ النادر أوفى نصيب ، فما ظهرت فلسفته في مكان إلا انتصب فيه ميدان كفاح ، وكان الكفاح عنيقاً والاستبسال فيه من الجانبين على غايته في مجال الرأي والعقيدة .

ففي أوروبا لم تنقطع المناقشة في الفلسفة الرشدية من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر ، ثم كان لها استئناف في القرن التاسع عشر على يد المؤرخ الباحث أرنست رينان (١٨٢٣-١٨٩٢م) صاحب كتاب حياة المسيح ، وكتاب ابن رشد والرشدية وغيرهما من كتب البحث والتاريخ .

وشملت المعركة معسكر اللاهوت المسيحي ، ومعسكر اللاهوت الإسرائيلي في وقت واحد ، حيثيات للشخصية كحيثيات الحكم سواء بسواء .

وكتب العقاد عن محمد عبده ، إذ رآه ( ينبوع قوة روحانية تطوى عوارض الزمن وصغائر الدنيا فيما تفيض به من حياة إنسانية ، يخلص لنا منها - بعد تمحيص الجوهر - عن نفايات الأوشاب والأخلاق - أشرف ما تتحلى به نفس الإنسان ، في العالم الخالد الذي يذهب بالزبد ويبقى ما ينفع الناس ) .

كتب عنه إذ رآه ( صورة يلتفت إليها طلاب القدوة الحسنة من أبناء هذا الجيل ، فيجدون أمام أعينهم - محمد عبده - إماماً هو أولى أئمة العصر ، أن يأتى به المقتدى فيما اضطلع من أمانة العقيدة وأمانة الفكر ، وأمانة الخير ، وأمانة الحق ، وأمانة الإخلاص للخلق والخالق ، في كل ما يتولاه الإنسان - الجدير باسم الإنسان - من نية وعمل ، ومن سر وعلانية )<sup>(١)</sup>.

(١) كتاب محمد عبده .

ومن شخصيات العقاد خوالد ، في أعمالها من القيمة الباقية ما لا ينقضى بانقضاء فترة من فترات الثقافة الإنسانية أو الثقافة الأوربية مثل فرنسيس باكون .

واستحق ابن الرومي منه ما كتبه عنه بمزية ( التفرد ) بين شعراء عصره . فهو بينهم الشاعر الذي امتزج فنه بحياته أو انعكست حياته في شعره وتلك هي الطبيعة الفنية التي لا غنى عنها للشاعر الحق ، والتي لا يكون الشاعر شاعراً إلا بها ، أو ينصيب منها . وهي مزية يستحق ابن الرومي من أجلها عند العقاد أن يكتب فيه كتاب مع أن حياته بأيامها المجردة ( لا تخرج لنا قصة نادرة بين قصص الواقع أو الخيال ) .

ولكن هوانه على الناس لم يقعد به عند العقاد فعده عبقرياً نادراً بما ذخره شعره من سمات حياته فكان ( شاعراً في جميع حياته حياً في جميع شعره ، وإن الشعركان لأناس غيره ، كساء عيد وحلة موسم ولكنه كان له كساء كل يوم وساعة بل كان له ، جسماً لا تكون بغيره حياة ) (٢)

إن العقاد يعجبه التميز أمانة من أمارات الشخصية ولو كان هذا التميز في أخص علائق الإنسان . وأنا هنا ألمح جميل بثينة الذي كتب عنه العقاد باعتباره ( أستاذ المدرسة الغزلية التي تجري على طريقته في النسب والتشبيب ، وهي مدرسة الشعراء المحبين الموكلين بمحوبة واحدة

ينظمون الشعر فيها ولا ينظمونه في غيرها، ولعلما يطرقون باباً من النظم غير باب النسيب .

بهذا استحق جميل شاعراً أن يكتب عنه العقاد .

قد تقول وما قيمة الغزل ليستحق صاحبه الكتابة والتاريخ ؟ وأقول قيمته أن الحب إذا صدق كما صدق من جميل له شأن كبير في الحياة الإنسانية حتى يعزوا إليه رجال الاجتماع غير قليل من ألوان التطور في حياة الإنسان . وما جميل صاحب الترجمة ، إلا ( الإنسان حيث كان ، واحد في كل زمان ومكان ) .

ثم تبقى لجميل سمة أخرى هي في الحقيقة سمة للعصر كله الذي عاش فيه فكان هو بشعره مثلاً لها ودليلاً عليها تلك السمة هي شيوع الغزل وأحاديث الغزل ومواقف الغزل في بيئة الحجاز أو بيئة جميل حتى لا ينجو منها من عاش فيها ولو كان مطبوعاً على الجلد والطموح كمصعب بن الزبير صاحب قصتي أم منظور والشعبي .

وهنا تكون الترجمة لجميل، « بعض تاريخ وصورة عصر » .

\* \* \*

والعقاد يقسم النوايا من أصحاب الرسائل والترجمات إلى فئتين :  
( فئة تظهر في أوانها لأن أسباب نجاحها تمهدت وتم لها النجاح قبل فوات ذلك الأوان . وفئة أخرى تظهر لأن الحاجة إليها قد بلغت غايتها ، وهي التي تظهر لتحقيق تلك الحاجة التي تبحث عن صاحبها ، وله منها معين يذلل صعابها ويهدي إلى طريقها ) .

٥٣

\* آية العبقرية عند العقاد سبق الرؤية فضلاً عن وضوحها فآية العبقرية أن (تلهم صاحبها ما يحسب اليوم كفوفاً ويحسب في الغد حقيقة من حقائق الإيمان والحكمة ومصلحة من مصالح الواقع والعيان) (١) . وأجلد عبقرية عنده بإعجاب وتشريف معاً عبقرية (يلتقي فيها سداد الفكر بشجاعة الضمير) (٢) .

وهذا يفسر قول العقاد بعبقرية الصديق وعمر والإمام فإنه فيما أحسب يريد بها في هذا المقام بالذات ، الإلهام الرباني ووضوح الرؤية والتوقعات في الرأي ، والفطنة الواجبة وبلوغ هذا كله مجتمعاً ومتفرقاً غاية تثير الإعجاب عند من خبروها بالتجربة أو السماع . ولا يتجاوز الأمر هذا إلى ضلالة العقول، أو فتوحات العلم، لأن عصرهم كانت حاجته أشد إلى نور الهدى، وخلق النفوس، وإشاعة قيم جديدة. وقد نجحوا في هذا نجاحاً تحويلياً نقل قومهم من حال إلى حال يستحق من أجله أن يسمى (عبقرياً)، لا سيما وأن نجاحهم له من المنكرين والجاحدين كفاء ما له من مؤيدين . وقبل هذا كان محمد عبقرياً بالدماء التي تركى السامع حين لا يتخفى عليه أو عليها بواطن نفسه أو كوامن طباعه .

فقد كان عمرو بن العاص مغرماً بالمال جعاً له. وكان النبي عليه السلام (أدري الناس بهذه الصفة في عمرو بن العاص قبل أن يعرفه

(١) الكواكبي ص ١٨١ .

(٢) الكواكبي ص ١٨٣ .

المسلمون أو المشركون يطول المراس وتعاقب الأعمال والمساعي وتفتق المطامع والآمال ، فوله الإمارة في غزوة ذات السلاسل . وقال له وهو يعرضها عليه في دمائه وفي حصافة معاً :  
« إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك وأرغب لك من المال رغبة صالحة » .

فأجابه عمرو ، وهويشفق أن يظن النبي بإسلامه الظنون :  
« يا رسول الله ، ما أسلمت من أجل المال ، بل أسلمت رغبة في الإسلام » .

فهون عليه النبي ما خامره من الظن ، ودفع عنه وهمه وهويقول له :  
- « يا عمرو ، نعماً بالمال الصالح للمرء الصالح » (١) .  
ولم يحتج العقاد إلى إعلان العبقرية مع ابن سينا الشيخ الرئيس الطبيب الأديب الفيلسوف الحكيم العالم . . العالم بالرياضيات والطبيعيات والموسيقى أيضاً (لأنه كان طبيب العصر غير مدافع في الشرق كله ، ثم انتقلت تواليه إلى الغرب فأصبح طبيب العالم بأسره زهاء أربعة قرون . ولم يشتهر أحد بهذه الصناعة مثل تلك الشهرة العالمية، بغير استثناء أحد، من أيام بقراط وجالينوس) .

\* \* \*

أما من حيث المنهج - أو ، المناهج ، في الحقيقة فقد نهج الأستاذ



٥٥

العقاد مناهج متباينة وفقاً لما تقتضيه طبيعة كل شخصية ، وطبيعة دورها ، وأثره ، وامتداد هذا الأثر في الزمان والمكان .

ومن هذا أن يضع الأستاذ العقاد الصورة في إطار عصرها فحين يتكلم عن ابن رشد يرسم أولاً صورة للحركة العلمية في نشأته ونضوجه ، ثم الحركة السياسية وتأثيرها في الثقافة ، ثم الحركة الاجتماعية ، ثم أسرته . وبعد هذه الصور أو هذه الخلفية الواسعة للصورة الرئيسية يتكلم عن ابن رشد : آثاره وفلسفته ، وأثر الفلسفة الرشدية ثم قوة هذا الأثر . ومع ابن سينا استهل بحديث عن الدولة والفلسفة . . . الدولة السامانية بخراسان ثم عن موقف المتقدمين عليه من مشكلات الفلسفة ( والمتقدمين عليه ) هؤلاء يعنى بهم العقاد ( أولئك الذين سبقوا ابن سينا إلى مثل موضوعاته وكان لهم أثر في تفكيره واعتقاده ) .

ثم تكلم العقاد عن حلول الفلسفة وأشهر أصحاب هذه الحلول فتكلم عن أفلاطون وأرسطو وأفلوطين ، والفارابي أو الفلاسفة المسلمين الذين تتلمذ لهم ابن سينا نوعاً من التلمذة .

أولئك أسلاف ابن سينا الفكريون . وبين مذهبه وبين كل واحد منهم مقارنة ملحوظة في بعض الأمور ( فهو يقارب الفارابي في التوقعات الدينية ويقارب فرغوريوس والأفروديسي في الرموز الصوفية ، ويقارب أرسطو في التفكير المنطقي ، ويقارب أفلاطون في النزعة الفنية ) (١) .

ثم يمضى العقاد يفصل هذا تفصيلاً يقف وراءه علمه الموسوعى .  
ولكن المقاربة بين مذهب ابن سينا وبين أسلافه لا تدل ( على أنه  
كان متقيداً بمذهب أستاذ أو أكثر من أستاذ من هؤلاء الأسلاف الفكريين  
والروحانيين ؛ لأنه كان يعارضهم كما كان يحاربهم ويوافقهم . وكانت  
أكثر معارضاته لهم فيما بينهم وبين الدين من خلاف ، فلم يكن للمذهب  
الفلسفى من حدود غير العقيدة الدينية وهى صحيحة عنده فى جوهرها  
الأصيل لا خلاف بينها وبين القضايا العقلية فى غير الظواهر والعروض (١٤) .  
ثم خلس العقاد بعد هذا للحلول التى ارتآها ابن سينا لمشكلات  
الفلسفة الإلهية وهى العالم ، والنفس ، والخير والشر ، والحرية الإنسانية .

ثم تكلم العقاد عن ( عقيدة الفيلسوف ) . .

تكلم عن ابن سينا الطبيب .

وابن سينا الأديب . . .

وابن سينا ذى الشخصية الجامعة .

إذن، العظيم للبيئة والوراثة دخل فيه وإن لم يكن كل شىء أو أكبر

شىء .

بل إن العظمة أو العبقرية فى مفهوم العقاد هى شخصية فذة متميزة  
بالتفرد الفوق . . شخصية فعالة بذاتها وقدراتها فى عصرها وغالباً تمتد قوة  
أثرها إلى عصور قريية أو بعيدة . . . تغيب هى ويبقى الأثر .

وابن سينا بعد هذا عند العقاد ( موسوعة حية وعبقرية ملهمة وعقل

فعال لأنه فعل في مجال الثقافة الإنسانية قصارى ما تفعله العقول (١) ..  
أما الفارابي فقد قدم بين يدي الموضوع بمقدمة عن تيارات الفكر  
العربي واتجاهاته من العصر الجاهلي إلى منتصف القرن الرابع الهجري وهو  
الوقت الذي وجد فيه الفارابي .

ثم عرف به وبنسبه ونسبته وبعدها اتجه مباشرة إلى مؤلفات الفارابي  
ليخصها بتفصيل . فالعقاد غير ملتزم خطأً جامداً لا يتحرك بل إنه يكيف  
الشخصية وفق ملابساتها الخاصة حتى لتحسن معها ومعها أن، كلاً، له  
طابعه الخاص كشأنه في الحياة .

وفي كتاب التعريف بشكسبير تناول :

عصر شكسبير - الشعر والمسرح - أسرة شكسبير . . .

الرجل - الفنان - المؤلف - الشاعر - الخصائص والمزايا - مصادر

الروايات - نسبة الروايات - تراث عالمي .

وأحياناً يؤرخ العقاد بين يدي الترجمة للمدينة مربي الشخصية ومهبط

رأسها كما صنع مع عبد الرحمن الكواكبي .

والعقاد بين يدي الترجمة كثيراً ما يقدم دراسة للعصر الذي عاشت

فيه الشخصية أو ما قبله، إيماناً منه بدور العصر والبيئة والعوامل المساعدة

في فن تكوين الشخصية الإنسانية جنباً إلى جنب مع المواهب الخاصة

والخصائص الذاتية .

بل يندر جداً عنده : ( أن يشتهر رجل أو يرتقى سلم المناصب الرفيعة

٥٨

ثم لا يكون للعصر أثر في أخلاقه إن لم تكن أخلاقه كلها مشابهة لأخلاق عصره ، لأن الشهرة وارتقاء المناصب تجاوب بين الرجل وأهل زمانه ، ولما يتأتى هذا التجاوب بغير مماثلة أو مقابلة بين الشئيين المتجاوبين<sup>(١)</sup> . وهو يرى أن (كل رسالة في عالم الفكر أو الروح هي رسالة تؤكد وتقرر أو رسالة توسيع وتحويل ، ويندرجاً أن نرى في عالم الفكر والروح رسالة ابتداء وابتداع لم يسبق لها تمهيد طويل) .

ويزيد هذه الحقيقة توضيحاً فيقول : (إن الرسائل الفكرية أو الروحية تسبقها رسائل من قبيلها تتناول أطرافها ومبادئها وتبهي الأذهان لانتشارها والتوسع فيها . فكل رسالة كبيرة هي بمثابة كتاب من أجزاء متعددة تترقى من البداية إلى النهاية جزءاً بعد جزء ودرجة بعد درجة. ولم يحدث قط أن رسالة فكرية أو روحية تعم الإنسانية ولدت فجأة، أو خلقت خلقاً بغير سابقة تمهد لها الطريق وتبهي لها الأذهان<sup>(٢)</sup> .

لا بد من تمهيد وارتداد واطراد :

وإذا كانت الشخصية متعددة الجوانب غنية باللمحات والقدرات فإنه يتناولها قيمة كبرى يطرد القول فيها جوهرياً لا تفسده التفاصيل، فهو مع بنيامين فرانكلين يعطى صوراً متتابعة لهذه الشخصية أو لهذه العبقرية دون أن يحفل فيها بسجل الأرقام أو بإحصاء الأيام، ولم يكتبها ليبدأ فيها

(١) برناردشو ص ٧ .

(٢) بيكون ص ٥٤ .

بسنة الولادة ويختتمها بسنة الوفاة ويمضي فيها مع التقويم شهراً بعد شهر وعاماً بعد عام ، ولكنه عمد إلى عرضها (لحظة بعد لحظة تم بها ملامح الصورة بعد الفراغ من النظر إليها ، وقد يتابعها القارئ فلا يفوته من ذلك سجل الأرقام ولا إحصاء الأيام وإنما يلم بها حيث يعبرها في طريقه ويستغنى عنها بعد ذلك إذا شاء، أو يبقيا على حدة سواء) (١).

والعقائد في تراجمه الأدبية يحتم دراسة العصر الذي نشأ فيه الكاتب لأن (الكاتب قد يسبق عصره في أشياء ، وقد يتخلف عنه في أشياء ، وقد يخالفه في أشياء ، ولكنه لا ينفصل عنه كل الانفصال في جميع الأشياء . فلا بد بين الكاتب والعصر الذي ينشأ فيه، من صلة، نعرفها لتمام التعريف به والاستدلال على مصادر أدبه وقواعد تفكيره . .) (٢).

تلك الصلة يسميها العقاد (البطانة الثقافية) . .

إنه ينظر بعين الاعتبار إلى فعالية البيئة الخاصة للفنان والبيئة العامة ، فكما قال في حديثه عن برناردشو (نشأة الكاتب في بلده، ونشأته في أسرته، ونشأته من أبويه ، ونشأته في جيله السياسي ، ونشأته في جيله الثقافي - كل أولئك على صلة وثيقة بعنصر من عناصر حياته أو عنصر من عناصر استعدادة وعمله في حياته الفنية والثقافية) .

ويتعاطف العقاد مع الشخصية التي يترجم لها إذا لاح منها وفاء للإنسانية الإنسان . في أي مكان. فإذا كانت مصر أمل هذا الوفاء وهايته

(١) بنيامين فرانكلين ص ١٥ .

(٢) برناردشو ص ٧ .

٦٠

أحسن العقاد الأمر كأنه دينه الخاص الذى يؤدى فيه واجب الشكر والجزاء . مثال هذا موقفه من (شو) رداً على موقف شو الكريم من الأمة المصرية بعد حادث دنشواى .

ويراها كلمة واجبة فى كل ترجمة لبرناردشو تكتب فى مصر باللغة العربية وإن كان ( التعريف بهذه الناحية الإنسانية لازم فيما يكتب عن برناردشو حيثما كان كاتبه )<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

على أن العقاد أوضح بنفسه ، فى كتابه عن عثمان بن عفان ، طريقته فى الترجمة وغايته منها وهما يكادان يكونان شيئاً واحداً هو ( التعريف بالنفس الإنسانية فى حالة من أحوال العظمة والعبقريّة أو حالة من أحوال النبل والأريحية ، فإن جاوزنا هذا المقصد إلى غيره فإنما نجازه لجلاء فكرة تحيط بأطوار التاريخ الإنسانى، ونخرجه من غمار التيه والظلمة ، وتسلك به مسلكاً غير مسلك التخبط والضلال )<sup>(٢)</sup> .

وشرط العظمة عند العقاد فيمن ترجم لهم : ( همة الجبابرة من رجال العمل ، وطموح المثاليين من المؤمنين بالفكرة ) .  
يظاھر هذا ويقف وراءه خلق مكين ( يقاوم كل إغراء ولا يتخاذل أمام الوعيد ) .

وهو يرى فى عظمة العظم أو عبقرية العبقرى صورة من صور العظمة الإنسانية. وهى بهذا وحده تستحق الوقوف عندها والكتابة عنها فضلاً عن

(١) أنظر ص ١٦ .

(٢) ذو التورين ص ٧ .

دلالته في تفسير أطوار الأمم وأسرار التاريخ .  
 بهذا الاعتبار كتب العقاد ما كتب غير ملق بالآ إلى غيره من اعتبارات  
 يفسر هذا كتابته عن غاندى وعن محمد على جناح وبين الهند وباكستان  
 ما بينهما في تاريخ الإنسان ، لا رعاية لدولة الهند أو باكستان ولا لمرجع  
 من مراجع السياسة ، ففي كتاب غاندى ما لا يوافق الهند ولا يوافق الباكستان .

\* \* \*

والأستاذ العقاد في كتابته عن العبقريات أو العباقرة يجمع بين  
 فلسفتين متباينتين في تدوين التاريخ : هل البطل يصنع التاريخ أم  
 التاريخ هو الذى يصنع البطل ؟

أو كما يتساءل العقاد في كتابه ( محمد على جناح ) <sup>(١)</sup> هل للبطولة  
 شأن في حياة الأتوام أو هي في حياة الأتوام صفر على اليسار ؟ هل المادة  
 وحدها هي الترجمان المفسر للتاريخ ، أو لهذا التاريخ مفسرات أخرى قد  
 تهزم تفسير المادة وتنقضه وتتحدها ؟

الأستاذ العقاد يرى أن العبقري الفنان يولد ( كالغلة التي تنبت على  
 غير قصد في فرع من فروع شجرة الحياة ، ثم تصبح الغلة مثلاً يحتذى  
 وقالباً يصب فيه الأنداد والنظراء .

والبطل والعبقري يتشابهان في التفدية بكل شيء في سبيل الغاية التي  
 يقصدان إليها أو ينساقان إليها على غير قصد منهما ، والناس ينساقون  
 معهما ولو أهلكتهم مطامع البطولة ، ومطالب العبقرية ) <sup>(٢)</sup> .

(٢) برناردشو ص ١٢٢ .

(١) ص ١٧٨ .

وأرى أن البطل بعد الموهبة ، من صنع بيئته واللمحظة المناسبة .

\* \* \*

ويفرق العقاد بين العبقرى والبطل بقدر ما بينهما من أفضلية العبقرى ( فإن البطل قد ينحرف عن الجادة الكبرى مرضاة لكبريائه وسلطانه ، ولا يكثرث العبقرى لجاه أو سلطان إذا حاداه عن غايته ، وهى خلق الأمثلة الجديدة والقيم البدئية فى أحلام الناس ، ثم فى واقع الحياة ) (١) .  
وحين يعتمد كاتب ترجمة على آراء الناس فى الشخص موضوع حديثه فإن العقاد يقول أكثر على أقواله هو فى الناس ( وإن الناس قد يغبنونه بعض حقه وقد يعطونه فوق حقه ، وقد يختلفون - بل لا بد أن يختلفوا - فى النظر إليه .

أما أقواله فى الناس فلن تظلم شيئاً فى الإبانة عن مبلغ فهمه وطوية نفسه وطبيعة خلقه ومقياسه الذى يقيس به الرجال والأعمال من وحى تفكيره وشعوره وخلجات ضميره ) (٢) .

وحين تكون العبقرية عبقرية فنان، فإن العقاد يرى أعمال الفن ذات رسالة فى تاريخ الفكر الإنسانى تتحقق بالبناء تلك الفروق والمفارقات - وفى الذوق والتذوق - وإدماجها الثابت وتعبر الزمن من فوقها ومن ورائها فى حياة واحدة باقية هى حياة الإنسان الخالدة فى مرآة العبقرية الخالدة . وهى تؤدى الأمانة الكبرى فى طريقها الثابت لا تعتمد على سطوة تحميتها، ولا تحفل من سطوة تنازعها. وهذه هى أمانة الفكر الإنسانى من قديم

( ٢ ) ص ١٢٦ .

( ١ ) برناردشو ص ١٢٤ .



الزمن سبقت دعوة الداعين وعظمت الواعظين، وعرفت الإنسان (إنساناً) واحداً قبل أن يلفظ بها رسل الدولة وسماسة السلطان مخلصين وغير مخلصين .

واستدل على هذا بعالمية شكسبير وإنسانية عبقريته ، فرواياته ( تنقل إلى اللغة العربية تامة محققة في عهد استقلال ولم تنقل على هذا المثال خلال سبعين سنة في عهد حماية أو احتلال .

سطوة الدولة لم تكن لها يد بالأمس في « ترويج » شكسبير بين الفرنسيين والألمان والروس ، وسطوة الدولة لم تروجه بين المصريين وهم يعملون بأعينها ولا يفلتون من قبضة يدها .

أخذته الأمة حصّة من التراث الإنساني لا تنزل عنها ، ولم يفرض عليها ضريبة تدين بها لمن يغلبها ويتحكم فيها .

وتلك آية « الفكر » الإنساني في الآداب العالمية كل أمة تسأل عن حصتها منه ، لأنه تراث مدخر لجميع بني الإنسان (١) .

يعرف الدكتور مصطفى سويف العبقرى الفنان بأنه إنسان (تنظم علاقته بمجتمعه الخاص في صورة تعارض واختلاف يصحبه الشعور بالحاجة إلى إنهاء هذا الخلاف وإقناع الآخرين بوجهة نظره .

فإذا صحب هذا الخلاف وما ينجم عنه من توترات وانفعالات عميقة..إذا صحب ذلك استعدادات خاصة ومجموعة من القيم تبرز

---

(١) التعريف بشكسبير ص ٢٢٥ .

للعبرى الناشئ نماذج معينة من الأشخاص يتعلق بهم ، انطلق هذا الناشئ .  
يطلع على أعمالهم ويتمرن على الإنتاج في الاتجاه الذى أنتجوا فيه ، محاولاً  
أن يقلدهم أحياناً وأن يتحرر من نماذجهم أحياناً أخرى .

حصيلة هذا أن العبرية تفرد يؤيد استحالة التساوى بين الناس  
في المواهب ، بل استحالة إنقاص الفارق بينهم فيها . فالعبرية كما يقول  
« سدي هوك » فى كتابه « البطل فى التاريخ » ليست حاصل مواهب  
مركبة ، وإلا فكيف فىلحق عسكرى يوازى ويعادل نابليون ؟ وكم من علماء  
الطبيعة العاديين يمكنهم أن يقوموا بالعمل الذى قام به اينشتين ؟

إن أسئلة من هذا النوع لا تطرح للإجابة عنها إنما لتقرب إلى  
الأذهان حقيقة أن العبرية شيء فريد (١) .

إن العبرى ابن موهبته أولاً وإن كانت الظروف المساعدة تسعد  
بالتوفيق . ( إن بعض فترات التاريخ هى بدون شك أكثر قابلية للتفاعل  
مع العبرية أى أكثر تنشيطاً لها وأكثر تحسناً لها من غيرها من الفترات  
فهى تمكن العباقرة كما تمكن العاديين من النجاح والفلاح وبالتالي  
لا يمكن أن تعتبر فى تمخضها عن العباقرة بأنها المصدر الخلاق للعبريات  
بأكثر مما يمكن اعتبار رقعة خصبة من الأرض تثبت عليها الأزهار النادرة  
والأعشاب الطفيلية العادية المصدر الخلاق لتلك الأزهار ) (٢) .

(١) كتاب العبرية فى الفن ص ٣٧ .

(٢) كتاب العبرية فى الفن ص ٣٧ .

إن العبقري ابن موهبته الخاصة أولاً وأصدق ما يكون هذا على أصحاب الفنون ومبدعيها ( فإن للتقاليد الفكرية والحاجة الاجتماعية وتنظيم المجتمع العلمي تأثيراً في مكتشفات العلماء أعظم من تأثيرها على إبداعات وإبتكارات الفنانين ورجال الأدب . فإن الإبداع الجديد في شكله وأسلوبه المميزين له عن غيره في الميادين الأدبية والفنية هو بديهاً عمل قام به فرد . ومن السخف ، برغم كل اعتماد ذلك الفرد على حضارته واتكاله على ثقافته ، الاعتقاد بأن العالم خلق بأن ينعم بعمل ذلك الفرد الفنان عن طريق شخص آخر لو أن ذلك الفرد الفنان لم يولد . فليس باستطاعتنا أن نتصور صورة سستين مدوناً « الموناليزا » بدون الرسام روفائيل وسفونيات بيتوفن . أما في الميدان العلمي من جهة أخرى فإنه من المحتمل جداً أن يتم الوصول إلى معظم اختراعات أى عالم معين بواسطة أفراد آخرين ، عاملين في الميدان نفسه (١) .

وكتاب العقاد ساعات بين الكتب يكشف عن إعجابه الشديد ببلوتارك كما كان معجباً بلودفيج وهما من أصحاب التعاطف مع العظمة ونفحها بالإنسانيات التي تقربها إلى القلب بما فيها من ملامح إنسانية هي خير ألف مرة من التطويب والتقدیس الذي يفصمها من الناس ويرفعها ولكن إلى مراتب الغرابة والإعجاز المعزول .

وإعجاب العقاد ببلوتارك ولودفيج يعكس بطريق غير مباشر رأيه الشخصي

( ١ ) كتاب ( البطل في التاريخ ) تأليف سدي هوك ، ترجمة مروان الجابري ،

مراجعة د . أنيس فريحة .

في كتابة التراجم، فما كان ليعجبه هذا المنحى إن لم يكن فيه من رأيه مشابه ومن اتجاهه موافقات .

ومنهج البحث عن الفئات الإنساني انتهجه « اندريه موروا » و « ستيفان زفايخ » و « لودفيج »، كما أن منهج تفسير الأحداث تفسيراً عقلياً وكشف القوانين المتحكمة في سير الحوادث ومحاولة إيجاد ترابط بينها أخذ به المفكر الألماني ( اشبنجلر ) ، ومن المعاصرين الأستاذان « أرنولد توينبي » و « بيتر سوركين »، غير أن العقاد اختلف عنهم في عدم التزام الخط التاريخي حين زاد عليهم التفسير النفسي والخلقي، ( والوصول إلى نتائج علم الأخلاق هو الصعب الجديد الذي لا يزال اليوم وبعد اليوم صعباً وجديداً إلى أمد بعيد ) .

الأستاذ العقاد يفسر التصرفات على طريقة التعريف المحدد وهو يريحك بإعطائك النتيجة والرد على أسئلتك الحائرة وكشف الغموض الذي يلف عادة شخصية العظيم .

هذا حين يعرض أندريه موروا التصرفات في شريط ويدع لك التفسير كما يدع لك تلوين فكره بنفسك . اندريه موروا يشوقك ويشدك إليه حين يجعلك تلهث وراءه لمعرفة النتائج والنهايات .

\* \* \*

وللأستاذ عبد الفتاح الديدي رأى في تفسير ميل الأستاذ العقاد إلى كتابة التراجم والسير بعامية<sup>(١)</sup> وهو رأى أملاه حب وحماسه الشخصي

للعملاق، فجعله في مقام الدفاع عنه أمام أصحاب الشهادات ممن لم يعطوا عطاءه للعلم والأدب، يفسر اتجاه العقاد إلى التأليف عن الشخصيات وعمل ترجمات حياة للشعراء والأنبياء وكبار المفكرين، برغبة التعويض وكأن العقاد تنبه إلى شيء هام جداً في حياته (وهو أنه هو نفسه الذي لا شهادات له يقوم بمنح الشهادات إلى كبار العباقرة والمفكرين والقواد والشخصيات، لقد كانت ترجمته وكتابته لسيرة من السير نوعاً من الشهادة للشخصية التي يكتب عنها. واختص باكتشاف الجوانب الرائعة في كل شخصية من هذه الشخصيات حتى أحس العقاد بأنه يستعرض ملامح من يترجم له على نحو يشبه عبقريته في ناحية من النواحي ولا يميز فيها أحد) (١).

واسموت الأستاذ الديدي، الفكرة على ما يبدو فاسترسل يقول :  
(كانت كتب العبقريات ودراساته عن ابن الرومي وجوته وشكسبير وبرناردشو ترفعه إلى مستوى من يقدم إلى هؤلاء جميعاً الشهادات التي تميزهم بالعبقرية والنبوغ والامتياز، ووجد لذة كبيرة في كتابة التراجم والسير. لهذا كان حماسه في إثبات دعواه التي يفتتح بها ترجمته لكل هؤلاء نوعاً من استعراض قدرته وقواه العلمية في إثبات كفايته هو نفسه في تقدير النابهين والأذكياء. وكأنما يقدم في كل كتاب دعوى تشبه دعوى الأكاديميين في بحوثهم الجامعية للدكتوراه. وكأنما يفتقر هؤلاء العباقرة إلى شهاداته التي لولاها لظلوا مغموطي الحق مجهولين من الناس. فدراساته هي شهادات لمن تلزمه، ورأيه في شخص ما، يكاد يكون من الاتزان والدقة

(١) المرجع السابق ص ٣٦.

بحيث لا يصبح له أن ينجح به نحو الهوى في معاملة معاصرة (١).  
وعندى أن العقاد كانت ثقته في نفسه وعدم مبالاته في الوقت نفسه  
برأى الآخرين فيه ، مدحوا أم قدحوا ، لا تتفق معها الرغبة الحادة  
في إثبات تفوقه وهو لا يحتاج إلى دليل . ولا أحسب أنه كان يفكر في  
الشهادات وأصحابها ويشغل نفسه بهذا إلى الدرجة التي يكرس نفسه  
وجهد في كتابة تراجم وسير لمجرد الإحساس بإعطاء شهادات لأصحابها  
الأعلام .

لم كل هذا ؟ أليس الأسهل لو حاكت بصدره يوماً هذه الرغبة  
أو هذا الشعور أن يقبل منصب عمادة كلية الآداب التي عرضها عليه  
محمد محمود باشا ورفضها ؟

إن هذا المنصب بالذات خليف بأن يشبع رغبة الاستعلاء على الشهادات  
ورغبة إعطائها لمحبيها والراغبين فيها والمستعزين بها .

وقد يفسر برغبة التحدى والاستعلاء على حملة الشهادات ، الكتابة  
عن أصول البحث العلمى عند أكبر دارسى المنهج في العصر الحديث  
وهو فرنسيس ليكون أستاذ المناهج والأصول الفعلية للأبحاث والدراسات ،  
ولكن الأنبياء ، بحوهم الخاص وواقع عصرهم المعين ليسوا بحاجة إلى  
شهادات أو تزكية ، بل إن خيرهم ( الأئمة ) الذى دانت به العلماء .

إن الكتابة عن الأنبياء والشخصيات الدينية تحتاج إلى فيض فياض  
من العاطفة قبل أى سبب آخر .

( ١ ) كتاب ( عبقرية العقاد ) .

ثم إن الكتاب الباقي إن صح أن يكون شهادة ، فهو شهادة لصاحبه أولاً بما فيه من دلالات القدرة .

قد يفسر برغبة التحدى والاستعلاء مشاركاته المتنوعة الخصبة العميقة ، في موضوعات كثيرة تنتمى إلى العلم مرة وإلى الفن تارة مما يحسب التخصص في واحد فقط منها ، مزية لصاحبه كأنما يقول ( وفي الناس واحد كالألف ) . ومن هذا صولات العقاد وجولاته في ميادين أصول الفلسفة ومذاهبها وفي تحليل جزئياتها الخاصة بالسببية وعناصر الوجود وطبيعة الحياة ونظريات نيتشة وشوبنهاور وكانت وداروين وآراء استيوارت مل ، وهيوم .

لقد كتب العقاد عن أشخاص بينهم من الاختلاف ما بين عمر ابن الخطاب وعمر بن أبي ربيعة كما أشرت ، إذن ملاك الأمور قدرات فيه وهبها يحلوها بقلم موهوب ولا يعنيه بعد هذا أن يعطى بها شهادات - أو يأخذ عليها شهادات .

ثم هو كما يقول الأستاذ الديدى - وهنا أتفق معه - صاحب فكرة تبدو من وراء الكلام الذى يورده على لسان غيره . فهو كاتب ذو اتجاه ، وكثيراً ما يسقط هذا الاتجاه على الذين يترجم لهم حتى لتحسبه هو نفسه المتكلم وليسوا هم . وفي أغلب الأحوال كان ينطق فى الكلام عن تجاربه الشخصية إذا ما تشابهت مواقفهم ومناسباته الجزئية مع ظروف الإنسان الذى يترجم له . وهنا تقترب الترجمة من الفن القصصى الذى كثيراً ما يكون البطل فيه صورة من المؤلف .

وعندى أن كتابة العقاد للتراجم والسير إنما هى لون من تجميل الحياة

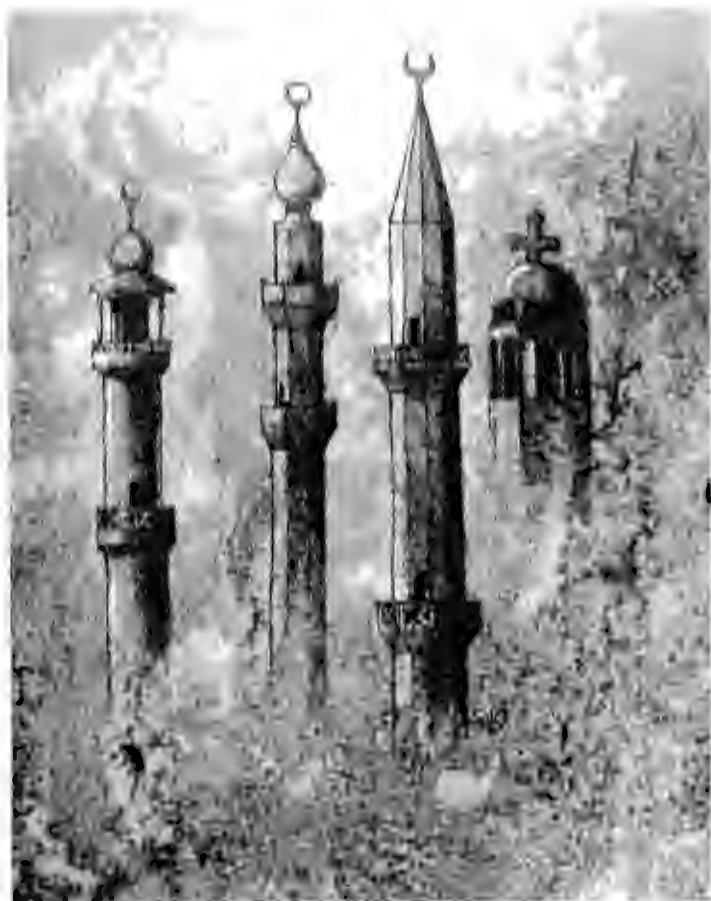
بالفن وبالصدق معاً يخلص إليها عن طريق التراجم كما يخلص إليها فنان آخر عن طريق النحت أو التصوير أو الغناء . ( فكل حياة - كما يقول - خلقت من الجمال الفني ومن الصورة المثالية التي يسبغ عليها ذلك الجمال هي حياة فاترة أو حياة ناقصة لا تستحق أن تعاش . وإنما هو مقياس الحياة التي تكتب عنها التراجم والسير هي الحياة التي تعاش ) .  
 وكتابة العقاد للتراجم سبيله وسبيلنا معه إلى النفاذ إلى النفس الإنسانية وسير أغوارها ، والنفس الإنسانية غاية ما يشغل الإنسان ويستثير اهتمامه وعطفه وتقديره .

#### وكتابة العقاد للتراجم إنصاف واعتراف

وكتابة العقاد للتراجم وفاء وحث على الاقتداء برسم الصورة، وتمجيد البطولة، وغرس الأمل في الإنسان، والإيمان به ، على الرغم من نواحي الضعف فيه وجواز الخطأ عليه . وما بالليل هذا في دفع مسيرة الشعوب وتغذية مطامحها .

\* \* \*







## الفصل الثاني

### عبقريّة المسيح

عالية تعلو خمس قامات وتزداد . . .  
 باقية تبقى خمسة قرون ثم لا تصير إلى نفاذ . .  
 كريّة ، تؤثي من ثمراتها ما تشتهى الأنفس وتشتهى به طيب الطعام ،  
 سعيدة تؤثي من عصيرها النور والطب ومسوح الإهاب وجبائر العظام .  
 من خشبها صور المحاريب وأعواد المناير .  
 ومن ورقها أكاليل الأبطال وتحيات البشائر .  
 وتشابه بركتها على الأبطال الأقدمين فيتمسحون بطيها طلباً لقوة  
 النفس وقوة الجسد وهم يقبلون على الصراع ويتناضلون ، وتشابه بركتها  
 عليهم كرة أخرى فهم يعلنون السلم ويرفعون غصن الزيتون .  
 بورككت في وحى المعابد والضامير ، وبورككت في رموز القرائح والخواطر ،  
 فلم يعرف الناس أمنية لا يرمزون لها بسماتها وأسمائها . ولم يذكروا نعمة  
 لا يذكرونها بنعمائها : رمزوا بها إلى الضياء ورمزوا بها إلى السلام ،  
 ورمزوا بها إلى الخير والرخاء ، وتقرؤوا منها في البادية والحاضرة ، وادخروها  
 للدنيا والآخرة ، واتخذوها للمصاييح في محاريب الصلاة والتسبيح ،  
 ورجعوا إليها باسم من أقدس الأسماء ، هو اسم « السيد المسيح » .

\* \* \*

بهذا الشعر الرفيع قدم الأستاذ العقاد بين يدي عبقرية المسيح .  
وقد استحققت شجرة الزيتون هذا الوصف في أدبه بما وهبت من مسحتها  
لِلرسل الأمين .

ولو لم تكن « للزيتونة » إلا أن هذا الاسم المبارك مردود إلى مسحتها  
وبركتها لاستحققت به الخلد المصون ، خضرًا على مدى السنين والقرون .

\* \* \*

تناقض وصف الواصفين للسيد المسيح والكاتبين فقال قوم : بأنه  
وسيم وقال الآخرون : دميم .

ومال العقاد إلى الوسامة بما ساق بين يدي الرأيين من حجج المنطق .  
ولكني أحسب أنه مال إليها أيضاً باعتزازه الكامن بفردية العظم وتفرد .  
فالعقاد من بين الأقوال والأوصاف التي تتعلق بالمسيح ثم من بين  
ما استخرجه لنفسه من أقواله هو ومنازعه ، رأى المسيح مانوس الطلعة  
يتكلم فيوحى الثقة إلى مستمعيه . ( مواهب نفس ) ورآه فصيح اللسان  
سريع الخاطر له قدرة على وزن العبارة المرتجلة ، لماذا ؟ ( لأن وصاياه مصوغة  
في قوالب من الكلام الذي لا ينظم كنظم الشعر ، ولا يرسل إرسالاً على نسق .  
ويغلب عليه إيقاع الفواصل ، وترديد اللوازم ، ورعاية الجرس في المقابلة بين  
السطور ) (١) .

ورآه ذواقاً للجمال محباً للأزهار والكروم والرياض والمروج حتى  
بلغ من حبه الطبيعة أنه كان يتخذ من السفينة على بحيرة طبرية ،

(١) عبقرية المسيح ص ٩٣ .

٧٥

منبراً يخطف منه المستمعين على شاطئها المعشوشب (كأنما يوقع كلامه على هزات السفينة وصفقات الموج وخفقات النسيم) (١).

ورآه جذاباً بما يبسطه من طمأنينة، وما يشيعه من حنان الطهر والقداسة .  
ورآه وديعاً وأعلى ما تبلغ الوداعة فيه ذروتها حين تصير رحمة بالخاطئين والعائرين (وهى الرحمة التى تبلغ الغاية حين تأتى من رسول مبرأ من الخطايا والعثرات) (٢).

والإنسان فى صورته العليا عند العقاد - من خلال المسيح - هو الذى يجمع بين القسوة والرحمة فى إهاب واحد، فليست المثالية أن يكون طرازاً غير بشرى، ولكن المثالية أن يكون بشراً يخضع لتوايس البشر ثم يجالذ الضعف الكامن فى الغرائز ويتنصر عليه ما استطاع، وحين لم يستطع يكون الأمر قد جاوز حده إلى الحد الذى ينشئ العجز عن القدرة فلا يكون عاجزاً من لا يستطيع .

من هذا أن المسيح (الوديع الرحيم كان يعرف الغضب حيث تضعيع الوداعة والرحمة) .

ومن هذا أن المسيح وهو من أصحاب الرسالات بما تتطلبه الرسالات من استبسال كان يشكو حزنه وبثه حين أحرق به الخطر، وأنه كان يدعو الله أن ينجبه الكأس الذى هو وشيك أن يتجرعها. (فليس الإقدام على الجهاد أن تنجرد النفس من طبيعتها فى وجه المخاوف والمتالف ، وليس

(١) المرجع السابق ص ٩٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٥ .

محظوراً على النفس في سبيل ذلك الجهاد أن تأخذ بالحيطة أو تلوذ بمن تحب وتستمد العون من عواطف المحبين ، وإنما المحذور عليها أن تخشى الخطر على الجسد حيث تجب الخشية على الروح. وفي غير ذلك لا خشية ولا مخاطرة ولا ملام<sup>(١)</sup>.

فالعقاد يدور حول الشخصية ويلف طويلاً بعين لامة وأذن مرهفة . إنه يتسقط كل حرف يخرج من فمها في سبيل الوقوف على سرها أى مفتاح الشخصية ليدخل إلى رحابها وشعابها ، فاتحاً به كل قول مستغلق ، أو تصرف يحتمل التأويل والتعليل .

وقد وجد هذا المفتاح في شخصية المسيح في ( ابتهاة ) كان يرددها في أخريات رسالته وهي قوله : ( اللهم جنبني هذه الكأس ، لكن كما تريد أنت لا كما أريد ) .

لأنه يرى أن القاعدة الأساسية في طبيعة الرسل هي أن الشك أخوف ما يخافونه ، وأن استبقاء الإيمان غاية ما يبتغونه وعلى ضوء هذا رأى موضع الشبهة في نفس المسيح : ( إن السلامة هي ما يريده ، وإن النكول هو طريقه إلى اجتناب الكأس . فليكن مسيره إذن في غير هذا الطريق وليكن التسليم هو طريق الإيمان )<sup>(٢)</sup>.

والعقاد يدرس الشخصية الإنسانية بوجدانه وعقله معاً . وعقله دائماً منطقي استقرائي فهو يؤمن بـ ( اطراد السنن الكونية في الحوادث الإنسانية )

(١) المرجع السابق ص ٩٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٩ .

الكبرى فلا يحدث طور من أطوار الدين أو الدنيا إلا سبقتة مقدماته التي تمهد لحدوثه ، وجاء سريانه في العالم على وفاق لوازمه ودواعيه (١) .

حتى العصور التاريخية لها عنده مفتاح هو هنا « آفاتنا البارزة » التي تكون علامة طريق ونقطة تحول .

وهو يهتم بهذه الظاهرة اهتماماً خاصاً في سير الأنبياء وتاريخ الرسالات . ويبدو من استقراء كتابات العقاد أن آفة كل عصر عنده هي انتقال الحضارة من الداخل إلى الخارج أو من النفس إلى الجسد فتصير إلى ( أشكال وقشور حيث لا جوهر هناك ولا لباب ) .

وهنا تنمى الرؤية أو تتضح ولكنها في الحالين تحلم بالخلاص . وهنا يكون ظهور الرسل أو المصلحين أو الأفذاذ ضرورة يقتضيا عصرهم ولنتيجة تسبقها، إن لم تكن سبقتها بالفعل ، ومنذ أمد طويل ، مقدمات .

والعقاد الذى له في ذهن الكثيرين ، خاصة من لم يعرفوه عن قرب ، صورة قوية صارمة تعجبه السباحة في نفوس السمحاء واللين والعفويصدر من الأقوياء القادرين على العقاب .

ففي كتابه عبقرية المسيح كانت سماحة السيد وإنسانيته سر عبقريته عند العقاد . . إنسانيته الغفور التي علمت ناساً في عصرها من دروس الحب القدسي بما لم تتعلمه من دروس العقاب .

والمثل عند العقاد : المرأة . . المرأة التي كانت ضحية الضحايا في

(١) عبقرية المسيح ص ١٠١ .

ذلك العصر لأنها لم تزل ضحية الضحايا في كل عصر يطغى عليه البذخ من جانب، ويطغى عليه الحرمان من جانب، ويم الرياء في كلا الجانبين ، ولم تزل في كل عصر كذلك العصر تبوء بشقاء الفتنة على ألوانها .. فتنة الغواية ، وفتنة الفاقة، وفتنة الأسرة المنحلة، وفتنة الحيرة التي تعصف بالثقة والطمأنينة ألزم ما يلزم المرأة في كل زمان .

ونظرت تلك الفريسة التي لاحقتها اللعنة أحقاباً بعد أحقاب، وأطبقت عليها الفتنة في ذلك العصر خاصة آكاماً فوق آكام - فإذا ( حنان ظهور يغمر ضعفها ويجبر كسرهما ويمسح اليأس من قرارة وجدانها ، ويشيع الأمل في رحمة الله بين جوانبها . فعلمها درس من دروس الحب القدسي ما لم تتعلمه من دروس العقاب في شريعة المنافقين وموازن المقسطين . وبرزت على صفحة الزمن في ساعة من ساعات ذلك العصر الجريح صورة مشرقة زالت شرائع الهيكل ، وزالت شرائع رومة ، وهى باقية عالية : صورة الغفران ماثلة في شخص الرسول الكريم ، وصورة التوبة ماثلة في شخص فتاة منبوذة جاثية على قدميه ، تسكب عليهما الدمع والطيب وتمسحهما بغدائر رأسها<sup>(١)</sup> .

حقاً من أحب كثيراً غفر له الكثير من خطايا كما قال السيد ، ولكن العقاد حتى في مواقف الطيبة والسباحة يأبى إلا أن يقرنها بالدكاء صفته المفضلة بين الصفات النوانج فهو لم يكتف بغفران السيد لخاطئة تتمسح بأعتابه وتتعلق بأهدابه ، بل وقف وقفة أطول ، بموقف من مواقف

(١) المرجع السابق ص ١٢٢ .



الذكاء والنفاذ نجح فيه السيد وأخفق متحدوه الذين تعمدوا - وهو في الهيكل - أن يضطروه إلى موقف الحكم أو إنكار الشريعة . فاقتم عليه الكتبة والفريسيون درسه ومعهم امرأة يدفعونها إلى وسط الحلقة ، وراحوا يتصايحون : أيها المعلم هذه امرأة أخذت وهي تزني ، وقد أوصانا موسى أن نرجم الزانية ، فماذا تقول أنت ؟

ماذا يقول هو ؟ ما بالهم يسألونه ويستأذنونهم وهو لا يملك أن يمنعهم لو ذهبوا بها إلى قضاتها ؟ إن الشرك مكشوف على وجه الأرض وليس منه مخرج فيما حسبوا ونحمنوا . إن قال : أرجموها فذلك حق الولاية يدعيه ، وإن قال أطلقوها فذلك شريعة موسى ينكرها في قلب الهيكل . فكيف الخلاص من جانبي الشرك ، ولو أنه مكشوف معروف .

سبق إلى ظنهم كل خاطر إلا أنه ينتهي من القضية إلى حل لا يدعي به السلطة، ولا ينكرها، ولا ينساق فيه إلى مجاملة الرياء بالدين ، والكبرياء بالتقوى . ولبثوا يترقبون ولا يدرون كيف يخرج من المأزق الذي دفعوه إليه . وهو يستمع إليهم ويخط بأصبعه على الأرض حتى فرغوا من جلبتهم وسؤالهم ، فوقف ورد عليهم رياءهم في وجوههم . وكسر الشرك بقدميه من كلا طرفيه وهو يقول لهم : ( من كان منكم بلا خطيئة فليقدم وليرمها بحجر ) . ما أروع حديث العقاد بعد هذا وإن طال الاستشهاد .

لا ينقبض شريعة موسى، ولا يدعي تنفيذها، ولا يجامل رياءهم، بل يدعمهم هم يحاولون الخلاص من الحيرة والخجل بالزوغان . وبقيت المرأة المسكينة واقفة وحدها أمامه فسألها سؤال العارف .

٨٠

أين المشتكون منك . أما دانك أحد ؟ فقالت : لا أحد أيها السيد فأرسلها وهو يقول : ولا أنا أدينك فاذهي ، ولا تخطئي .  
( نعم لا يدينها ولا يحسب عليه أنه لا يدينها في تلك القضية ولو كان هو قاضيا لأن القاضي لا يدين بغير شكوى وبغير شهود وبغير بينة ) (١).  
الدكاء ووضاعة التفكير والتعبير من علامات الشخصية التاريخية عند العقاد فعبرية المسيح ترى ، فيما يرى ، في الردود السريعة والأجوبة المسكتة ( التي تدل إلى جانب أدلة كثيرة على الشخصية التاريخية ) .  
بإشراقات الدكاء وعطاء القلب والضمير أثبت السيد المسيح وجوده التاريخي وجلاله الأدبي، وإن تجنبت رسالته التشريع وزهدت في سلطات الدنيا والدين .

\* \* \*

هذا هو المسيح ومن بعده ، أتى « أحمد » ليكمل بالتشريع رسالة السيد ، ويختم بالقرآن من وحى ربه ، والحديث من هدى أدبه ، عطاء النبيين لتبدأ مسيرة العبريين الإسلاميين .

\* \* \*

### الفصل الثالث

## عقريات العقاد الإسلامية

عقريات العقاد الإسلامية أسلوب في الترجمة ومنهج في الدراسة قلما تخطئه عين منصفة .

والعقاد في عقرياته يبت قياً ينشدها الدارس والقارئ بعامة والمسلم بخاصة، ولا سيما إذا كان طريق الوصول إليها صعباً والريادة فيه عسيرة ، وهنا يتصدى للأمر قوة المنطق في العقاد ، وحركة الذهن عنده وهى قوية قادرة ، الذهن الثاقب وقدرة المناقشة التى تتحلىم المبالاة ، والمضاهاة ، والعلم ، بل تخدم الزمن نفسه بما تعين عليه أحداثه قبل ظهور السيرة وبعدها .

وتتمثل قوة المنطق فيه وقوة التفلسف التاريخى فى تناوله موضوع تقديم أبى بكر فى الاستخلاف .

ومن خصائص العقاد تخديم الأفعال اليومية للوصول إلى دلالات كبيرة على الشخصية ، وهذا هو الجديد الذى فعله العقاد ، فالحوادث والتصرفات وقعت من أصحابها وعرفت عنهم مروية أو مدونة، ولكنها فى كلتا الحالتين صماء إلا عن المعنى الظاهر من ظاهر الألفاظ والحروف، حتى إذا استشفها العقاد، ونقل إلى أغوارها، بدأت خلقاً جديداً بالمعنى المستبطن، والعبرة المستفادة، والدلالة الكامنة . ويمثل هذه الإضافات تغدو

للتاريخ قيمة حضارية لأنها قيمة إنسانية .  
والتفسير النفسى الذى أشرنا إليه يتمثل فى تناوله الشخصية من جميع  
جوانبها النفسية، وعرض هذا على ما تواضعنا عليه من صفات التفوق  
الإنسانى .

فيقابل العقاد شخصيته المختارة بالتموذج الإنسانى الذى رسمه الإنسان  
لنفسه ، ووجه القوة عند العقاد فى قوة الصفة عند ( البطل ) ، ذلك الوجه  
الذى يعطيه خصيصة أقوى من الامتياز التقليدى المقترن بها ، أى السمة التى  
تميز موصوفها بين من يتصف بها من الناس الممتازين ( بالانصاف )  
فهم مثلاً كان قوياً لا كواحد من الأقوياء ولكنه كان قوياً من طراز متميز  
القوة إذ كان قوياً ( لينتفع الناس بقوته ، ولم يكن قوياً ليطغى بقوته  
على الضعفاء )<sup>(٢)</sup> .

وقل مثل هذا فى عديد الصفات التى اتصف بها عمر حتى لتعد  
دراسته أو بالذات دراسة العقاد له ( غنيمة لكل علم يتصل بالحياة  
الإنسانية كعلم الأخلاق وعلم الاجتماع وعلم السياسة . . . ولم تقتصر مزايا  
هذه الدراسة على علم النفس وكفى )<sup>(٣)</sup> . وما بالليل هذا ولا بالسهل  
المنال حتى يحنى إلى مفتاح شخصية عمر ( بطبيعة الجندى ) لا يقف

(١) عبقرية عمر ص ٦٥ .

\* أقرأ بحث ( « توينبى » وفلسفة التاريخ ) للأستاذ على أدهم ، مجلة الكتاب  
العربى ، العدد الحادى والعشرون الصادر فى ١٠ فبراير سنة ١٩٦٦ .

(٢) عبقرية عمر ص ٥٦ .

ولا يتوقف بل يعطى هذه الصفة سمة خاصة ( عمرية ) تبدو معها بالتفوق ، بعيدة عن طبيعة الجندى هذه وهى منها جد قريب .

فأهم الخصائص التى تتجمع لطبيعة الجندى فى صفتها المثلى ؛ إنما تجمعت لها بعد ألوف السنين من تجارب الأمم فى تعبئة الجيوش ، ولكنها اتفقت لعمر بالفطرة القوية الموهوبة حتى لا تحتاج - من أصالتها فيه - إلى اكتسابها بطول المراتنة وإدمان التعود كالجنود ، وهذا وجه التفوق الذى يرتفع بصاحبه وحده إلى أوج العبقرية ولو اشترك معه آخرون فى صفة أو صفات .

وهنا نلمح ظاهرة الاستقصاء عند العقاد ظاهرة التفصيل ، فحين يقول إن عمر مهوب لا يقف عند الهبة فحسب ، ولكنه يمضى مع المعنى إلى أقصاه ( فهى هبة من قوة النفس قبل أن تكون من قوة الجسد ، إلا أنه مع هذا كان فى منظر الجسد رائعاً يهول من يراه ، ولا يذهب الخوف منه إلا الثقة بعدله وتقواه )<sup>(١)</sup>.

وهو إذا وصل إلى حكم للشخص أو عليه يمضى يفصله أو يفصله كأنه قاض يقرع الحثيات ثم يزيد هو فيجمع إلى الظاهر ، الباطن حتى ليبدو الأمر استقصاءً أفقياً رأسياً معاً . فطبيعة الجندى فى عمر يلتقط لها الفتات الإنسانى فى أقواله وأعماله مما يؤيدها بل يقع بها الآخرين اقتناعاً . فحرصه على النظام فى صفوف الصلاة ، وحلقات المسجد ، وتجمعات السوق ، ومجالس الحكم حرصاً يأخذ به نفسه قبل الآخرين

(١) عبقرية عمر ص ١٨ .



هذه قيمة دينية وقيمة إنسانية معاً . فليس الدين بالطقوس والعبادات ولو صحت وصدق فيها صاحبها ولكنه ارتفاع على الضعف الإنساني لا سيما الغريزي منه، بفعل الدين .

وليس بحق يستأهل التنويه من العقاد إن لم يشمل الأولياء والأعداء على سواء ( فإن الحق الذى يتبعه الرجل مع أهل دينه وحدهم لحق محدود يدخل فى باب السياسة القومية أكثر من دخوله فى باب الفضيلة الإنسانية ، وإنما يصبح جديراً باسم الحق حين يتبعه الرجل مع أهل دينه ومع الخارجين عليه )<sup>(١)</sup>

وعمر كان بلا ريب أشد المسلمين فى إسلامه .

وعمر كان أشد المسلمين رعاية لعهد أهل الكتاب .

وهى قيمة إسلامية إبرازها أجدى على التاريخ الإسلامى من القصص

الشائق والرواية المسهبية .

كان العقاد دقيقاً دقة عمر حين أوصى قاضيه أن يؤاسى بين الناس فى مجلسه ، ووجهه ، ولحظه ، وطرفه . وكم فى اللحظ من معان تدرك ولا تحس فتسبق الأحكام قبل صدورها بما أرادها عليه القضاة .

والعقاد معنى بالمعاني هى وحدها المقياس والتوقيت الصحيح وإن سبقت التاريخ الزمنى لها أوسبقها ، فعمر ثاني الخلفاء ولكنه فى ميزان العقاد مؤسس الدولة الإسلامية ( إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التى تقوم عليها وليس للتوسع فى الغزوات والفتوح . وعمر كان على نحو من الانحاء

(١) عبقرية عمر ص ٩٠ .

مؤسساً لدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين ، بل كان مؤسساً لها منذ أسلم ، فجهر بدعوة الإسلام وأذانه ، وأعزها بهيبته وعنفوانه .

وكان مؤسساً لها يوم بسط يده إلى أبي بكر فبايعه بالخلافة ، وحسم الفتنة التي أوشكت أن تعصف بأركانها . . وكان مؤسساً لها يوم أشار على أبي بكر بجمع القرآن الكريم وهو في الدولة الإسلامية دستور الدساتير ودعامة الدعائم (١) .

في البداوة البادية وضع عمر حجر الأساس لتاريخ وحضارة استطالاً آماداً بعيدة عن البداية الصغيرة التي استهلاها وإن كانت أصيلة بقدر ما رزقه عمر من سليقة التأسيس ، تلك السليقة التي هدته أن ينشئ حكومة وأن يجعل الأمر فيها شورى والقضاء تقاليداً وأصولاً .

حضارة لم تنس نصيبها من الدنيا ولكنها واعية بالخلفية الروحية للوجود ، تلك الخلفية التي غابت عن الوعي المعاصر . . ترى الله حياة الحياة أى السر الأسى لها . . وترى إبداع الكون في اتساقه الغريب . ومن ثم حققت هي الاتساق في أسلوبها .

وانطلاقاً من هذا الأفق المضيء حفظ المسلمون الحضارة القديمة حفظ الكريم الذى ينمى ويضيف . فحياة الروح يقينية بقدر ما هي قادرة على إغناء الوجود الفردى . . . إنها تمنح بهجة الرؤية . هذه الرؤية تمنح الحرية والجمال والحب لأفكار الإنسان ولعلاقته بالآخرين .



إنها تهيج الحلول بشروقها .

إنها تعيد الانسجام بين العقل والغريزة .

وترد الشارد إلى مكانه من حياة الإنسان .

وحين تكون الحادثة أو التصرف غريباً بعيد التصديق أو مظنة للنفي، لا يصبر عليه بدفاع أو تسويق ؛ لأنه ليس همه إنحال الشخصية خوارق الأعمال، ثقة بها وبغناها الذائي عن إضافات لا تزيد حيا يكفيا المسلم لها به ، والثابت الصحيح مما صدر عنها بلا افتعال نسبة أو تفسير . فقصه سارية والجليل يكتفي منها العقاد بدلالة لها أشباه في تاريخ عمر تقوم وحدها دليلاً على المعنى المراد ، فهي في السيرة تعزز النظائر ثم لا تزيد . إن البطولة في مفهوم العقاد إنسانية ممتازة ، والبطل إنسان ممتاز عبقرى موهوب حتى صفاء الرؤية أو النظر البعيد ( تلك المزية الإنسانية النادرة ) لا يقفها العقاد على التدين والعمق فيه ، بل صرح بعقلية رجل العلم بأن من الناس من مارسوا ( التلبائي ) وسجلوا مشاهداته ( وهم ملحدون لا يؤمنون بدين ) .

كل شيء عند العقاد مقتن وبحساب ، فهو لا يخلع على البطل الصفات الحسنى غمراً بلا ضابط، ولكنه يتقصى الأسباب والعوامل ويكشف عن مكنونها . ففوة العدل في عمر شيء طبيعي لأنها قوة اجتمعت له أسبابها حين تعددت هذه الأسباب من وراثة حيث مارست أسرته القضاء في الجاهلية واستشعرت رضا العدل وذوقت الظلم من أقرباتها في الوقت نفسه حيث تكثروا عليها بالعدد ، ومن عقيدة دان بها تأمر بالعدل وتتشد

فيه ، ومن تكوين ، ومن عبر الحوادث . وهكذا تعددت الأسباب وكان تعددها ( هو العاصم الذى حمى هذه الصفة أن تتناقض فى آثارها ) (١) وأن تهتر فيه حتى ليسوى عمر فى عطاء بيت المال بين المولود اللقيط وبين المولود من زوجين ، وهى رحمة وعدل قد يحجبهما النفور من الزنا وثمراته فى نفوس أناس ينفرون فلا يرحمون ولا يعدلون .

وحين يجمع إلى عدل عمر ورحمته ، الغيرة على الحق والحرمات والذكاء وألمعية الذهن لا يقول إن عمر رضى الله عنه خلق ( بذهن عالم بحاتة منقطع للكشف والتنقيب ، ولا أنه خلق بذهن فيلسوف مطبوع على التجريد والذهاب بالفكر إلى مناحى الظنون والفروض ، ولا أنه خلق بذهن منطوق يدور بين الأقيسة والاحتمالات مدار الترجيح والتخمين . فالمواقع أنه لم يكن كذلك ولا يعيبه ألا يكونه ) (٢) .

ومن اقتدار العقاد ابتداءه بالصفة وانتهاؤه بعكسها مما قد يبدو تناقضاً وهو تكامل . فتصرفات وأقوال التواضع العمرى ليس تصاغراً يكشف الصغر ، ( إنما هو تصاغر يكشف القوة والاعتداد بها ويكبحها بعنان متين هو نفسه دليل القوة والاعتداد ) (٣) .

ويعضى العقاد فى مقابلاته المعقدة الشيقة فيصف ما كان عليه الحال بين النبى وعمر فلم يكن أحد يعجب بمحمد أكبر من إعجاب عمر .

(١) عبقرية عمر ص ٦١ .

(٢) المرجع نفسه ص ٤٠ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٤٠ .

ولم يكن أحد مستقلاً برأيه في مشورة محمد أكبر من استقلال عمر .  
فهو آية الآيات على أن فضيلة الإعجاب لا تغض من صراحة الرأي  
عند ذى الرأي الصريح .

( فما أحجم عمر قط عن مصارحة النبي عليه السلام برأى يراه ،  
ولو كان ذلك الرأي من أخص الخصائص التي يقف عندها الاستقلال )<sup>(١)</sup>

### الإنسان في البطل :

وينتصر العقاد لروعة الإنسانية في البطل ، فعمر العبقري إنسان  
فيه فن وحب للجمال في كتاب ( عبقرية عمر ) ، عمر المنوء بهوم  
الدولة ، عمر الرياضي المشغول بالرياضة البدنية ، فكان يصارع في  
المواسم ويسابق على الخيل ويكتب إلى الأمصار أن ( علموا أولادكم السباحة  
والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر )<sup>(٢)</sup>.

في كتاب العقاد، عمر إنسان عطوف حتى لينزع الثقة من وال لا يحنو  
على صغاره ، ويتمدح أمام عمر بأن له عشرة أولاد ما قبل أحداً منهم  
ولا أدناه ، فيجيبه عمر ولماً يزل معه الصبي الصغير الذي كان يجلسه في  
حجره يلاطفه ويقبله : « وما ذنبي إن كان الله عز وجل نزع الرحمة من  
قلبك . . إنما يرحم الله من عباده الرحماء . ثم أمر بكتاب الولاية أن  
ينزق وهو يقول : إنه إذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية ؟

(١) عبقرية عمر ص ١٤٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٩٥ .

عمر في كتاب العقاد بطل يروع ويعرف روعة البطولة في غيره ( فمر  
كان يحب محمداً حب إعجاب ، ويؤمن به إيمان إعجاب ، ويستصغر  
نفسه إذا نظر إلى عظمة محمد ، وما هو فيها خلا ذلك بصغير في نظر  
نفسه ولا في نظر الناس )<sup>(١)</sup> .

ومن قوة الشخصية فيه قوة الكلمة الجامعة ومن هذا قوله لقاض  
يوصيه إذا جلس للحكم أن يدعو الله قائلاً : ( إني أسألك أن أفتي بعلم  
وأن أقضي بحلم وأسألك العدل في الغضب والرضا )<sup>(٢)</sup> .

ومفتاح منهجه في رسم الشخصية ( كل صفة تنمى لجميع الصفات  
كما يقول : وكأنما اتفقت لتصبح كل صفة ) أو ( كل خليقة منها على  
أتم قدرتها في بلوغه كما لها وتحقيق غايتها ) فلا العدل ينقصه جهل  
الطبيعة البشرية وضعفها الفطري ، ولا الرحمة يغلبها الهوى فلا تدب بالمساواة ،  
إنما هي ميزات تهديها الفطنة ويعصمها الإيمان برقابة ساهرة فلا تضل  
ولا تغوى .

ولعل هذا يفسر وصفه لعمر أو لصفاته ب ( التركيبية ) ولم يقل :  
التركيب لأنها تتركب كما تتركب أجزاء الدواء الذي ينفع لغرض واحد  
مفهوم ، والذي ينقص جزء منه فينقص نفعه كله ويدخله التناقض والاختلاط .  
وهو في رسم العبقرية لا يتكرر بالأخبار والروايات ولو أجمعت على  
صفة تعزز رأيه أو تؤيد اتجاهه بل هو يفترض الشك في بعضها ويبيع

( ١ ) المرجع نفسه ص ١٣٧ .

( ٢ ) المرجع نفسه ص ٧١ .

إسقاط: الكثير منها ثقة منه بإنسانية الشخصية التي اختارها، وامتياز هذه الإنسانية فيها حتى ليقى منها بعد الشك في الأخبار والإسقاط ما يدل على خصائصها في مجال العبقريّة الخاصة بها، وسيبقى ( ذلك التركيب العجيب الذي هو موضع الإعجاز وموضع الدهشة وموضع التساؤل في مصادر الأخبار )<sup>(١)</sup>.

والعقاد لا يسخو بوصف العبقريّة على كل ذكاء أيّا كان نوعه أو باعته فقد كان عمرو بن العاص ذكياً يعتمد على ( لباقة وحيلته وحسن بصره بمواقع الأهواء وذرائع الإرضاء ) ولكنه لم يزد عند العقاد عن أن يكون عظيماً من عظماء لا صاحب عبقريّة إليه تضاف لأن مزاياه أو سجاياه ( مجموعة من الصفات القويّة ولكنها على قوتها بسيطة متناسبة يأخذ بعضها ببعض على نحو مألوف غير مستغرب في أمثال هذه النفس الفطرية. وأعمقها جداً هو أظهرها جداً، أو هو الذي تعمق حتى بلغ من عمقه أن ينضح على قسيات وجهه وحركات جسده ) حتى الطموح الذي كان يجيش به إلى فتح البلاد وتغليب الدول وافتتاح المساعي إلى المجد والرئاسة، لم يرتفع به عند العقاد إلى أوج العبقريّة ليسامت العباقة ، لأنه رأى. طموحه ( قائماً على مطالب الواقع في بواعثه ومراميه ، فكانت نظرته إلى الدنيا نظرة عملية معروفة الموارد والمصادر ، ولم تكن النظرة الخيالية التي يتسم بها أصحاب الحماسة والأحلام من ذوى الطموح )<sup>(٢)</sup>.

(١) عبقريّة عمر ص ٥٥ .

(٢) عمرو ص ٢٧ .

المسألة في عمرو ليست العبقريّة بقدر ما هي عارضة قوية هي في رأى العقاد أنبغ ملكاته حتى بلغ من نبوغها أنها كانت عند الفاروق من آيات قدرة الله ، فكان إذا رأى رجلاً يتلجلج في كلامه قال : آمنت بالله خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد .

كما أن ملكات عمرو من ذكاء ماض وعزيمة ماضية ولسان ماض وهوى يمضى في زمامه وبنثنى بعد عرامه ، مما يحسب لصاحبها حساب في كل زمان وجد فيه ، ولكن هذا الحساب تصعد أسهمه في أيام الفتن والقلقل خاصة واختلاف الدعاوى والحقوق . لأنه يستطيع التفريق والتوفيق ويستطيع التآليب والتغليب فهو بهذا كله ( عسير جداً أن يهمل شأنه بين الشيع والأحزاب ، وإن لم يكن إهماله في غيبة الشيع والأحزاب جلد عسير . . ) .

أى أن عمرو ( رجل حالة ) لو صبح هذا التعبير وليس رجل عصر بعينه أو دعوة بعينها أو مبدأ بذاته .

العقاد لا يسخر بوصف العبقريّة من تقديسه لامتياز العبقري وتفرده . فهو لا يشرك معه إلا من يشائيه . وهو لا يطلق صفة وتبدو فضفاضة على موصوفها . إن اللفظة عنده كالقفاز مفصل على اليد التي تملكه .

إن أوجب ما يوجب كتابة السير ( أن تكشف جانب الخير في أغوار النفس الإنسانية ، لا قصيدة مديح كما يقال ، بل تحية صدق تمتحن بالنار والنور بين ظلمات الشرور )

لم يسم العقاد سيرة عثمان عبقريّة لأنه لا يؤمن بالعبقريّة لعثمان رضى الله

عنه ، حين يؤمن أنه ذو النورين : نور اليقين ونور الأريحية والخلق الأمين .  
(ومن أبي عليه ميزانه أن يحابي في كلمة تستدعيها المجارة لما سبقها  
من الكلمات ، لن ينظم قصائد المديح في محراب التاريخ . فحسب  
النفس البشرية أملاً أنها غنية بالحق عن قصائد المديح في هذا المحراب )<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

وعبقریات العقاد فيها قيم بمثلها تقيم الكتابة والكتاب . فالعقاد  
في العبقریات الإسلامية يثبت الإيمان عند الحائر لا بتحلية الوقائع  
التاريخية أو التزويق الأدبي، ولكن بمناقشة المسائل الشائكة التي يجهر بها  
العدو ويخافت الصديق .

ففي عبقرية محمد ناقش دعوى انتشار الإسلام بالسيف. وإذ سلط  
على الاتهام عقله ومنطقه تهافت الباطل إذ الإسلام كما يقول العقاد  
حين حارب بجيوش إنما كان أصحابه يحاربون بوصفهم دولة لا بوصفهم  
مسلمين، وبوصفه نظاماً لا بوصفه ديناً ( هذه الفتوح كانت تفرضها سلامة  
الدولة إن لم تفرضها الدعوة إلى دينها )<sup>(٢)</sup>.

ويعزز هذا ولا ينفيه فرض الجزية التي جعلها الإسلام ضريبة حرية  
العقيدة يتحلل بها من الالتزام من لا يريد اعتناقه ، وحتى هذه الجزية  
رفعها عمر عن أهل الكتاب للسن والحاجة .  
و ( الإسلام لم يوجب القتال إلا حيث أوجبه جميع الشرائع وسوغته

(١) عثمان بن عفان ص ٢٠٠ .

(٢) عبقرية محمد ص ٥٨ .

جميع الحقوق ، وإن الذين خاطبهم بالسيف قد خاطبهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك ، إلا أن يحال بينها وبين انتصائه ، أو تبطل عندها الحاجة إلى دعوة الغرباء إلى أديانها<sup>(١)</sup>.

كما ناقش بمثل هذه الفحولة مسألة زيجات النبي وخاصة زواجه من زينب بنت جحش .

أما في عبقرية عمر فقد ناقش ثلاث مسائل شائكة في سيرة عمر :

- ١ - نهيه عن استخدام بعض الدمين .
  - ٢ - منعهم أن يتشبهوا في الأزياء والمظاهر بالمسلمين .
  - ٣ - إخلاء بعضهم عن الجزيرة العربية في إبان الفتوح .
- فاحتكم إلى منطق العقل وإلى مقاييس السياسة ، والحكم في الدولة القديمة أى بمعناها القديم والدولة الحديثة .
- ومن الحقائق التي جلاها كتاب عمر ، حقيقة : موقف الإسلام من الفتوح هل في الأمر شهوة السيطرة واللهج بالحكم ؟ أم هو تأمين الجزيرة مهد الإسلام من الدول العظمى التي تهددها وتتحيفها وهي تتأخمها ؟ وهي نقطة يغنى فيها حديث العلم والواقع التاريخي عن دفاع طويل عن اقتران الإسلام في رأى البعض بالسيف .
- كما ناقش العقاد في (عبقرية عمر) حريق مكتبة الإسكندرية وما إلى هذا من أمهات المسائل .

كما ناقش من متعلقات السيرة :

---

(١) المرجع نفسه ص ٦٠ .



### عزل خالد

وحادثة الواد في الجاهلية . التي ( ما نحسبها إلا إحدى جنابات  
الأغراب على من خلقوا وفي سيرتهم مثال للأغراب والإعجاب ) (١).  
ولكنني أحسبها صحيحة بقرينة الآيات ( ولا تقتلوا أولادكم خشية  
إملاق نحن نرزقهم وإياكم ) .

\* \* \*

### في عبقریات العقاد الإسلامية إضافات كبيرة :

فعمر من عطاءات الإسلام بما طور من حياته وشكل سيرته .  
( كان جاهلياً فأسلم . . . فأصبح إسلامه طوراً من أطوار التاريخ ،  
ولو لم يكن الإسلام قدرة بانية في التاريخ الإنساني لما كان إسلام رجل  
طوراً من أطواره الكبار ) (٢).  
عمر إذن من عطاءات الإسلام ، كما أن مواضع البأس في الإسلام  
على عصره من معطيات عمر . يعزز هذا سؤال النبي ربه أن يعز الإسلام  
بعمر الذي وضح أنه أحب الرجلين إلى الله .  
وأسلم عمر وحسن إسلامه فكان النبي ( يدخر للإسلام سوره كما  
يدخر له تسليمه وطاعته ) (٣).

---

(١) عبقرية عمر ص ٢١٤ .

(٢) المرجع نفسه ص ٩٥ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٤٦ .

وأسلم عمر فكان إسلامه كما قال عبد الله بن مسعود (فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمارته رحمة) (١).

وكتاب عبقرية عمر كتاب ( يقرأ . . فيه القارئ قبل كل شيء ماذا يصنع الإسلام بالنفوس ويعلم منها قبل كل علم أن هذا الدين كان قدرة بانية منشئة من لدن المقادير التي تسيطر على هذا الوجود . كإله قدرة تلبس الضعيف فيقوى ، وتلبس القوى فتنتفى قوته وتجري به في وجهه ، وكان يبدأ خالقة حاذقة تأخذ الحجارة المبعثرة في التيه فإذا هي ضريح له أساس وأركان ، وفيه مأوى للضائير والأذهان) (٢).

وحسب الكتابة وكاتبها أن تصور حياة فرد فتؤرخ لدين بأسره من خلاله . . . دين هو أحوج ما يكون إلى تصوير قد يدحض عنه التهم ويرحض عنه الأذى ويجلو عن مراميه الشكوك .

ويقارن العقاد في كتابه « عبقرية الصديق » بين شخصيتي أبي بكر وعمر، أو بين النموذجين الكبيرين في التاريخ الإسلامي، فيجمع الموقف كله في تقديم وصف على موصوف يكفي في الإبانة عما بين عمر والفاروق ، من فروق .

فأبو بكر كما يقول العقاد كان يعجب بمحمد النبي وعمر كان يعجب بالنبي محمد أي أن (حب أبي بكر لشخص محمد هو الذي هداه إلى الإيمان بنبوته وتصديق وحيه .

(١) المرجع نفسه ص ١٦٩ .

(٢) المرجع نفسه ص ٨٢ .

وأن اقتناع عمر بنبوة محمد هو الذى هداه إلى حبه والولاء له والحرص على سنته ، وعلى رضاه .  
ولهذا كان أبو بكر يطيع محمداً فيفهم القرآن ، وكان عمر يأخذ بالقرآن ، أو بما يفهم من مشيئة الله فيناقش محمداً حتى يثوب إلى الفهم الصحيح .  
هما قريبان جد قريبين .

ولكنهما ليسا بشيء واحد على كل ما بينهما من اقتراب (١) .  
وبعضى العقاد فى المقابلة حتى ما يتعلق منها بتكوين النبوة وتركيب المزاج فتكون فى جماعها مقابلة بين القوة من نوع والقوة من نوع آخر ، وكلتاها فعالة ، وكلتاها ذات أثر فى الإسلام ، وفى العالم ، جليل .  
(وإن العقيدة التى تتسع لهذين الرجلين ، ولهذين الخلقين ولهذين العقلين ، ثم يكون كلاهما إماماً فيها ، عظيماً فى اتباعها ، لى عقيدة تتسع لكثير) (٢) لكان العقاد موكل بتحريك السطح الراكدة أو تحقيق المفاهيم الثابتة ونفض التلقائية عنها .

فإسلام أبي بكر مثلاً لا يقف به العقاد عند دلالة السباحة والطيبة التى قد تغرى الغرض بتحميلها معنى الضعف أو الاستسلام ، ولكنه يعمقه كالعادة مستبطناً الأسباب البعيدة . . . والقرية فإذا إسلامه

(١) عبقرية عمر ص ٨٤ - ٨٥ .

(٢) عبقرية الصديق ص ١٢٨ .

الموقف الذى يتخذه كل إنسان فى مثل مواضعاته وظروفه التى خلت من الموانع حين حفلت بالموجبات وعلى رأسها انطباعه ، سليم الفطرة ، على الإعجاب بالبطولة .

( دان أبو بكر إذن بالإسلام سريعاً إلى دعوته لتلك الأسباب التى تليق به وتليق بالدعوة المحمدية وليس تلقائية ساذجة . . فكان جديراً أن يكتب له من اللحظة الأولى أن يكون ثاني اثنين حين يكون النبي هو أول الاثنين . فكان ثاني اثنين فى الإسلام ، وثاني اثنين فى غار الهجرة ، وثاني اثنين فى الظلة التى آوى إليها النبي يوم بدر الذى لا يوم مثله ، وثاني اثنين فى كل وقعة من الوقعات بين المسلمين والمشركين ، وأقرب صاحب إلى النبي فى شدة الإسلام ورجائه ، وفى سره وجهه ، وفى شئون نفسه وشئون المسلمين )<sup>(١)</sup> .

هكذا العقاد لا يسرد ولا يقص ولا يتسلى ولكنه يقف وراء التجارب والأعمال والأقوال والظواهرات والأحوال كعلامات طريق . .

\* \* \*

ففى (عبقريّة الإمام) صوّر عصر على لا بالإنشاء والتحجير ، ولكن بتصرفات أصحابه على مسرحه وأقوالهم وسلوكهم وما وراء هذا من دلالات وعبر .

كانت الخلافة منذ تولّاها عثمان مسرحية كبيرة شغلت أذهان النظارة والنقاد معاً وبلغت الدراما ذروتها بمقتل عثمان .

(١) عبقرية الصديق ص ١١٣ .

واعتنى على خشبة المسرح الأصغر وهو الذى استفاضت شهرته وأعماله على مسرح الحياة الكبير فى حربها وسلمها . . فى عملها وقضائها . . فحسرتة الحياة ولم تكسبه الخلافة . .

لم يكن صاحب عصره . عاش فى مرحلة تحويلية يسرع فيها الحكم الإسلامى إلى الملك فى سمته وأسلوبه وغاياته ووسائله وكلها تتعارض مع فروسية الشجاعة ، وزهد الروحانية ، وتقوى العالم بالدين . . تتعارض مع الإمام .

( فأى مصير لهذا الرجل غير الشهادة فى زمن لم يعرف بطارئ من الطوارئ كما عرف بالإقبال على الدنيا . . . )<sup>(١)</sup>  
ومرة أخرى يقول الأستاذ العقاد :

( خرج « على » إلى الدنيا والشهادة مكتوبة على جبينه ، وخرج منها والشهادة مكتوبة على ذلك الجبين بضربة حسام ) .

ولكن موته لم تكن هلكاً ، وخلافته لم تكن مقطوعة ، فقد عاش على موته الملوك ، وقامت باسمه الدول ، وهو الذى لم تقم له دولة فى حياته . وبين البداية والنهاية أو المقدمة والنتيجة عرض العقاد حياة الإمام بألوان عبقريتها فى الشجاعة والرأى والعلم والروح فما فرغ من العرض إلا وفى كل ناحية من نواحي النفوس الإنسانية ملتقى بسيرة على بن أبى طالب رضوان الله عليه . . ملتقى بالعاطفة المشبوبة أو بإحساس الرحمة والإكبار . ملتقى بالخيال حيث تحلق الشاعرية الإنسانية فى أجواء الذين ألحقوه

---

(١) عبقرية الإمام ص ٢٠٤ .

١٠٠

بأبطال الأساطير ، أو ملتقى بالعقل يفصل بنفسه بين اختلاف المختلفين  
وتشيع المشيعين .

سنتقى للذوق الأدبي حيث يقع من نوايغ الكلم عند الإمام على مهوى  
للتذوق الحسن ، للجميل من التعبير .

إن هذه السيرة تحاطب الإنسان حينما اتجه إليه الخطاب البليغ من  
سير الأبطال والعظماء ، وتمس قلبه حين يجرى تاريخه وتاريخ أبنائه في  
سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة ويتراءون من بعيد واحداً بعد  
واحد شيوئاً جللهم وقار الشيب ثم جللهم السيف الذى لا يرحم ، أوفتياناً  
عوجلوا وهم في نضرة العمر يحال بينهم أحياناً وبين الزاد والماء وهم على  
حياض المنية جياح ظماء .

على بن أبي طالب في كتاب العقاد ، الإمام العبقري ، والشهيد  
أبو الشهداء . . .

\* \* \*

ومنهج العقاد مطرد في كل عبقرياته الإسلامية كأنه علامة مميزة .  
هذا المنهج تستطيع أن تطبقه في ( عبقرية خالد ) فقد رسم خلفية مادية  
وإنسانية للبطل تفسر مواقفه وتصرفاته وآراءه ومنازع السلوك عنده .

وهذه الخلفية لا تستثنى خالصة من مشاعر أو ظاهرة من الظواهر  
في بيئة البطل العامة أو الخاصة ولو كانت بعيدة في رأى العين أو النظرة  
الأولى عن الموضوع . فجمال المخزوميات يحسب في خلفية صورة القائد  
خالد بن الوليد ( فقديماً كانت الفروسية والغزل . . والمرأة بيئة واحدة

تعاون فيها البطولة والشاعرية والجمال (١) .

يعالج العقاد إسلام خالد فلا يستريح إلا أن يكون إسلامه ( تسليم القلب نفص عنه الكفر ، وليس تسليم اليد رمت منها السلاح ) (٢) .  
ولا يهدأ العقاد عند الأقوال المقررة فيقيم عليها بناءه الأدبي أو التاريخي ولكنه يعرضها على الدرس والتعميق فإذا هو يبدأ من حيث انتهت .  
والبدايات عند العقاد جدلية إلى أبعد إمدادات الجدور في تربة البطل أو منبته المادى والمعنوى على السواء .

فالقول بأن خالد ( سيف من سيوف الله ) لا يتعلق به العقاد ليعنى نفسه من متناقضات السيرة فيتجاوز بالقارئ أو بالحققيقة العلمية ( ميدان حنين ) أو صنيع خالد في سرية بنى جديمة .  
لا . . بل لعل العقاد يرى في مثل هذه المزالق مجاله الذى يصول فيه بطاقة الجدل عنده وقدرة الإقناع فيه .

يقول العقاد : ( كثير من رؤساء الأمم يعرفون موضع الإكليل من ربوس القادة وهم منتصرون ظافرون ، ولكنه موضع ينحى جد الخفاء على أنظار هؤلاء الكثيرين إذا لم يدلم عليه ضياء النصر والظفر ويبقى للعين الملهمة وحدها أن تراه في ظلال المحنة والبلاء ) .

ويعنى العقاد بهذا القول عين النبي الملهمة فقد سمي خالداً سيف الله ( قبل أن يهزم المرتدين وقبل أن يهزم الفرس والروم وقبل أن يصون للإسلام

( ١ ) عبقرية خالد ص ٢٧ .

( ٢ ) المرجع نفسه ص ٤٢ .

جزيرة العرب ، ويضم إليها العراق والشام . . وهى الأعمال الجسام التى من أجلها يدعى اليوم سيف الإسلام<sup>(١)</sup> .

ولا يتردد العقاد فى تقرير الخطأ إذا قام عليه من الأحداث والروايات ووقائع الحال ، الدليل . ومن هنا أثبت على خالد الخطأ فى وقعة البطاح ( لأنها لم تضاف إلى فخاره العسكرى كثيراً ولا قليلاً وأهدفته لمام أحمد ما يحمد منه أن له عدراً فيه ، يقبله أناس ولا يقبله آخرون )<sup>(٢)</sup> .

وقد أثبتته عليه عملاً بمبدأ تقرير الخطأ كالتنويه بالصواب ( لأن الرجل الذى يحنى على قدره من تقرير أخطائه رجل لا يستحق أن يكتب له تاريخ )<sup>(٣)</sup> .

ناقش العقاد عزل خالد<sup>(٤)</sup> فلم يقدم اقتناع خالد عندما أفاء إلى الهدوء بهذا العمل ، جنوحاً إلى الأسهل بل أجله إلى آخر المناقشة فأنهى به حيث بدأت النفس القارئة فى الاقتناع . وهنا لم يترك لها فرصة أطول للتفكير أو الترجيح بل انتهى بها إلى قرار معروف إذ توفى خالد ( وهو يجعل وصيته وتركته وإنفاذ عهده إلى عمر بن الخطاب )<sup>(٥)</sup> .

العقاد نفسه إنسان رقيق الإحساس فى الكتابة عن العباقرة والعظماء ..

( ١ ) المرجع نفسه ص ٤٨ .

( ٢ ) المرجع نفسه ص ٩٦ .

( ٣ ) المرجع نفسه ص ٩٦ .

( ٤ ) عبقرية خالد ص ١٤٥ - ١٥٣ .

( ٥ ) المرجع نفسه ص ١٥٤ .



١٠٣

فمفخرة خالد بن الوليد أعنى موقعة ( اليرموك ) قمة نصره الحربى  
فى تاريخه كله لا تلهى العقاد الإنسان الرقيق عن موضع الدلالة فى قصة  
( قلنسوة ) خالد القائد الظافر ، الذى يصر على البحث عن القلنسوة فى  
موقف الهول وما هى بالنفاسة التى توجب الحرص عليها أو تؤلم عند افتقادها .  
ولكن إصرار خالد على العثور عليها إنما كان لتيمنه بها لما حملت من شعر  
ناصية الرسول .

ويؤمن العقاد على رأى خالد ، أقرب ما يكون إلى القلب الإنسانى :  
( ما فى ذلك من عجب فليس أخرج إلى صلة بعالم الغيب من  
رجل يلقى الموت صباح مساء )<sup>(١)</sup> .

لا يستطيع إدراك فعل هذه الكلمة من العقاد إلا من يقرأ كتابه  
عبرية خالد الذى يقيد فيه العقاد أنفاس القارئ ليسمعه يمتطى ويجادل  
وفلسف الأشياء الصغيرة حتى تغدو لها قيمة ويصاوم الحجة بالحجة  
ويستقصى حتى يقفل الدائرة تماماً حتى إذا هت القارئ من التصعيد  
إليه وحسب أن مهمته صعبة مع الكاتب العالم المحقق وظن أنه عنه بعيد . .  
بعيد إذا ، به ، منه قريب قريب . . إنسان مثله يحنو على ضعف الإنسان  
أمام القوة الكبيرة فيتوسل إليها بالتبرك والتيامن . . ونافلة من صلاة .

إن عبريات العقاد الإسلامية أجدى على الإسلام من حيث هو  
دين ونظام وعلى الأدب العربى من حيث هو تصوير وتعبير ، وعلى الأدب  
الإنسانى من ناحية إعلائها للشئال الإنسانية من خير وحرية واستقلال

( ١ ) المرجع نفسه ص ١٦٢ .

رأى وشعور بالتبعية وإيثار للعدل . . أجدى على الدين والدنيا فى إجلائها العقيدة واحترامها العقل الإنساني من كتب كثيرة ليس فيها من الجهد والعلم والقيم . . وإن أغنت فى ناحية أو أخرى - معطيات العقاد التى أسداها مخلصاً لله ، وللإنسان عن إيمان . .

والعقاد يعزوتعلقه بالموضوعات الإسلامية وما اتصل منها بالعترة النبوية على التخصيص ، فيما يعزوه ، إلى وراثته . ( ولدت لأبوين من أهل السنة أبي على مذهب الشافعى وأمى على مذهب أبي حنيفة. وفتحت عيني على الدنيا وأنا أراهما يصليان ويتيقظان قبل الفجر لأداء الصلاة « صلاة الصبح » حاضرة ، وربما زارنا أحد أخوالى فى تلك الساعات المبكرة ذاهباً إلى المسجد القريب أو عائداً منه إلى داره .

وفتحت أذني كما فتحت عيني على عبارات الحب الشديد للنبي عليه السلام وآله . فمولد النبي حفلة سنوية فى البيت ترقبها نحن الصغار ونفرح بها لأننا نحن القائمون بالخدمة فيها . وأسماء النبي وآله تتردد بين جوانب البيت ليل نهار ، لأنها أسماء إخوتي أجمعين محمد وإبراهيم والمختار ومصطفى وأحمد والظاهر ويس ، وشقيقى الوحيدة اسمها فاطمة ، واسمى أنا منسوب إلى عم النبي لا إلى الأمير الأسبق : عباس حلمى كما كان يتوهم بعض معارفى لأننى ولدت قبل ولايته ، وأبيت فى المدرسة أن ألقب « حلمى » جرياً على ما تعودته المدارس فى تلك الحقبة .

ورثت هذا الحب الشديد للنبي وآله عليهم سلام الله ورضوانه ، وليس هذا الحب الشديد بالمستغرب من أهل السنة لأنهم يدينون بدستور

السنة النبوية ، ولكنه كان في بيتنا أشبه بالعاطفة النفسية منه بالآداب المذهبية فاستفدت منه كثيراً في دراسة تاريخ الإسلام<sup>(١)</sup> .

هل المسألة عاطفة فحسب ؟ عاطفة توجد عند الكاتبين والأمينين ؟ لقد استدرك العقاد ، العقل المفكر ، بعد قليل ، فقال وكأنه لمح هذا السؤال خاطراً يسنح بغير حروف .

( قاربت سير العظماء الإسلاميين و « النبويين » لأرضي ذهني ، ولم يقتنعني أن أرضي بها عاطفة لا أستمند من ذهني شواهدا وآياتها ، فعظماء الإسلام عندى أعلام إنسانية ، باذخة تمحوها مكان العظمة ، مناقب يكبرها المسلم وغير المسلم ، وليست غاية الأمر فيهم أنهم أضرحة للتبرك وتلاوة الفاتحة والسلام )<sup>(٢)</sup> .

حتى في تاريخه لفاطمة لم يكتبه لأنها بنت محمد أو زوج علي ، أو لأنها أم الحسن والحسين وبنهما الشهداء ، ولكنها مع هذه الكرامة قد تكتب لها ترجمة لأنها هي فاطمة ولأنها هي ( مصدر من مصادر القوة التاريخية التي تتابعت آثارها في دعوات الخلافة من صدر الإسلام إلى الزمن الأخير )<sup>(٣)</sup> .

وعلى ما يبدو من صرامة منطق العقاد خاصة حين يحلل أو يسوق الحجج ، فإنه في سيرة الحسين يكتب بقلم مغرورق فإذا السطور عن

( ١ ) كتاب فاطمة الزهراء والفاطميون ص ٨ .

( ٢ ) المرجع نفسه ص ٩ .

( ٣ ) المرجع نفسه ص ٩ .

سبط الرسول ، مندادة بالدموع .

هل أستعير عبارته عن الفاروق بن الخطاب : ( أكتف ما تكون الدروع ، أرق ما يكون الموضع الذى يليها ) .  
والعقاد الذى يراه الناس صارماً جباراً ، يرق ويرق فى الكتابة عن الحسين عن أريحية وحب وعطف على موقفه ونفوراً من ظالميه وقاتليه حتى ليقول فيهم وفيه : ( ذهب يزيد إلى سبيله وعوقب أنصاره فى الحياة والحطام والسمة بعده بشهور ، ثم تقوضت دولته ودولة خلفائه فى عمر رجل واحد لم يجاوز الستين .

وانهزم الحسين فى يوم كربلاء وأصيب هو وذووه من بعده ، ولكنه ترك الدعوة التى قام بها ملك العباسيين والفاطميين وتعلل بها أناس من الأيوبيين والعثمانيين ، واستظل بها الملوك والأمراء بين العرب والفرس والهنود ، ومثل للناس فى حلة من النور تخشع لها الأبصار .

وباء بالفخر الذى لا فخر مثله فى تواريخ بنى الإنسان غير مستثنى منهم عربى ولا أعجمى وقديم ولا حديث .

فليس فى العالم أسرة أنجبت من الشهداء من أنجبتهم أسرة الحسين عدة وقدرة وذكره وحسبة، إنه وحده فى تاريخ هذه الدنيا الشهيد بن الشهيد أبو الشهداء فى مئات السنين ) .

والحسين فى كتاب العقاد ، وكتابه ، سيرة عطرة صافية صفاء النور تلحق بعالم المثل الذى يتطلع إليه خيال الشعراء وتتغنى به قرائح أهل الفن .  
وليست هذه ، على قيمتها ، كل ما فعله العقاد ولكنه كشأه ناقش

١٠٧

قضيته مناقشة معمقة خدّم لها فحولة منطقته وقدرته في الجدل والقياس .  
وكأنه كان يكتب ليقنع ( بالحسين ) المخالفين والأولياء على سواء .  
ولا يخدم قضية مهما تراءت قوتها ، قدر مواجهة آراء الطرف الآخر  
ومناقشتها ودراستها حتى لا يحيك بالنفس شك فيها قد تخفيه ولا تبديه ،  
وقد تداريه ، ولكنها في الحالين لا تصل إلى مرتبة الصدق الخالص غير  
مشوب ، وهي مرتبة اليقين .

\* \* \*

وبعد فالعقاد بمجموعة كتاباته الإسلامية الجامعة دعوة واضحة إلى  
الاعتزاز بالتراث في صوره المشرقة . وإن كان من علماء التاريخ من يرى  
إبراز الجانب المشرق في عبقریات العقاد الإسلامية نهجاً لطريقة الكمالين  
من علماء الأخلاق ، غدا منهجاً . ( ومن هنا فعبقریات العقاد الإسلامية  
ليست سيراً بالمعنى التاريخي المألوف ، وإنما هي صور أخلاقية قلما يحتفل  
فيها بالأحداث والوقائع ) . ثم التطرق من هذا إلى نقد ( التركيز على  
جانب واحد من جوانب التاريخ خدمة لأهداف مباشرة فهو سلاح  
ذو حدين ، إذ أنه يقدم للقارئ ، كبيراً وصغيراً ، أنماطاً غير إنسانية  
لا تتحرك إلا في عالم آخر غير عالمنا هذا ) (١) .  
على أن هذا الرأي كان يمكن أن يكون أكثر مطابقة لو أن العقاد

(١) من مقال ( عباس العقاد مؤرخاً ) للدكتور أحمد عبد الرحمن مصطفى .

الجلال العدد الرابع - السنة الخامسة والسبعون عدد خاص ( العقاد ) .

كتب ترجمة فحسب ثم اجتزأ بالجانب المشرق دون الجانب الآخر ، ولكن  
العقاد منذ العنوان صرح بأنه يقصد ( العبقريّة ) .  
على أن العقاد لم يقتصر على الأنماط العزيزة أو التي لا تتحرك إلا في  
عالم آخر غير عالمنا هذا ، فقد كتب العقاد عن إنسان ( مجهول القدر  
منحوس الحق يصطلح على بخسه والنزول به عن قدره جهل النقاد وظلم  
الأغراض والأهواء ) . ذلكم هو الشاعر المغبون : ابن الرومي .

\* \* \*

## الفصل الرابع

### العقاد والمرأة

والآن نفرد فصلاً للحديث عن المرأة في أدب العقاد كما أفرد لها هو فصلاً في كتابه عن جيتي . وكتاب يتحدث عن الجمال والحرية والشخصية الإنسانية لا يجوز أن يغفل المرأة فهذه العناصر الثلاثة محور حياتها .

وفي حياة العقاد نماذج للمرأة كتلك التي في حياة جيتي ، فالعقاد يكاد أن يكون مثل صاحبه الذي أحب طائفة شتى : منهن الفتاة والنصف ، ومنهن الشقراء والسمرء ، ومنهن التي أحبها للرشاقة والدمائة ، والتي أحبها للحب والمتعة ، والتي أحبها للذكاء والحصافة ، والتي أحبها للعطف الأنثوى الذي يحتاج إليه الرجل الشاعر في حياته النفسية . ولكن أحب إنسان إلى قلبه من النساء أو الرجال كانت أمه التي تشي كتاباته عنها بتفضيله لها على أبيه . . .

وحين يتكلم الأستاذ العقاد عن العبقرية والشخصية الإنسانية فإنما يقصر حديثه ، إذا استثنينا عقيلات بيت النبوة كالسيدة النجبية المنجبة فاطمة الزهراء ، والصديقة بنت الصديق ، - من واقع الشخصيات التي خصها بإعجاب - على الرجل أقولها أنا السيدة بأسف عاتب . بل إن الأمر تجاوز هذا إلى التصريح بتفضيله الرجل على المرأة في غير موارد بل في قسوة

أحياناً كثيرة . وهنا ألمح كتابه ( المرأة في القرآن الكريم ) فهو يرى في القوامة الواردة في القرآن الكريم أنها مستحقة بتفصيل الفطرة وأن قوة الجسم في الرجل وراءه سبب من فضل ( فإن الجنس لا يمتاز في جملة بقوة الجسد ، دون أن يرجع ذلك إلى فضل في التكوين يوجب الامتياز والرجحان ) .  
وهل قوى الحيوان كالأسد والنمر مثلاً أفضل في التكوين من الإنسان  
لعامل قوة الجسم ؟

المرأة وظيفتها الأولى في الحياة لا تحتاج إلى ضلاعة الجسد ، بل تحتاج إلى تكوينها الخاص بها المرسوم بحيث ينهض بالأومة .  
والمرأة - من حيث الشكل - تهوى الجمال لا القوة أى أن تكون جميلة في استدارة لا مفتولة الساعدين ، بل إن المرأة ( القوية الجسد ) والبنيان تعاب في عرف النساء وتوصف بأنها : « رجل » .

وحين افترض الأستاذ العقاد ( النقص في التكوين ) بنى عليه الكثير فعنده من النادر جداً أن يوجد بين النساء من تبذع الجمال في فن من الفنون ، سواء كان الشعر أو التصوير أو الموسيقى أو التمثيل .

ويعارض الرأي الذى يعزو تخلف المرأة في الفنون الجميلة إلى الحجر عليها في صور الجهالة الأولى فهو يرى أن الحجر (كان شاملاً للضعفاء من الرجال والنساء على السواء ومع هذا نبغ الشعراء والفنانون من طبقة العبيد والسوقة ) .

وتهدر حجج العقاد :

( المرأة لم يحجر عليها في الغناء والعزف ومع هذا لم يتجاوز حظها من



القناء طبقة الأداء الحسن إلى طبقة الخلق والإبداع ) .  
 وإن كان الأستاذ العقاد قد نسي قوله في غمرة الفرح بشفاء أم كلثوم  
 الذى أوحى إليه قصيدة رقيقة منها :

|                                  |                                     |
|----------------------------------|-------------------------------------|
| أَيْهَا الْكَوْكَبُ الـدِّى      | أَسْعَدَ الْأَرْضَ بِاللِّقَاءِ     |
| رَدَدْنِى الطَّرْفَ فِى الْفَضَا | ، وَمَا أَرْحَبَ الْفَضَاءِ         |
| وَاسْأَلْنِى سَوَالِ مَنْ        | يُلْحِنُ الطَّيْرَ فِى الْمَهْوَاءِ |
| هَلْ سَرَى فِيهِ مِثْلُ صَو      | تَكَ فِى الْحُسْنِ وَالنَّقَاءِ     |
| فِى قَدِيمِ الزَّمَانِ أَع       | نَبِى وَفِى حَاضِرِ سَوَاءِ         |
| لَا أَحَاشِى مِنَ الرَّجَا       | لِ قَبِيلًا وَلَا النِّسَاءِ        |
| .....                            | .....                               |
| لَا تُجِيبِى . أَنَا الْمَجِيبِ  | ب وَلَمْ أَغْلُ فِى الثَّنَاءِ      |
| أَنْتَ كَالشَّمْسِ لَا تُعَدُّ   | د فِى هَذِهِ السَّمَاءِ             |

ديوان بعد الأعاصير

ومن حجبها الماثلة ، الطبخ والتطريز والتجميل من الصناعات  
 التى تفوق الرجل فيها وكان الظن أن تكون الصدارة فيها للمرأة .  
 وأرى أن مرجح ذلك إن الرجل يمر بمرحلة شبه دراسية من التمرين  
 فى المطبخ حتى يصل إلى « طبخ » لأنه يستعد للاحتراف فى البيوت  
 والفنادق . أما المرأة فلا تفكر عادة فى الاحتراف بهذه الصورة . إن  
 المقصود بالطبخ عندها أسرتها الخاصة أو ( أسرة ) غريبة إذا دعاها داعى  
 الحاجة إلى العمل بالمنزل .

على أن معاهد التدبير الآن بمن فيها قادرة على ابتداع الأصناف والافتتان فيها وتنويعها وتحسينها . أما من جهة الآداب فقد نجحت المرأة في الآداب على كافة المستويات . فالمسألة ليس فيها استحالة حادة، ومثل هذا يقال عن موضوع التطريز والتجميل .  
يقول الأستاذ العقاد :

( وتنوح المرأة على موتها ، وتتخذ النواح على الموقى صناعة لها في غير مآتمها ، ولم تؤثر عن النساء قط في لغة من اللغات مرثاة تضارع المرثي التي نظمها الرجال ) .

وأقول : هنا أيضاً يتعلق الأمر بقدرة النظم . وهذه يترتب عليها الحفاظ والديوبوع . ولكن بين ( عديد ) النساء ما يفجر الصخر . وقد دخل فعلاً في عداد الفنون القولية أو الشعبية على الأقل . على أن أشهر مرثي الأدب العربي ما أثر عن الخنساء .

ومثل هذا قاله عن الرقص وهنا أيضاً لا يمكن إطلاق الأمر قاعدة . إن المرأة التي استطاعت أن تدرس الطب والهندسة وتنجح فيها تستطيع أن تدرس الرقص وغيره مما أثير وتبلغ في نجاحها مبلغ الرجل ، وتستطيع أن تفوقهم كما فاقهم أحياناً كثيرة في ألوان الدراسات الأخرى . والأستاذ العقاد نفسه يقول بهذا ولكن على سبيل الاستثناء الذي يؤيد القاعدة ولا ينفيها ! لماذا ؟

إن أشهر نجوم فن الباليه راقصات مثل بافلوفا و « أولانوف » و « ايزادورا » . لأن فضائل الأجناس في رأيه ( لا تقاس بالنصيب المشترك بل

١١٣

تقاس بالغاية التي لا تدرك ولا تؤخذ بالاستثناء الذي يأتي من حين إلى حين ، بل بالقاعدة التي تعمم وتشيع بين جملة الآحاد . وقد يوجد بين الصبيان من هو أقدر على أعمال الرجال ، بل قد توجد في أثناء الليل ساعة أضوأ من بعض ساعات النهار ، وإنما تجرى الموازنة على الغايات القصوى ، وعلى الأغلب الأعم في جميع الأحوال ، وما عدا ذلك فهو الاستثناء الذي لا بد منه في كل تعميم ) . ص ١٨

لماذا إذن لم يأخذ بهذه القاعدة عند الحديث عن نبوغ العبيد من الرجال ؟ قاعدة الأغلب الأعم ؟  
حتى النكته يستكثر الأستاذ العقاد على المرأة النفاذ إليها ! (إنها قليلة الفطنة للنكته ، إلا في الندرة التي تحسب من الفلتات العارضة ) .  
حتى هذا !!

والنظافة ليست من خصائص الأنوثة إلا لاتصالها بالزينة ، وحب النظافة في أعين الجنس الآخر . ( ولو لم تكن النظافة « قيمة خلقية » مفروضة عليها بإشراف الرجل على حياتها العامة وحياتها الخاصة ، لكان استقلالها بنفسها وشيكاً أن يضعها موضع الإهمال والاستئثار ) .  
وردى أن بين الأرامل والجدات مولعات بالنظافة دائبات عليها ولا رجال هناك يشرفون على حياتهن العامة أو الخاصة .

ترى لماذا ربط الأستاذ العقاد المرأة في كل شيء ، حتى فيما يتعلق بالطبيعة الإنسانية المشتركة بين الرجال والنساء ، بالرجل كأنها كلبه الأمين ؟ حتى صفة ( الحياء ) عندها أو الاحتجاز الجنسي كما يسميه ،

بعده ( من الغريزة التي يتساوى فيها إناث الحيوان ، وليس من الإرادة التي يتميز بها نوع الإنسان بجنسيه ) .

وأقول الاحتجاز الجنسي لا يتساوى فيه الإناث سواء من الإنسان أو حتى الحيوان والدليل من القرآن نفسه . وهنا يكون الاحتجاز الجنسي عند من تتمسك به إرادة ، وقيمة أخلاقية . وهو حياء وليس مجرد اضطراب بدعى أنه ( الحكم القاهر الذى فرضته عليه وظائف الأعضاء ) .

حياء تفاضل فيه المرأة بين ما يحسن وما لا يحسن وبين ما يليق وما لا يليق وما هو أعلى وما هو أدنى وهو ( ضبط نفس وقدرة على الامتناع ) . وهو امتياز يحسب لصاحبه كما أقر الأستاذ العقاد نفسه بعد قليل فى حديثه عن الحواجز الجنسية ومنه ( الرجل الذى يقدر عليها هو رجل ممتاز فى خلقته الطبيعية كالمرأة التى تقدر عليها . وكلاهما زوج أصلح من غيره للبقاء وإنجاب الأبناء ) .

وليس بصحيح أن المرأة تستعصم بالاحتجاز الجنسي ( لأن الطبيعة جعلتها جائرة للسابق المفضل من الذكور ، فهى تنتظر حتى يسبقهم إليها من يستحقها فتلبيه تلبية يتساوى فيها الإكراه والاختيار ) .

إن تلبية المرأة حين تلبى يسبقها اختيار منها وإرادة ورغبة تفضيل وليست التلبية البلهاء أو العشواء .

وعنده أن المرأة متناقضة . ومع تسليمه بأن ( الشخصية الإنسانية ) فى حالى الذكورة والأنوثة عرضة لكثير من التناقض المحيرة للعقول : عقول الرجال وعقول النساء ولكنه يرى التناقض فى المرأة أغرب وأكثر !

وهو يعرف مقدماً رد المرأة فيجأهر به قبلها ولا يبالي فيورد أمثلة المرأة في هذا الباب من نحو تشبيهها الرجل بالبحر المالح وشهر أمشير . . . إلخ ، ويعلق على هذا في طرافة تبدد غضبنا نحن النساء أو الكاتبات على الأقل من قبيل الفن للفن : يعلق الأستاذ العقاد على الأمثلة النسائية :  
(وكم لمن من أمثال هذه الأمثال مما لا يحفل به الرجال) (١).

أكلت حواء من الشجرة وزينت لآدم أن يأكل مثلها .  
وقد لخص الأستاذ العقاد قصة الأثني في ( هذه الشجرة ) التي غدت عنواناً لأحد كتبه بعد أن رآها عنوان ما في المرأة من خضوع يؤدي إلى لذة العصيان ، ومن دلال يؤدي إلى لذة الممانعة ، ومن سوء ظن ، وعناد ضعف ، واستطلاع جهل ، ومن عجز عن المغالبة ، وعجز عن الغلبة بغير وسيلة التشبية والتعرض والإغراء) (٢) .

حتى حين يظن به أنه يقرها بتفضيل فإنما هو مدح معكوف أو ذم ملفوف ، فالحمل توضيحها الكبرى ( قد أتاح للمرأة مزية فطرية لا تتاح لزوجها على وجه اليقين ، وهي ضمان نسلها بغير دخل ولا ارتياب . فكل من ولدت المرأة فهو وليدها الذي يستحق عطفها وحنانها ، وليس ذلك شأن الآباء فيما ينسب إليهم من الأبناء) (٣) .

وتبلغ القسوة منها حين يقول (إن النساء يוכלن إلى الفطرة في

(١) هذه الشجرة ص ٩٧ .

(٢) " " ص ١٥ .

(٣) ( المرأة في القرآن الكريم ) ص ٤٤ .

أخلاق الفرائث والعادات ولكن لا يصح أن يتركن في الأخلاق الأخرى  
أخلاق الإرادة والضمير - بغير إحياء شديد ، بل إكراه يتجاوز حدود  
الإحياء ) .

وتضحيات الأمومة تتساوى فيها مع بعض إناث الحيوان وليست  
فضلا لها أو فضيلة !!

يخيل إلى أن الأستاذ العقاد كتب هذا الكتاب في فترة عداة كبير  
لامرأة من النساء .

إن من النساء من هن مثال الوفاء للإنسان والمكان والقيم والأوطان  
عن إرادة وضمير وبغير إحياء شديد أو ضعيف وبغير إكراه يتجاوز حدود  
الإحياء . والدليل إجلال المرأة لمكانته الفكرية والأدبية حتى بعد صدور  
هذا الكتاب ، والعدل في الغضب ، والانتصاف عند انتقاد الإنصاف ذروة  
من ذرى النفس والضمير . والكتاب لا يخلو مع هذا من بارقة إنصاف للمرأة  
في بعض القضايا كفضية الشهادة التي يحملها الناس معنى تفضيل الرجل على  
المراة وهي ليست كذلك . . فالمسألة ترجع إلى طبيعة المراة العاطفية . إن الدين  
الإسلامي إذ يشترط شهادة امرأتين حين يكتفى بشهادة رجل واحد فإنما  
كان ذلك كما يقول الأستاذ العقاد لأن ( النساء لا يملكن من عواطفهن  
ما يملكه الرجال ) . على أن القرآن الكريم طالب من مقتضيات الحيطة  
لحماية البرىء وإنصاف المظلوم أن يزداد عدد الشهود من الرجال .

وهنا يتسمح الأستاذ العقاد وتستحيل غضبته على المراة إلى رفع  
هادئ فيقول توضيحاً لهذا الموقف من مواقف الدين : ( ولقد يوجد من

النساء من تقوم شهادة إحداهن بشهادة ألف رجل ولقد يوجد من الرجال ألوف لا تقبل منهم شهادة ، ومع هذا من مصلحة المجتمع قياساً على الأعم الأغلب أن يحتاط في الشهادة على الوجه الذى رسمه الله ) .

وفى مسألة الميراث يرى مسوغ : ( زيادة حصة الأخ لا فى أفضلية له ولكن فى مسئوليته عن نفقة أخته ، وأن الابن يعول من لا عائل لها من أهله ، وأن رب البيت عامة هو الزوج أو الأب أو الرشيد من الأبناء والإخوة ومن إليهم ، وتقرير وجوب السعى على الرجل أولى وأصلح من تقريره على المرأة التى يظلمها من يساويها به فى واجبات السعى على المعاش ، مع نهوضها بواجب الأمومة والحضانة وتبدير المعيشة المنزلية ) .

لقد عانت المرأة من الجدل السياسى الذى عاشه العقاد قبل كتابه عن المرأة كما عانت من مزاياه : الإرادة الحديدية والفحولة .

ومع كل هذا فسواء أهاجم الأستاذ العقاد المرأة أم هادنها فقد دان لها وقبّل منها الوجه بل اليدين وجاش بالدمع وجاش بالشعور وما ارتوى على كثرة العب وطول الرشيف . إن شعره فى هذه الناحية ينكر نثره . . . . شعره الرقيق فى الغزل ، ينسخ عرام منطقته فى الجدل .

ومن شعره فى ( ليلة الوداع ) :

|   |  |
|---|--|
| وهيأت لا تَلْقَى مع الناراويا                 | وَأَلْتَمُهُ كَمَا أَبْرَدَ غُلَّتِي             |
| وَقَبَّلْتُ خَدَيْهِ وَمَا زِلْتُ صَادِيَا    | فَقَبَّلْتُ كَفِّهِ وَقَبَّلْتُ نَعْرَهُ         |
| فَنَشْتَدُّ مِنْ خَوْفِ الْفِرَاقِ تَدَانِيَا | كَأَنَّا نَذُودُ الْبَيْنَ بِالْقُرْبِ بَيْنَنَا |
| إِلَيْهِ فَأَمْسَى آخِرَ اللَّيْلِ شَادِيَا   | كَأَن فَوَادِي طَائِرٌ عَادَ إِلْفَهُ            |

إذا ما تضامنا لَيْسَكُنْ خُفَقَه  
تَنْزَى فِرْدَادُ الْخُفُوقُ تَوَالِيَا  
أَوْشَجْ فِي كَلْتَا يَدَيْهِ رَوَاجِي  
وَشَيْجاً يَظَلُّ الدَّهْرُ أَخْضَرَ نَامِيَا  
وَتَلْمَسُ كَفِّي شَعْرَهُ فَكَأَنِّي  
أَعَارِضُ سَكْسَالَا مِنَ الْمَاءِ صَافِيَا  
وَأَشْكُوهُ مَا يَجْنِي ، فَيَنْفِرُ غَاضِباً  
وَأَعْطِفُهُ نَحْوِي فَيَعْطِفُ رَاضِيَا  
وَمَا تَقْضَى اللَّيْلُ إِلَّا أَقْلَهُ  
وَحَانَ التَّنَائِي جَشْتُ بِالْذَّمِّ بِأَكْيَا<sup>(١)</sup>

جامعاً الفرد الممتاز يتخذ نفسه ظاهراً أو باطناً ، أراد أم لم يرد ، مقياساً  
للآخرين . وسيراً مع هذا المنطق ، فإن العقاد ما دام خلق رجلاً ، فالرجل  
إذن أحسن من المرأة بعامه . . . والعقاد بالذات أحسن ، بصفة خاصة من  
(سارة) التي عذبه . . . وكل سارة . . . أليس رقيقاً ناعماً ؟ يتحنن ويترضى  
ويقبل الخدين بل اليدين ؟ ماذا تريد المرأة من مظاهر الغلبة الآسرة أكثر  
من هذا ؟

ويزيد هذا قيمة أنه لا يفعله للتشبهى أو التلهى ، بل إنه يحب المرأة  
لذاتها . . لا للجمال .

تَبَيَّنِي ، فَلَسْتُ أَعْلَمُ مَاذَا  
كُلِّ حَسَنِ أَرَاكَ أَكْبَرَ مِنْهُ  
لَسْتُ أَهْوَاكَ لِلْجَمَالِ وَإِنْ كَا  
لَسْتُ أَهْوَاكَ لِلدَّلَالِ وَإِنْ كَا  
لَسْتُ أَهْوَاكَ لِلْخَصَالِ وَإِنْ ر  
لَسْتُ أَهْوَاكَ لِلرَّشَاقَةِ وَالرِّقَّةِ

مَنْكَ قَلْبِي بِحُسْنِهِ مَشْغُوفُ  
إِنْ مَعْنَاكَ تَالِدُ وَطَرِيفُ  
نَ ذَكَاءٌ يُدْكِ النُّهْيَ وَيَشُوفُ  
نَ ظَرِيفاً يَصْبُو إِلَيْهِ الظَّرِيفُ  
فَ عَلَيْنَا مِنْهُ ظِلُّ وَرِيفُ  
ةِ وَالْأَنْسُ وَهُوَ شَتَّى صَنُوفُ



أنا أهواك (أنت) أنت فلا شـ  
 إن حباً يا قلب ليس بمنسـ  
 ىء سوى (أنت) بالفؤاد يُطيفُ  
 يك جمال الجمعيل حبٌ ضعيف<sup>(١)</sup>

بل إنه نزه المرأة عن شهوة الجسد وثار عليها حين تردت :

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى  
 وألقاك جسماً مُستباحاً وطالما  
 وأرتادُ فيك اللّهُو بعد التّعبـ  
 لقيتُك جَمّ الخوفِ جَمّ التّردـ  
 رويدك إني لا أراكِ مليثـ  
 بلذّة جُمان ولا طيبِ مشهـ  
 جمالُك سُم في الضّلع وعثـ  
 تردُّ مهاد الصّفر غير مُمهـ  
 إذا لم يكن بُدُّ من الحانِ والطلـ  
 ففى غير بيت كان بالأمس مسجدي<sup>(٢)</sup>

طراز آخر من الرجال . . فيه نصاعة القمم . . .

مرة أخرى أعود إلى رقيق غزله بعد التجنى نجنى صاحب (كأس على  
 ذكرى) . . . نجنى القائل :

صوتُ النّذير الذى أبقاكِ خائفةً  
 أو البشير الذى يدعوكِ ثانيـ  
 على ذراعى قُولي كيف أخشاه ؟  
 إلى الطريقِ لعمري كيف أَرْضاه  
 الحبُّ والحربُ وويلًا قد اجتمعا  
 فى القلبِ فانقلبَتْ أحوالُ دنياه !  
 وله فى الصّدار المشهور :

هنا مكانُ صِدارك  
 والقلبُ فيه أسيرُ  
 هنا هنا فى جِوارِك  
 مطوّقٌ بحصارِك

❦ ❦ ❦

(١) أشجان الليل ص ٣١٦ .

(٢) أشجان الليل ص ٣٣٢ .

نسجته يديك على هدى ناظرينك  
إذا احتواني فإني ما زلت في أصبعيك<sup>(١)</sup>

العلاق يتظامن ولكن للحبيب ! فحسب . . .

هو يتنقص المرأة أو على الأقل يراها دون الرجل ولكنه يضعف أمامها  
حتى ليصرح مرة أنه بين أصبعها وتارة لدى قدمها !! هذه أبياته :

أبيات العلق الذي ما دان حتى للطنغة يلقي سلاحه ويقول :

أريد التي ألقى سلاحي وجنتي إليها وألقاها بين البأس أعزلاً  
وأطرح أعباء الجهاد وهمه لدى قدمها مغمض العين مرسلاً  
وانت إذا أقبلت أقبلت جحفاً وجدت أسيفاً وشيئت معقلاً  
فإن تهزمني فاهزمي عن بصيرة مريداً لأسباب الهزيمة مقبلاً<sup>(٢)</sup>  
ويقول :

أهجوك يا أكرم من أمدح ومن بإطرائي لها أصدح  
أهجوك والتسبيح أحرى بما أجده فيه اليوم أو أمزح  
قاسية أنت ولكنني أقبل الكف التي تجرح  
وأعظم القسوة تلك التي يلهو بها المجروح، بل يفرح<sup>(٣)</sup>

وفي ( أعاصير مغرب ) قصيدة بعنوان ( هذا هو الحب ) .

بلا نواح أو جراح أو سهاد أو دموع أو خضوع ذليل ، عرف العقاد  
الحب : شفافية ، وفهم ، وغفران ، وإعذار ، وبهر ، وإحجام ، وإقدام ،

(١) أعاصير مغرب ص ٣٥ .

(٢) أشجان الليل ص ٢٩٩ .

(٣) ص ٣٠٢ .

١٢١

وسكر بغير خمر ، وخمر بلا دنان ، وعمران وعهدان ، وارتفاع فوق الذرى ،  
وهبوط تحت الثرى ، وإيثار للذة ، وآلام ثرى آثراً . . . جنة ونار ورى  
وسعار ، وفيض من الوحي والشعر ، وفيض من النظم والقصيد :

مسألة أسهلها صعب

لا الناس تدرىها ولا الكتب

حسبك منها ، لو شئت حسب

إشارة دق لها القلب

المرأة فى شعر العقاد هى الدنيا :

|                                |                               |
|--------------------------------|-------------------------------|
| أنتِ هى الدنيا ، فهل من مزيد ؟ | ماذا من الدنيا - لعمري ، أريد |
| وأنجم زهر وأفق بعيد            | فيك لنا نور ونار معاً         |
| وجوهر حر ودر نقييد             | وفيك روض مسفر عاطر            |
| بنشوة منك متاع زهيد            | ونشوة الخمر إذا قوبلت         |
| بحوالك لغو باطل لا يقيد        | والفن إن لم تك نجواه من       |
| لها نظير فيك حى جديد           | وكل ما فى الكون من روعة       |

أشجان الليل

وكانه بعد الكفين والقدمين تذكر شموخه وصفات العلم فيه والدكاء ،  
أولعله تذكر كتابه ( هذه الشجرة ) ، أو كتابه الأشد فسوة ( المرأة فى القرآن  
الكريم ) ، فبر جنوح قلبه بقوله إن ثروته من الوفرة بحيث لا يضيرها  
تبديد درهمين !!

أكذبنى مرة أو فأكذبنى مرتين

ألف ألف من أعاجيب  
لن تبيد الفارق الخا  
والسماوات التي بيـ  
بك في غشٍ ومين  
لدا يا قرة عيني  
نك في اللب وبيني

\* \* \*

أكديني واكديني  
ما غناء اللب عندي  
أنا في ثروة وفـ  
أنقصيها . أي ضير ؟  
كلما شئت اكديني  
ان أبي أن تخذعيني  
منه مهما تسليني  
درهماً أو درهماً !

تبرير على أي حال .

\* \* \*

وحين قرأت كتابه ( في بيتي ) اشتبهت أن يفتقد المرأة في هذا البيت  
ولكنه لم يفعل ! حين تحدث حديثاً طويلاً عن كتبه . . عن النور . . .  
عن . . . ولكن شعره وشي به في نفثة من نفثات النفس :

ظمان ظمان لا صوب الغمام ولا  
حيران حيران لا نجم السماء ولا  
يقظان يقظان لا طيب الرقاد يدا  
غصان غصان لا الأوجاع تبليني  
أسوان أسوان لا طب الأساة ولا  
سامان سامان لا صفو الحياة ولا  
أصاحب الدهر لا قلب فيسعدني  
عذب المدام ولا الأنداء ترويني  
معالم الأرض في الغماء تهديني  
يني ، ولا سمر السمار ، يلهيني  
ولا الكوارث والأشجان تبكييني  
سحر الرقاة من اللأواء ينشفييني  
عجائب القدر المكسبون تعنييني  
على الزمان ولا خل فيأسوني<sup>(١)</sup>

( ١ ) ومعج الظهيرة .

١٢٣

وإذا عرفنا أن العقاد أحب أكثر من مرة وظفر بالحب ، تبينا أن القلب الذى يعنيه هنا إنما هو القلب الباقى . . قلب الزوجة . ويؤكد هذا الأبوة الكامنة فى شعره والتي تظهر فى وصفه للطفولة ودلاء وصف والد متحن ( قصيدة بين محمد وعزوز ) . وصورته الطريقة التى رسمها لطفلة يداعبها :

|                    |                             |
|--------------------|-----------------------------|
| ما كان أملح طفلة   | من غير شئ تحجل              |
| ضاحكها فتمايلت     | وشعورها تبدل                |
| ورجوت منها قبلة    | فأبت كمن يتدل               |
| وتعبت وهى تصدني    | حيناً وحيناً تقبل           |
| فرفعت مرآة لها     | فتطلعت تتأمل                |
| قلت أنظري فى وجهها | أفانت أم هى أجمل            |
| قالت وفيها غصبة    | أنا بالملاح أمثل            |
| ومضت تقول إلى متى  | تنسى الجميل ويجهل           |
| وأقول أيكما إذن    | أدعو بها فأقبل              |
| عطف على وكل محبو   | ب يغار فيسهل <sup>(١)</sup> |

بقى سؤال يلوح فى خاطر . . ما رأى العقاد فى الجمال ؟  
والجمال فى المرأة هو « الحرية الموزونة » قياساً على قاعدته فى الجمال  
إنه الحرية .

وكانه يلح ( نفرتيتى ) . أو ( نفرتارى ) . . . جمال ( المصرية ) فى

( ١ ) بقطة الصباح .

العصور الأولى أيام كان ( المصريون في عظمتهم قبل آلاف السنين يستجملون من الأجسام كل حر رشيق ويجعلون الأمثلة العليا للجمال تلك الصور التي توشك أن تطير من الخفة كما نراها على بقايا الآثار ) .

الجمال المصرى القديم الذى ثاب إليه العالم كله بعد الحرب العالمية جمال النحافة والرشاقة والنسج الدقيق .

ويرى هذا الذوق في الجمال مقياساً على تقدم الأمة حين يدل الشحم واللحم على تأخرها وركودها ركود البطء والكسل حتى ترى ( الكثافة الواهنة ) كما يسمى الأستاذ العقاد ، البدانة ، مقياس الملاحظة ١ وجمل الحمل أو ( التختروان ) مثال الحسن المطلوب في النساء .

ومن طريف قوله في هذا : ( تعلو المرأة السمينه وتهبط في مشيتها وما تنتقل شبراً واحداً في أقل من خطوتين ، والمقرظون من حولها يهللون ويكبرون ويباركون الخلاق العظيم ويعوذون هذا الجرم الذى لا تمضى فيه السيوف . . من لحظات العيون ومن حسد الحاسدين ) .

وبمناسبة الجمال ، يقول الأستاذ العقاد إن أقبح رجل في عين المرأة أجمل من جميلات جنسها ، ويلج عليه هذا المعنى حتى على الشاطئ والفتنة من حوله يقضى تصول ويجول . وترى عينه إحدى العرائس تقبل صاحبها فينبعها أو يحسدها لست أدري :

|                      |                        |
|----------------------|------------------------|
| راحت إلى ترب تخاصرها | كلتاها في ضحوة العمر   |
| راحت تخاصرها وتلثمها | وتضمها حيناً إلى الصدر |

لا تلثمي فيها فما ظمئت يوماً لريقك والشمى ثغرى<sup>(١)</sup>  
وقد أوضح العقاد في (سارة) الصفات التي تعجبه في المرأة وإن  
كان فصل هذه الصفات على مقاسه هو إذ يقول :  
( هو قليل المرح فيروقه من المرأة أن تكون مرحة بغير تكلف ، ولا مبالغة ،  
ويسمى المرح الذي يزين المرأة ويشوق الرجل مرحاً « موقعاً » تشبيهاً بالغناء  
الذي ينطلق انطلاقاً وينبعث انبعاثاً ولكنه يقف حيناً يحسن به الوقوف .  
ويسكن حيناً يطلب منه السكون ، ويقف ويسكن على اقتضاب موحش  
وانقطاع ناشز ، ولكن على نغمة تفصل اللحن من اللحن أو على قافية  
تحتم البيت بعد البيت ، فهو الوقوف الذي يريح ويشوق ويزيد لذة الإيقاع  
وطرافة السماع .

وهو يحب من المرأة الزينة التي تغرى من يبصرها إغراء لا يخفى ،  
ولكنها لو أنكرته وزعمت أنها لم تتعمده ولم تفكر فيه لما استطاع أحد  
تكذيبها ببرهان .

وهو يحب المرأة التي تدرك الفكاهة ويكره التي تتخذ من فكاهتها  
صناعة أو معرضاً مفتوحاً في كل ساعة ، وأقرب دليل عنده على إتقان  
المزاجين هو دليل « نيتشه » الذي يقول إن الضحك من نكتة واحدة  
هو العنوان الواضح على تقارب الضاحكين في المزاج والتفكير ، وما انفصل  
اثنا بفاصل هو أبعد من ابتعادهما في تمييز النكات .

وهو يحب ربة البيت التي تكون أول خادمة فيه لأنها سيده الوحيدة ،

---

(١) يقطعة الصباح .

ويحترق المرأة التي تأنف من تلويث يديها في مطبخها كما يحترق الرجل الذي يأنف من تلويث يديه في حقله أو حديقة داره .

وهو يحب المرأة التي تستطيع أن تكون « إنساناً » في بعض الأوقات بمعزل عن الأنوثة والذكورة ، فلا تكون الأنوثة الحيوانية هي كل وظيفتها في الحياة (١) .

وقد ظفر العقاد في دنيا القلب بذلك النموذج الذي تخيله أوحدده ، ظفر به مفرقاً ومجمعاً . فكانت الحبيبة الأولى ( إنساناً ) وكان ( يحبها الحب الذي جعله ينتظر الرسالة أو حديث التليفون كما ينتظر العاشق موعد اللقاء ، وكان كثيراً ما يتراسل أو يتحدثان وكثيراً ما يتبادلان ويلتزمان الصمت الطويل إثارةً للثقة واجتناباً للقليل والقال ، وتهدة من جماع العاطفة إذا خافا عليها الانقطاع . . ولكنهما في جميع ذلك كانا أشبه بالشجرتين منهنما بالإنسانين ، يتلاقيان وكلاهما على جذوره ، ويتلامسان بأهداب الأغصان ، أو بنفحات النسيم العابر من هذه الأوراق إلى تلك الأوراق . وكان يغازلها فتومئ إليه بأصبعها كالمنذرة المتوعدة ، فإذا نظر إلى عينيها لم يدرأ تستريده أم تنهاه ، ولكنه يدرى أن الزيادة ترتفع بالنغمة إلى مقام التشويز . وكان يكتب إليها فيفيض ويسترسل ، ويذكر الشوق والوجد والأمل ، فإذا لقيها بعد ذلك لم يرفها ما ينم عن استياء ، ولم يسمع منها ما يدل على وصول الخطاب ، وإنما يسمع الجواب باللحن والإيماء دون الإعراب والإفصاح ) . ويبدو أنه جاراها في أسلوبها - وقد كانت صاحبة



أسلوب - فكنتى عنها باسم (هند) ولم يصرح باسمها المعروف الذى كان هو الآخر كناية عن الاسم الأصيل الثابت فى شهادة الميلاد .

وجهه الثانى أى «سارة» . لون آخر ولكنه يقابل النموذج الذى رسمه للمرأة المفضلة عنده فى مواضع شتى .

وصف العقاد سارة بأن (لونها كلون الشهد المصنى ، يأخذ من محاسن الألوان البيضاء والسمراء والحمراء والصفراء فى مسحة واحدة . وعيناها نجلاوان ، وطفوان ، تخفيان الأسرار ولا تخفيان النزعات ، فيها خطفة الصقر ودعة الحمامة ، وفمها فم الطفل الرضيع لولا ثانياً تخجل العقد النضيد فى تناسق وانتظام ، ولها ذقن كطرف الكمثرى الصغيرة ، واستدارة وجهه وبضاضة جسم لا تفرقان عن سمات الطفولة فى لمحة الناظر . وبين وجهها النضير وجسمها النضير جيداً كأنه الحلبة الفنية سبكت لتسجم بينهما وفقاً لتام الحسن من كليهما . . فليس هو جيداً كأى جيد . . ولكنه الجيد الذى يوائم بين ذلك الوجه وذلك القوام) (١).

ولقد كانت سارة وهند على مثالين من الأنوثة متناقضين تفرقت صفاتهما فى ذاتيهما واجتمعت الصفات والدوات عند العقاد حتى بعد أن غابت الغريمتان .

(كلتاها أثنى حقاً لا تخرج عن نطاق جنسها ، غير أنهما من التباين والتنافر بحيث لا تتمنى إحداها أن تحل محل الثانية ، وتوشك أن تزدها .

فإذا كانت سارة قد خلقت وثنية في ساحة الطبيعة فهند قد خلقت راهبة في دير ، من غير حاجة إلى دير .

تلك مشغولة بأن تحطم من القيود أكثر ما استطاعت ، وهذه مشغولة بأن تصوغ حولها أكثر ما استطاعت من قيود ، ثم توشىها بطلاء الذهب ، وترصعها بفرائد الجواهر .

الحزن الرفيع والألم العزيز شفاعاة عند هند مقبولة ، إذا لم تكن هي وحدها الشفاعاة المقبولة ، أما عند سارة فالشفاعة الأولى بل الشفاعاة العليا هي النعيم والسرور .

تلك يومها جمعة الآلام ، وهذه يومها شم النسيم .  
تلك تشكو ويخيل إليك أنها ذات أرب في بقاء الشرور تستديم بها معاذير الشكوى ، وهذه تشكو كما يبكي الطفل لينال نصيباً فوق نصيبه من الحلوى .

تلك مولعة بمداواة نقائصها لتبدو كما تتمنى أن تكون ، وهذه مولعة بكشف نقائصها لتمسح عنها وضر الخجل والمسبة وتعرضها في معرض الزينة والمباهاة .

تلك لها عدة المتانة والمجاملة ، وهذه لها عدة الرخاسة والبساطة .  
لو عملت تلك عمل الرجال لانتظمت في السلك السياسى ، ولو عملت هذه عمل الرجال لانتظمت نديماً في حاشية أمير مفرح .  
كلتاها جميلة ، ولكن الجمال في هند كالحصن الذى يحيط به الخندق ، أما الجمال في سارة فكالستان الذى يحيط به جدول من الماء



١٣٠

النمير ، هو جزء من البستان لا حاجز دون البستان ، وهو للعبور أكثر مما يكون للصد والنفور .

تلك ذات طموح وهم ، وهذه تحسب الواقع الذى يوائمها خيراً وأشهى من كل مطمع ومن كل همة .

تلك تعطيك خير ما أعطت على البعد والحيطة ، وهذه تعطيك خير ما أعطت على القرب والسرف .

كلاهما ذات ثقافة وألمعية ، لكن ثقافة هند إلى المعرفة ، وثقافة سارة إلى الفطرة .

يقول العقاد - الذى هو فى القصة . . . « همام » .

( ما زالت الصور النسائية تتوارى وتهافت فى بديهة همام حتى احتجبت كل صورة إلا هاتين الصورتين المتقابلتين إحداهما قائمة فى محراب ، والأخرى بائقة كالزهرة من زبد العباب .

وتعاقبت الأيام فأصبحت إحداهما صورة فنية نفيسة لا تقوم بمال ومثلت الأخرى كما كانت تمثالاً من لحم ودم <sup>(١)</sup> .

ولكن ذلك كتب قبل أن يلتقى العقاد بالفاتنة المصرية السمراء التى تركت له بدورها صورة مشهورة رسمها له أوطا الفنان صلاح طاهر .

\* \* \*

طويلة قصة العقاد مع المرأة ولعله لخصها فى هذه السطور :

( حواء أخرجت من جنة ، وبناتها كل يوم يُخرجن من جنات . .

(١) سارة ص ١٦٤ .

١٣١

فهل المرأة ضرة اللجنة تغار منها غيرة الضرائر؟ لا ندرى . . ولكنها هي المرأة أبداً لا تريد للرجل أن ينعم بغير نعيمها أو يسعد بغير سعادتها ، وليس يعينها أن تفرح معه كما يعينها أن تكون سبب فرحه وينبوع سعادته دون كل ينبوع . وربما أرضاها أن تكون سبب ألمه وألمها ، ولم يرضها أن تشاركه السعادة الوافية ، إن كان للسعادة سبب سواها (١).

والجملة الأخيرة تشي بمكانة المرأة عند العقاد أو نظرته إليها سواء رضى عنها أو رضى عليها .

إن المرأة في الحالين تريد أن تكون شغل الرجل الشاغل . . وقد كانت . . من واقع أدب العقاد . . لقد كتب العملاق عن المرأة ستة كتب :

الإنسان الثاني - سارة - هذه الشجرة - المرأة في القرآن الكريم - الصديقة بنت الصديق - فاطمة الزهراء .

وقد أشرت إلى الأربعة الأولى في ثنايا هذا الحديث والآن نقف وقفة عند كتابيه عن أم المؤمنين عائشة وأم الشهداء فاطمة الزهراء .

وأم بطل كربلاء لم يكتب لها العقاد ترجمة كما سبقت الإشارة لأنها بنت محمد أو يكتب لها ترجمة لأنها زوج على أو يكتب لها ترجمة لأنها أم الحسن والحسين وبنهما الشهداء ولكنها مع هذه الكرامة كتب لها ترجمة لأنها هي فاطمة ولأنها هي مصدر من مصادر القوة التاريخية التي تتابعت آثارها في دعوات الخلافة من صدر الإسلام إلى الزمن الأخير .

(١) سارة ص ١٤٦ .

وإلى فاطمة الزهراء نسب فضائل بنيتها وإن كانوا ورثوها عن علي كما ورثوها عنها ولكن الأستاذ العقاد رأى هذه الخصال ( إلى ميراثهم من الزهراء أقرب منها إلى ميراثهم من الإمام )<sup>(١)</sup> .  
وأوضح سمة في شخصيتها عنده ( الجلد ) وفي خلافتها منه مدد صالح ( للثبات على الحق الذي يعتقده صاحبه ، أو يذاد عنه فلا ينكص عنه على رغم )<sup>(٢)</sup> .

وهذا الثبات رسم مسيرة أبنائها على طريق التاريخ الإسلامي .  
فإذا كانت الزهراء قد غوضت وهي في الثلاثين أو قبل الثلاثين فمعنى هذا كما يقول الأستاذ العقاد أن هذا الجلد وهذا اليقين وهذه العزة وهذه الإرادة ظهرت منها وهي في تلك السن الباكرة فذاك عنده ( دليل على قوة كامنة يرجع إليها حين يفسر المفسرون خلافتي بنيتها وما عساهم قد استمدوه من هذا الميراث المكين )<sup>(٣)</sup> .  
وهذا الإقرار من الأستاذ العقاد في دلالة العامة كسب للمرأة قبل أن يكون كسبا للسيدة البتول .  
أما السيدة عائشة فقد ترجم لها مثلاً من أمثلة الأنوثة الخالدة في جميع أقوامها وجميع عصورها .

\* \* \*

فالأستاذ العقاد لم يستطع أن يغفل المرأة أو يغفل عنها وكيف وقد بلغ

( ٢ ) ص ٧١

( ١ ) ص ٧٢ كتاب فاطمة الزهراء .

( ٣ ) ص ٧٣ .

١٣٣

من قوة أثرها فيه أو عليه أنه جفا من جفوتها طريقاً كان رقيقاً إذ شهد وسمع  
السر والنجوى ( فأصبح بعد الخصام كل خطوة فيه كأنما تثقل النفس  
بآكام فوق آكام من الذكريات والآلام . وكانت كل زاوية من الزوايا  
كأنما تخفى فيها رصيذاً من الشياطين الثائرة والعقبان الكاسرة وكان اجتتاب  
تلك الطريق أسلم الأمور وأهون المخدورات ) (١)

ليس للمرأة أن تنغضب من العقاد فقد أغضبته هي الأخرى ،  
ثم نسي غضبته ونسيت ولم يبق إلا إكبارها له وإكبارها لوقفته المبكورة معها  
سنة ١٩١٢ حين نادى بتعليم المرأة تعليماً عاماً لا تعليماً نسوياً مصعداً  
بها إلى الأفق الأعلى من الثقافة الإنسانية الرحبية .

---

(١) سارة ص ١٠ .





## الفصل الخامس

### الإنسان في شعر العقاد

كان العقاد إنساناً حين اختار شخصياته التي كتب عنها وحين اتجه هذا الأسلوب في الكتابة والتفسير . والعقاد حين أعلى من كرامة الإنسان كانت هذه عنده رسالة التزامها في كل ما خطت يده نثراً أو شعراً . ونستطيع أن نرى قيمة هذا إذا عرفنا أنه نشأ في أواخر القرن التاسع عشر وبلغ مبلغ الرجال في الثلاثينات من القرن العشرين . أى عندما كان الشاعر نديماً لكبير أو سميراً في مجلس ، أو بوقاً للملك أو ظلاً لآخرين تحت مختلف الأسماء . أيام كان الشعر مدحاً والشاعر مداحاً على طريق وطريقة الشعر العربي القديم وهو ما ندد به الجاحظ في بيانه هاجمه العقاد والمازني وشكري ، أعمدة مدرسة الديوان ، هجوماً عنيفاً في مطلع الحياة الأدبية . متصمرين لكرامة الإنسان ثائرين على هوان الشاعر في القصيد الكاذب والنظم الأجوف . وقد تركت هذه المدرسة بصماتها على الحياة الأدبية . وليس معنى هذا أن العقاد لم يمدح قط ففي ديوانه ( أعاصير مغرب ) قسم خاص بالمذائح والمراثي ، ولكنه إذا استثنينا مدحته في ( فاروق ) فإن مدحه الآخر قبل في أناس كانوا يحترمونه بقدر احترامه لهم ، بل كانوا يعرفون لقلمه سطوته . ألم يدعه سعد ( الكاتب الجبار ) ؟ وقد مدح العقاد

١٣٦

سعداً الذى أكبره ، عندما كان الوفد يمثل الشعب . وفى قصيدته ( يوم المعاد ) ينبج كل شيء من مصر والشعب .

ورثا العقاد ، سعداً ، بقصائد تهى تنتظم ما يقرب من مائتى بيت ( ١٨٧ بيتاً ) فى ديوانه ( أشجان الليل ) فيها صدق اللوعة وزفرة الأسى . ومدح العقاد إعجاب رزين فلم يكسف الشمس لأحد ولم يحشد له ألوان صيغة ( أفعل ) .

على أن مدحه ( لفاروق ) إنما كان فى مطلع عهده عام ١٩٣٨ أيام كان مرجى ( فى طالع الأيام مرتقب ولم يكن قومنا يختلف منهم اثنان على حب فاروق فى ذلك الوقت . وكان حبنا له أمل ورجاء وعطف على صباه الأعزل وهو الملك ! فنحن شعب عاطفى كنا نراه يتجأ والعرش تحته . ومع هذا فقد ذكره العقاد فى مدحته ( بالشورى ) .

وقصيدة فاروق لا تخلو من طرافة . فيحكى الأستاذ العوضى الوكيل فى كتابه ( العقاد والتجديد فى الشعر ) أن الأستاذ العقاد وقف يلتقى القصيدة وعندما بلغ البيت الثامن قال فاروق لمن حوله ( لقد كان والدى أحق بهذا ) وسمعها العقاد فطوى الورقة وجلس ولم يكمل القصيدة ، وكانت أزمة كبرى ، استمرت ثلاثة أيام وانتهت بأنه - ترضية للعقاد واعتذاراً له - يدعوه الملك إلى حفل شاي بيخته الراسى أمام مرسى مطروح ، ويقول العقاد ( إن القدر لم يشأ أن تتم حفلة الشاي فثار البحر ومنع الوصول إلى اليخت . . . وعاد العقاد إلى الإسكندرية ) .

\* \* \*

١٣٧

إن المسألة ليست المدح في ذاته وعلى إطلاقه فقد مدح العقاد ورثا  
كلبه (بيجو) شعراً وثرأء، إنما ملاك الأمر شخصية الشاعر وإحساسنا بذاتيته  
الإنسانية أى إحساسنا بذاتنا من خلاله ولا عليه بعد هذا أن يقول ما يريد  
وفى أى إطار يشاء .

ومثل هذا رثاؤه . فقد رثا السلطان حسين والرثاء فى رأى مدح للميت  
وما خرج عن مألوف قاعدته لأن السلطان حسين كان عهده قصيراً خفيفاً  
يحتمل :

مرت ثلاث سنه وهى كأنها      صبح غداة أمس حل ظلامه  
مرت مخففة الصروف سريعة      وكذا الرخاء سريعة أيامه  
ولكنه فى جملة رثاء من قبيل ( اذكروا محاسن موتاكم ) ليست فيه  
الفجیعة أوحى الحزن . ولكنه حين رثا نبى الوطنية المصرية « محمد فريد » ،  
تفطر أسى :

|                                |                                 |
|--------------------------------|---------------------------------|
| أطلقتُ وُجداني ومثلك بطلقُ     | فالنفس تألم والجوانحُ تحنقُ     |
| مرت بي الأيام أنكر كلما        | يبدى الخيالُ وما يُعيدُ المنطقُ |
| أجفوا الكلام ، وقد يُغوثُ مكتو | ناجٍ ويسكتُ فى اللَّظى من يحنقُ |
| أسنى عليك وقد تقسمك الضنى      | والشوقُ والألم الملعُ المصعقُ   |
| فى عالم يسعُ المدائنَ والقرى   | فإذا طلبتُ الحقَّ فهو المأزقُ   |
| وغدوتُ كالشبحِ المردّدِ كلما   | دجّتِ الحوادثُ يستثارُ فيطرُقُ  |
| مُثلتُ لعينى صورتاك فرأيتنى    | نظرى ولكن الفجائعَ تصدقُ        |
| أكذا تحور النفس فى أجسادها     | أكذا يحول الرونق المتألقُ       |

في هذه سَمَتِ الحياة ، وهذه  
وهنا الطَّمَاحُ المَشْرَبُ ، وها هنا  
شكلاَن ما اختلف اختلفا فهُما على  
حالت مجالى البَشَرِ وانطفا السَّيِّ  
في خمسةِ الأعوامِ بُدِّلَ كُلُّهُ  
وتساءل الأجابُ كيف تروَنه  
وأني النعى فُقَال كُلُّ مَرَوِّعٍ  
ما مات قَبْلَكَ يا فَرِيدُ مجاهد

لم يرث العقاد أحداً من الحاكمين كما رثا رجال مصر ، لم يمدح  
أحداً من الحاكمين كما مدح « رمسيس » في اعتزاز الحى بنفسه ،  
والمصرى بأمسه ، والوطنى بكرايم تاريخه وآيات مجده .

لجلال وجهك يا ابن ( سبى ) هبّة  
لما وقفتُ لديك زالت أعصرُ  
وتقشّعتُ عني الدهورُ فما هنا  
فخر الملوك رجاء عفوك عنهم  
والأمرُ أمرك ما قضيتُ فنا فلدُ  
والنيلُ يجرى حيثُ سار عليه من  
وكان طيبةً والهيّاكلُ حولها  
يشدو بذكرك شَيْخُهَا ورَضِيعُهَا  
في كل يومٍ يستطيرُ جناحُهم

تَعْنُوها الآماذُ فهى هَبَاءُ  
بينى وبينك وانطوت آباءُ  
تلك الديار وها هنا القُدَماءُ  
ورضاك أكبرُ ما ابتغى الأمراءُ  
فيهم وما لم تقضِ فهو هَبَاءُ  
أجنادٍ عصركَ عصبهُ زهراءُ  
ملءُ الفضاءِ أو اهلُ شَمَاءُ  
وبحبك السادات والوضّحاءُ  
نصرُ يزف ومنحة غرّاءُ

لسمعت (بتاء زور) يُشَدُّ شعره  
ورأيتُ قصرَك في المدائن يَحْتَمِي  
والقوم حولك خاشعون كأنهم  
تَلَقَّى الوفود العائدين وكلُّهم  
ثم انتهت كأنما هي في الكرى  
فبكيتُ مصرَ وهل يفيدُ إذا جرى  
وهي طبقة من المدح لم يبلغها في شعره حاكم في عصره ، وهو دليل  
صدقه النفسي والفني. ومصر الفرعونية لم تبرح منه الفكر والقلب حتى  
في أطلال يعلبك التي خاطبها بقوله :

آتاك من الوادي الذي في ضفافه      تسمى (لآمون) البناء المدعم  
يُحييك عن (آمون) في مستقره      وأنت المحيي باسمه والمسلم  
على أن العقاد في كتابه (شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي)  
قال كلمته في المدح ومقياسه والذي يعتقده (إن شعر المديح من أفضل  
المقاييس لقياس حال الأمة والشاعر والأديب في وقت واحد . فيخطيء  
من يظن أن الأمم المترقية لا تمدح أولاً تقبل المدح من شعرائها . إن المديح  
جائز في كل أمة ومن كل شاعر ، فلا ضير على أعظم الشعراء أن يصوغ  
القصيد في مدح عظيم يعجب به ويؤمن بمناقبه ، ولا ضير على الأدب  
أن يشتمل على باب المديح بين أبوابه الكثيرة التي يعرفها الغربيون أو  
الشرقيون . وإنما الخلاف في نوع المديح لا في موضوعه على إطلاقه

فمديح الأمم المتعلمة غير مديح الأمم الجاهلة ، والشاعر الذى يملك أمره يتبع فى مدحه أسلوباً غير الذى يتبعه شاعر مغلوب على أمره ، ومكانة الأديب فى الأمة تظهر أتم الظهور من أساليب الشعراء فى هاتين الحالتين ، فلن يقال إن للأديب مكاناً فى الأمة والشاعر مضطر فيها إلى إذلال عقله وتسخير كرامته فى مديح لا تسيغه العقول ولا يليق بالرجل الحر المريد لما يقول ، ولن يقال إن الأمة متعلمة والمبالغات الشعرية فيها تؤخذ مأخذ الجد والوقار ، وهى أقرب إلى المزل والهجاء المستور ، أو لن يقال إن الأمة حرة تشعر بوجودها وأنت تقرأ مدائح شعرائها فلا ترى فيها ذكراً لغير الرؤساء ، ولا ترى فى الصفات التى يمدحون بها صفة ترجع إلى الأمة وتعتمد على تقديرها أو تستفاد من خدمتها والعمل بمشيئتها (١) .

وشعر العقاد فيه إنسانية حتى فى وصف الأشياء فنور المنار (أرق يقلب مقلتي ولهان ) ووميضه على البحر أفكار وأشجان وهو (كالبيت يجمع بعد شتيت النوى : شمل الأحبة فيه والإخوان ) .

وهو إنسان حين يودع شعره التجارب الإنسانية وآلام الإنسان تحت وطأة كل الظروف ، وآماله وغروره وأوهامه ومطامعه .

فقصيدة الشاعر الأعمى فيها عذاب إنسان محروم من النور الذى يجود به الأفق لعين الذئب فلا يرى جمال العيون فى المها ولكنه يرى لحمها والشحم ، ولا يرى در الجيد فى الفيد كالجوهر ولكنه يرى الدم عالقاً بالمخالب . ويلمح قلبه البشر عميقة القرار لا حاجة بها إلى النور الذى تهدره

١٤١

الشمس فيها أو تريقه فوق الرمال . وتبلغ المأساة قممها في هذا البيت  
ينفته الشاعر الحزين :

وهل كنتُ أخشى الموتَ إلا لأنه سيحجبُ عني حسن تلك المناظر (١)  
إنسان وهو يعيش تجربة العقاب الهرم الذي بهم ويعيه النهوض  
فيجثم في عجز يعمق خطوطه ترنيق الصرصور وصياح القطا . لكأنه طريد  
السما كما طرد إبليس من الجنة .

إغفائه فرعة خائف ، وغمضته حلم ماض ذهبي ولي ولن يعود . وتأني  
اللغة الإنسانية الكبيرة في هذا البيت :

لعينك يا شيخ الطيور مهابةً يفر بها الطير عنها ويهزم  
مع كل هذا العجز والضعف يشفع الماضي القوي الجسور . إذن لن  
تذهب سابقات الأعمال وإن أتت من طائر . لكل كائن ما قدم بين يديه .

\* \* \*

وهو يالُم للضعف الإنساني الذي يغافل الضمير الحي فينسى العهد  
ويجحد الجميل . وتعمق خطوط الصورة في مقطوعته ( خمارويه وحارسة ) -  
مشيراً إلى قصة الأسد الذي كان يحرس خمارويه - بالمقارنة بين الأسد  
والإنسان :

|                          |                           |
|--------------------------|---------------------------|
| أليس من العجائب أن ليثاً | يَلدود رعيةً عمن رعاها ؟  |
| وأن يحمي ابن آدم من أخيه | سباعٌ جلّ أن يدعى أخاها   |
| وثقتُ بذي حفاظٍ ليس يرثي | ولا ينسى الحقوق لمن جابها |

(١) بقطة الصباح .

وهم قبلوك حين وثقت منهم  
ولو شهد اغتيالكم في دمشق  
تجربة لعلها واحدة من تجارب كثيرة جعلته يتساءل في الديوان نفسه :  
أين الحقيقة ؟ ولم ينتظر الجواب بل أودعه في هذه الآيات :

|                       |                      |
|-----------------------|----------------------|
| أين الحقيقة ؟ لا حقيـ | سقة كل ما زعموا كلام |
| الناس عرقى في الهوى   | لم ينبج غر أو إمام   |
| إن الحقيقة غادة       | كالغدير يضمها اللثام |
| كل يهيم بها فإن       | لاحت لهم صدوا وهاموا |
| كم أشرف الحق الصر     | اح فأعرضت عنه الأنام |
| والناس لو تدرى خفا    | فيس يطيب لها الظلام  |
| لا حق إلا أنه         | لا حق في الدنيا يرام |

شعره فيه أبعاد وأعماق :

وهو لا يعنى نفسه من التأمل والتعمق حتى في حضرة الجمال الذي  
( يقف عليه تحيته وحياته ) فما يلبث أن يخاطبه :

|                           |                             |
|---------------------------|-----------------------------|
| أوتيت من حسن الشائل نعمة  | والحسن في الدنيا من الآفات  |
| هو جوهر ينجني عليك وميضه  | عدوان سراق وحقد عفاة        |
| والحسن يعشقه الكريم وربما | أضرى لئيم النفس بالزعات     |
| كالبدل ياتم السراة بنوره  | ولقد يضيء مواقع الشبهات (٢) |

( ١ ) بقطة الصباح .

( ٢ ) بقطة الصباح ص ٣٢ .



وكأنه يحس غرابه عظته للجمال فيقول معللاً :

إني ليؤلمني الجمالُ إذا هَوَى      فارتدَّ بين أبالسٍ وغـُـوَاةٍ  
أقسى القلوبِ تلينُ إن هي أبصرتُ      ورقاءَ نهبٍ قشاعِمٍ وِـزَاةٍ  
وناقشَ العقادَ الشاعرَ الخلودَ في الآخرةِ في قصيدته الكبرى (ترجمة  
شيطان) وطاف بما يدور في أخلاص المنكرين من معانٍ . . معاني الشك  
والياس والحيرة والضلال أيضاً . . واتبى منها بأن الراشد سيمضي والغوى  
سيزول ويبقى الفن وحده (يستوى العقول) .

الفن أبقي من القوة . . . فالكروان :

ما ضر من غنى بمثل غناؤه      أن ليس يبطش بطشة العقبان  
الفن يحيى الميت ويرد الروح :

إذا شِعْوَني يَوْمَ تُقْضَى مِنِّي      وقالوا أراح الله ذاك المُعْذِبَا  
فـسـلا تحمِلُونِي صامتينَ إلى التُّرى      فأني أخافُ اللّحدَ أن يتهبَا  
وغُـنُّوا فإن الموتَ كأسٌ شهيَّةٌ      وما زال يحلو أن يُقْنَى ويشربَا  
وما العيشُ إلا المهدُ مهد بنى الرَّدَى      فلا تحزُّنوا فيه الوليدَ المغيَّبا  
ولا تذكروني بالبكاء وإنما      أعيِدُوا على سَمْعِي القصيدة فأطربا  
يقظة الصباح

وبمناسبة الخلود نذكر سخريته ممن يعنون أنفسهم بنقد العصاة  
والكفار . . . وما فطنوا أنهم (بكفرهم) يريحونهم من المنافسة في الجنة  
ومزاحمتهم فيها :

نَقِمُوا عَلَى الْكُفَّارِ أَنْ تَرَكُوا لَهُمْ      أَجَرَ السَّمَاءِ وَأَنْكَرُوا مَا أَنْكَرُوا

لو كان ما وعِدُوا من الجنّاتِ في هذى الحِياةِ لسرهم من يكفُر  
كما سخر من المقادير التي ترزق الغنى بغير حساب ، الفصاحة والحب  
والغفران والسيادة وخدمة الناس .

وسخر من تقوى المشيب :

أبعد الشيب ترغبُ في الصلاح وتزهّد في المدامة والملاح  
قرعت من الحِياة فأنت ترجو حياة في الفرائس الفساح  
رجعت عن الحرام فأنت عندى عجزت عن المحرم والمباح  
فما تقوى الشيوخ سوى اضطرارٍ كتقوى اللص بات بلا سلاح  
يقظة الصباح

وأجرى العقاد في ديوانه ( وهج الظهيرة ) حواراً طريفاً بين المعري وابنه  
بالغيّب نابعاً من بيت أبي العلاء :

وإذا أردتُم بالبنين كرامةً فالحزم أجمع تركهم في الأظهر  
يا أبي طال في الظلام قعودى فمتى أنت مخرجى للوجود ؟  
طال شوقى إليك فاحلل قيودى

يا أبي عالم الظلام مخيفٌ ليس يقوى عليه طفلٌ ضعيفٌ  
فأجزني من ظلّه المسدود

ما الوجوه الحسان ؟ ما التوارى ما الدرارى ؟ ما الفلا ؟ ما البحار ؟  
إن دأب الوليد حبُّ الجديد

لى جدودٌ وليس لى أبوان ولئن شئتُ آن فيكم أواني  
وتملئتُ قسمتى فى الوجود

١٤٥

ولكن أباه . . . أو أبا العلاء يقنعه بآرائه المعروفة . واقتنع الصغير  
واكتفى بالانتظار حتى التقيا في اللحد .

وفي شعره عنصر الفكاهة . والفكاهة من أخص خصائص الإنسانية  
حتى ليعرف البعض الإنسان بأنه حيوان ضاحك .

أفضى إليه صديق بأن كلبته ولدت فقال يبارك للنفساء ويحيى المولود :  
أُعْلِنِي (يا فلورة) الأفراحا واملئي الأرض والسماء نباحا  
ما حَبَى الدهرُ بنتَ كلبٍ بأعلى من ذرارئك عنصراً ولقاحا  
أُبشِّرِي دولةَ الكلابِ بِجُورٍ سوف ينبي عن جيله الأتراحا  
ما تَقْضَى الأسبوعُ إلا تَمْشَى يذرع الدار جيئةً ورواحا  
ويرمز ويسخر سخرية ملفوفة :

سوف يُدْعَى على الكلاب أميراً يُفَزِع الأسدَ وثبَةً وصياحا  
يلبَسُ الطوقَ من نُضارٍ وُدُرٍ ويحولُ الخَزَّ الثمينَ وشاحا  
ويعود إلى مدح وليد (فلوره) وهو المترفِع عن المدح حفاظاً على كرامته :  
ما مدحتُ الأنعامَ يوماً وإني لستُ آلوك يا كُليبُ امتداحا  
أعجَمَ الناسُ في السُوداد ومازا ل بنو الكلب في الوداد فصاحا  
إن عَيَّ اللسانُ خيرٌ من النُطِ حتى إذا كان للأذاقِ سلاحا  
سُعَارُ الكلابِ أهونُ شراً من سُعَارِ يَمْزُقُ الأرواحا  
يقظة الصباح

وحديثه عن وفاء الكلاب يذكرنا بحزنه على كلبه (بيجو) الذي بلغ  
فيه أعلى درجات الإنسانية حين يسمع عطفها كل شيء وتتجاوب مع الحيوان

وتتحد بالطبيعة :

حزناً عليه كلما لاح لي  
بالليل في ناحية المنزل  
مُسَامِرِي حِيناً وَمُسْتَقْبِلِي  
وَسَابِقِي حِيناً إِلَى مَدْنِي  
كَأَنَّهُ يَعْلَمُ وَقْتَ الرَّجُوعِ

\* \* \*

حزني عليه كلما عَزَّي  
صَدَقُ ذِي الْأَبَابِ وَالْأَلْسُنِ  
وَكَلِمَا فَرَجَتْ فِي مَآمِنِي  
وَكَلِمَا اطمأننتُ في سَكْنِي  
مُسْتَغْنِيًا . أَوْ غَانِيًا بِالْقَنُوعِ

\* \* \*

أَبْكِيكَ . أَبْكِيكَ وَقَلَّ الْجَزَاءُ  
يَا وَاهِبَ الْوَدِّ بِمَحْضِ السَّخَاءِ  
يَكْذِبُ مَنْ قَالَ طَعَامٌ وَمَاءُ  
لَوْ صَحَّ هَذَا مَا مَحْضَتُ الْوَفَاءُ  
لِغَائِبِ عَنْكَ وَطْفَلِي رَضِيعِ (١)

---

(١) أعاصير مغرب .

١٤٧

ومن الفكاهة صورة غير عابرة رسمها لعسكري المرور في ديوانه ( عابر

سيل ) :

|                        |                      |
|------------------------|----------------------|
| متحكِّم في الراكبين    | وما له أبداً ركوبه   |
| لهم المثوبة من بنا     | نك حين تأمر والعقوبه |
| مُرماً بدالك في الطريق | ورُض على مهل شعوبه   |
| أنا نائر أبداً وما     | في ثورتي أبداً صعوبه |
| أنا راكبٌ رجلى فلا     | أمر على ولا ضريبه    |

\* \* \*

وكذلك راكب رأسه في هذه الدنيا العجيبة

\* \* \*

حتى في الفكاهة لا ينسى ( الحرية ) أو النفرة من الأوامر والنواهي .

ومن مداعباته الفكاهة لأصدقائه ، قصيدته عن كلب الشاعر طاهر الجبلأوى :

|                    |                        |
|--------------------|------------------------|
| حزناً على كلب طاهر | فإنه طاهر الكلاب       |
| تشابها في خليقة    | واتفقا ، شيمة الصّحاب  |
| وربما عي طاهر      | وكلبه حاضر الجواب      |
| فليس يوفيه حقّه    | من اكتساب أو انتحاب    |
| إلا إذا بات نائحاً | نبح المساعير في الخراب |
| وعو ، عوو وبلا وثي | ولا انقطاع ولا اقتضاب  |
| لا تسألوا رحمة له  | قد رحم الله واستجاب    |

لعلّه مات قانِطاً      من (أزمة) الأكل والشراب  
أراحه الله من ضيق      أنقذه القبر من عذاب

وشاعر آخر . . . كان العقاد يوفد عنه الشاعر العوضى الوكيل في  
المآذب . فكتب مرة إلى الأستاذ إبراهيم الدسوقي أباطلة باشا يؤكد (توكيله)  
للعوضى الوكيل في (التأكيل) .

يا مُطعمَ الأدباء من      خير الدُّبائح والبُقُول  
ما طاب من ضأنٍ ومن      طيرٍ ، ومن عدس وفول  
«عوضى الوكيل» إذا دعو      ثم دعوة عوضى الوكيل  
عوض إذا ما شتم      عني وأكال أكيل  
بين المؤكل والمؤكِّـ      ل ، فاز بالغم الأصيل

أنا هنا لا أتكلّم عن شعر العقاد من الناحية الفنية فإنما يعنينا هنا الناحية  
الإنسانية وحدها لارتباطها بموضوعي وتعميقها له . وإلا دخلت في مناقشة  
(ديوانية) عن الشكل ، (القافية) حين عنيت بالموضوع ، ومناقشة  
لغوية عن اللفظ ، حين احتفلت بالمضمون - وعلى ذكر اللفظ حفل شعر  
العقاد في شبابه بالألفاظ اللغوية وكأنها معرض لمصولة منها. وحفل تبعاً  
لهذا بالهوامش والشروح - وعادة التكرار باللفظ يبدو أنها لازمة للأديب  
في مطلع حياته الأدبية .

\* \* \*

وبعد ، فهذه لمحة من شعر العقاد الإنسان أو إنسانية العقاد الشاعر .

## الفصل السادس

### العقاد يترجم للعقاد

تبدأ القصة في سنة ١٩٤٦ .

قال العقاد رداً على أمل أن يكتب كتاباً في حياته ( سأكتب هذا الكتاب وسيكون عنوانه « غنى » وسيتناول حياتي من جانين : الأولى حياتي الشخصية بما فيها من صفاتي وخصائصي ونشأتي وتربيتي البيتية والفكرية ، وآمالى وأهدافى مما تأثرت به من بيئة وأساتذة وأصدقاء، وما طبع أو انطبع في نفسى من إيمان وعقيدة ومبادئ . أو بعبارة أخرى : ( « عباس العقاد الإنسان » الذى أعرفه أنا وحدى ، لا عباس العقاد كما يعرفه الناس ، ولا عباس العقاد كما خلقه الله .

والجانب الثانى : حياتي الأدبية والسياسية والاجتماعية المتصلة بمن حولي من الناس أو بالأحداث التى مرت وعشت فيها أو عشت معها ، ونخضت بسببها عدة معارك قلمية ، وكانت صناعة القلم أبرز ما عشت فيها ، أو بعبارة أخرى « حياة قلمى » (١) .

أما الجزء الأول من الكتاب الذى كان مأمولاً فقد تكفل به أوبعضه كتاب ( أنا ) الذى جمعه من مقالاته المتفرقة الأستاذ طاهر الطناحى بل أعطاه العنوان .

( ١ ) كتاب ( أنا ) .

أما الجزء الثاني من الكتاب فقد تكفل ببعضه كتاب : حياة قلم .  
وما زالت حياة العقاد موضوعاً خصباً لكثير من الكتب والدراسات .  
ترجم العقاد لنفسه في كتابيه ( حياة قلم ) و ( أنا ) وحسناً فعل أو فعل  
الذين رغبوه في الكتابة عن تاريخه أو تاريخنا في سبعين سنة حافلة بالأحداث .  
ففي هذه الترجمة صور مدينة أسوان في أواخر القرن التاسع عشر وصفاً  
تفصيلياً لم يخطئ حتى اللغات المفضلة عند الأطفال . . .

تكلم عن مدارس الصحافة وأولها مدرسة عبد الله النديم التي نشأ فيها  
مصطفى كامل، وإن كان العقاد نفسه ليس من تلاميذها بل لقد عارضه  
في طفولته الباكورة - كان تلميذاً في الثانية عشرة - حين أنشأ من قصاصات  
الورق ، ( لا مراكب ) كالأطفال ولكن مجلة يعارض بها مجلة ( الأستاذ )  
لعبد الله النديم .

حتى الاسم عارضه الطفل عباس فسمى مجلته ( التلميذ ) . وصدقت  
كلمة أمهات مدينتنا أسوان التي كن يرددنها لأطفالهن كلما أصابهم ما  
يسوءهم من التورط في المزاح معه وراء الحدة الذي يسيغه . فإذا ذهبوا إلى  
أمهاتهم يشكون ما أصابهم كان الجواب الذي يقال بين الضحك والغضب :  
« أمزح مع من شئت يا بني . . ولكن . . كل الناس ولا عباس » .

ومن الطريف أن صحيفة العقاد أو مجلته المخطوطة ( التلميذ ) لم  
يصدر منها غير بضعة أعداد لم يكن لها من قراء غير زملائه في المدرسة  
وأقاربه المشجعين أو المتندرين المتفكهين . ولم يكن لها من اشتراك غير  
تعب النسخ لمن يراها مستحقة لهذا الثمن .



ولكنها تركت آثارها في نفسه طويلاً بل حددت وجهته فعرف بعدها أنه ليس للجندية ولا للزراعة كما كان يحسب في سن الأخيلة والأوهام والأحلام . . إنها صناعة القلم لا غيرها . . . وما أمنية الجندية وعلوم الزراعة إلا (ترجمة لأمنية الكتابة مستعادة في صورة من صور الصناعات الأخرى ، وبخاصة حين نذكر أنها كتابة لا تخلو من نضال ، ولا تخلو كذلك من زراعة ولا من عناية بالحياة والأحياء) (١) .

وقد باعد بين العقاد وعبد الله النديم - على الرغم من وجوه شبه ظاهر بينهما - سبيان : أحدهما يرجع إلى الأحوال العامة والآخر يرجع إلى المزاج الشخصي الذي فطر عليه .

ثم هناك طبيعة العصر الذي كان يعيش فيه . فقد كان عصراً لا يسمح للمدرسة واحدة أن تغطي على أفكار الناشئة في كل بقعة من بقاع البلاد المصرية . . لأنه كان عصراً مزيجاً مضطرباً بين عصرين ذهب أحدهما ولم يخلفه العصر القادم على رأى واضح مقسوم بين كل فئة من الناشئين وما يوافقها وتوافقته من التفكير الحديث .

(كان عصرنا « برج بابل » يبنى ويعاد بناؤه بين عام وعام . كنا نعيش في عصر الجهاد الوطني على مذاهب ، ونعيش في عصر التجديد الفكري على مذاهب ، ولا نرى أمامنا مذهباً واحداً في قضية من قضايانا الكبرى ، وكلها مشكلات) (٢) .

(١) حياة قلم ص ٣٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٣ .

حين أرخ العقاد لقلمه تناول بهذا القلم موضوعات كبيرة فتاريخ الصحف وأصحابها .

والصحافة قبل خمسين سنة أى فى أوائل القرن العشرين .  
تحدث العقاد حديث العيان والتجربة عن ( حق الصحيفة )  
( وعدة الشغل ) و ( التوزيع ) و ( المعلمين ) . المسيطرين على التوزيع -  
والإعلانات و ( الإعلانات السرية ) ، و ( أسعار الرتب ) .  
تكلم عن ( الصحافة اليومية ) و ( غير اليومية ) وعن وسائلها المشروعة  
وغير المشروعة ، تكلم عن مكاتب التحرير بين العتبة والفجالة .  
وكم من مضحكات مبكيات يرويها العقاد فى سياق هذا الحديث  
أو البحث الدارس ، كثر من الفخر والثناء وطبقة المأجورين .  
ومع هذا كله يرى أن الصحافة فى أوائل القرن العشرين قد أصبحت  
( هامة ) ولم تصبح ( عامة ) إلا بعد حين .  
وإلى هذه الظاهرة يعزو علة التناقض بين صحافة يومية محترمة -  
بمقاييس المجتمع - وصحافة أخرى غير محترمة بكل مقياس من هذه  
المقاييس .

( وعلى كلتا الحالتين كانت الصحافة - يومية وغير يومية - عارضاً  
غريباً على المجتمعات المصرية ، ولم تكن هناك بيئة خاصة يقصدها  
الصحفون لأنهم صحافيون ، بل لم تكن للصحافة نفسها كلمة متفق  
عليها . فربما سمى الكاتب فى الصحيفة بالتحريجي ، أو الجورنالجي ،  
أو الغازيتجي ، أو المحرر من صناعة التحرير فى المطابع والدواوين التى

١٥٣

تكتب فيها الرسائل . . فأما كلمة « الصحافة » فهي بدعة مستحدثة خلقها اللغويون على وزن « فعالة » كالتجارة والحدادة والملاحة والنجارة وكل ما يأتي على هذا الوزن للدلالة على الصناعات .

ولو سئل الصحافي يومئذ : ما عملك ؟ لما وجد كلمة مفردة يجب بها من يسأله ويفهمها السائل والمستول . . . (١).

ولكن هذا « العرض » لا يتركه العقاد بغير تحليل بل يغوص كمعاده وراء السطح أو (الظاهر) إلى الأعماق البعيدة فيرى (للصحفي في المجتمع المصري أب واحد من لحمه ودمه ومن طبيعته وصناعته هو . . . اللبيب . . . اللبيب الذي يعلو حتى يتبوأ مكان الواعظ المسموع والمستشار المعول عليه والمعلم الذي يصغى إليه المتعلم المستفيد كما يصغى إليه « الفهم » المعجب بسحر الكلام وفتنة البلاغة .

واللبيب الذي يهبط حتى يصدق عليه وصف « الثرثرة » أو « الأدبائي » الذي يفهم بالإشارة ولا يتورع عن الحيلة في طلب الرزق المباح والمحظور ، ولا يبالي ما يصيبه في سبيله من الزاوية والابتذال . . . اللبيب هو « جد » الصحفي في المجتمع المصري ، على أسوئه وأدناه على أحسنه وأعلاه (٢).

أما عن الجزء الأول فيقول العقاد :

(إنني لا أتحدث بطبيعة الحال عن « عباس العقاد » كما خلقه الله .

---

(١) حياة قلم ط ١٠٤ - ١٠٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧ .

فالله جل جلاله هو الأولي بأن يسأل عن ذلك .  
ولن أتحدث بطبيعة الحال عن « عباس العقاد » كما يراه الناس  
فالناس هم المسئولون عن ذلك .  
ولكني سأحدث عن عباس العقاد كما أراه .  
وعباس العقاد كما أراه - بالاختصار - هو شيء آخر مختلف كل  
الاختلاف عن الشخص الذي يراه الكثيرون ، من الأصدقاء أو من  
الأعداء . هو شخص أستغربه كل الاستغراب حين أسمعهم يصفونه  
أو يتحدثون عنه ، حتى ليخطر لي في أكثر الأحيان أنهم يتحدثون عن  
إنسان لم أعرفه قط ولم ألتق به مرة في مكان .  
فأضحك بيني وبين نفسي وأقول : ويل للتاريخ من المؤرخين .  
فعباس العقاد هو في رأي بعض الناس مع اختلاف التعبير وحسن  
النية هو رجل مفرط الكبرياء .  
ورجل مفرط القسوة والجفاء .  
ورجل يعيش بين الكتب ، ولا يباشر الحياة كما يباشرها سائر الناس .  
ورجل يملكه سلطان المنطق والتفكير ولا سلطان للقلب ولا للعاطفة عليه .  
ورجل يصبح ويمسى في الجلد الصارم فلا تفتّر شفثاه بضحكة واحدة  
إلا بعد استغفار . . . واغتصاب .  
هذا هو عباس العقاد في رأي بعض الناس .  
وأقسم بكل ما يقسم به الرجل الشريف أن عباس العقاد هذا رجل  
لا أعرفه ولا رأيته ولا عشت معه لحظة واحدة ولا التقيت به في طريق .

ونقيض ذلك هو الأقرب إلى الصواب .

نقيض ذلك هو رجل مفرط في التواضع ، ورجل مفرط في الرحمة واللين ، ورجل لا يعيش بين الكتب إلا لأنه يباشر الحياة ، رجل لا يفلت لحظة واحدة في ليلة ونهاره من سلطان القلب والعاطفة ، ورجل وسع شذاه من الضحك ما يملأ مسرحاً من مسارح الفكاهة في روايات شارلي شابليان جميعاً) .

وبين هذا وذاك رسم العقاد بنفسه صورته الصحيحة :

إننى لا أزعم أننى مفرط في التواضع .

ولكننى أعلم علم اليقين أننى لم أعامل إنساناً قط معاملة صغير أو حقير ، إلا أن يكون ذلك جزاء له على سوء أدب .

وأعلم علم اليقين أننى أمقت الغطرسة على خلق الله ، ولهذا أحارب كل دكتاتور بما أستطيع ولو لم تكن بينى وبينه صلة مكان أو زمان كما حاربت هتلر ونابليون وآخرين .

وأننى لا أزعم أننى مفرط في الرقة واللين .

ولكننى أعلم علم اليقين أننى أجازف بحياتي ولا أصبر على منظر مؤلم أو على شكاية ضعيف .

فعندما كنت في سجن مصر رجوت الطبيب أن يختار لي وقتاً للرياضة غير الوقت الذى تنصب فيه آلة الجلد لعقوبة المسجونين .

فدهش الطبيب ، وظن أنه يسمع نادرة من نوادر الأعاجيب وقال لي في صراحة : ما كنت أتخيل أن أسمع مثل هذا الطلب من العقاد

« الجبار » . والجبروت تنبأ به محمد عبده فى طفولته ووصفه به سعد زغلول فى رجولته وقد يبدو من الغريب أن تقرن الطفولة بالجبروت ولكن أحداث طفولة العقاد تنبى الغرابة وتؤكد غيرها .

ومثل من أمثلة أنه كان تلميذاً صبيّاً بمدرسة أسوان فى العهد الذى كانت المفاضلة بين شيئين هى المحور الغالب على موضوعات الإنشاء فى أيامه بمدرسة أسوان . فكان من عرام شخصيته يختار أضعف الجانبين حتى اختار الجهل مرة فى مفاضلة بينه وبين العلم ! وهو الذى كانت أول قصيدة نظمها فى حياته - كان وقتئذ فى التاسعة من عمره - قصيدة مدح بها العلوم ومن قوله فيها :

علمُ الحساب له مزايا جمّة      وبه يزيد المرء فى العرفان  
والنحو قنطرة العلوم جميعها      ومبين غامضها وخبر لسان  
وكذلك الجغرافية تهدى الفتى      لمسالك البلدان والوديان  
وإذا عرفت لسان قومٍ يا فتى      نلت الأمان به وأى بيان  
المسألة إذن شدة إحساس بالقدرة وطاقة التفوق بغير معين .

ومن كتاب (أنا) نتأمل لمحات من شخصية العقاد .

لم يكن العقاد يتشاءم من شيء فى الحياة بل كان يتحدى الشؤم فى كل صورة من الصور التى اصطلح الناس عليها ، فاحتفظ فوق مكتبه بتمثال للبوثة المضطهدة المرمية بالشؤم ، واتخذ داراً برقم ١٣ المزعوم نحسه ، حتى حين قرر بناء منزله بأسوان شرع فيه يوم ١٣ مارس وقسم كتبه ١٣ قسمًا وكتب عن ابن الرومى المقرون بالشؤم .

ومن الغريب حقاً أنه دفن في أسوان يوم ١٣ مارس .  
فهل أثبت الرقم المشنوم وجوده آخر المطاف ؟

\* \* \*

يقول لودفج في معرض حديثه عن نابليون .  
( إذا أردنا أن نصور حياة حافلة كحياة هذا الرجل لم يكن لنا بد  
من أن نصبغها بالوانه ، فلا غنى للكاتب عن الرجوع إلى كلام صاحب  
الترجمة ولا خوف من الإفراط في هذا الصدد مهما أفرط ، إذ الواقع أن  
كل إنسان أقدر على شرح نفسه من أى إنسان غيره )<sup>(١)</sup> .  
ومن هنا نستطيع أن نعتد على كتاب العقاد ( أنا ) في التعريف إليه  
أو التحدث عنه أو الترجمة له ولو من باب تفصيل المجلد أو توضيح  
التوضيح كما يقول النحاة . . .

ومن كتاب ( أنا ) : ( لم أشعر قط بتعظيم إنسان لأنه صاحب مال  
ولم أشعر قط بصغرى إلى جانب كبير من كبراء الجاه والثراء بل شعرت كثيراً  
بصغرهم ، ولو كانوا من أصحاب الفتوحات . .

وأنا أعتقد أن نابليون مهرج إلى جانب العالم باستور ، والإسكندر  
المقدوني بهلوان إلى جانب أرشميدس ، وإن البطل الذى يخوض الحرب  
ذوداً عن الحق والعقيدة أكرم جداً من كل بطل يقتحم الحروب ليقال  
إنه دوح الأمم وفتح البلدان )<sup>(٢)</sup> .

(١) ساعات بين الكتب ج ٢ ص ١٤٤ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٤ .

لأنه كان فى نفسه ، وبنفسه ، أغنى الأغنياء ، وغنياً عن الأغنياء .

\* \* \*

وكان العقاد القوى ، قوى الشخصية وقوى الحجة وقوى الإعجاب وقوى الخصومة ، أضعف الناس أمام ضحايا الألم والقهر. فقد وقع نظره أثناء سجنه يوماً على جلاد يهوى بسوطه على ظهر سجين ثم ينبثق الدم من ظهر الرجل المسكين . . فعاد إلى مكانه. فى السجن باكياً ، وقلبه يكاد ينفطر شفقة ورحمة ، ومكث مريضاً مدة أسبوع كامل ، ولم يستطع النوم ثلاث ليال بأكملها وظلت صورة الدم على ظهر السجين تحايل عينيه ، واستمرت أنات الرجل تدوى فى أذنيه ، ولم يرحم خياله أن ذلك الرجل قد أتى ذنباً استحق عليه العذاب .

هذا هو العقاد الذى قال من جهلوه إنه قاس لأنه لا يرحم ضعفهم الفنى ، حين رق ورحم وشجى أمام كل ضعف سواه .

\* \* \*

كان عزيزاً حتى فيما لا حيلة فيه ولا مجال لكرامة أن تختار . ومن هذا إيثاره الموت نفسه على المرض لو جاز أن يسلك الموت فيما يستحق الإيثار . ومن قوله فى هذا :

( إذا فاجأني الموت فى وقت من الأوقات ، فإننى أصافحه ولا أخافه بقدر ما أخاف المرض ، فالمرض ألم مدلل لا يحتمل لكن الموت ينهى كل شئ ) .

حتى فى المواقف التى يمنح فيها الفرد إلى المداينة والملاينة تنلغ شخصية



العقاد تجاهر بالرأى الصريح . . والصحيح . . مسقطه من اعتبارها حساب المكسب والخسارة في هذا الاختيار .

ومن هذا أن العقاد أيام البرلمان كان يعلن في كل دائرة تقدم فيها أنه لن يقبل الوساطة في مسألة شخصية ، إلا أن تكون تقريراً لحق أو دفعاً لمظلمة . شخصية لها عرام . لقد أقسم (العقاد) لزعم الوفد في أكتوبر سنة ١٩٣٥ وهو يشير إلى قلمه الرصاص الذى كان يكتب به مقالاته - وكان يحمله وقت جداله معه في بيته بالإسكندرية - ألا ينتهى هذا القلم حتى تنتهى وزارة نسيم باشا من دست الحكم . وقد صدق فما كاد يمضى اليوم الرابع من يناير سنة ١٩٣٦ م حتى استقالت الوزارة النسيمية استقالة أشبه ما تكون بالإقالة وتولت الحكم بعدها وزارة (على ماهر باشا) (١).

دائماً اعتزازه بالقلم مع سائر الحكام ، فمنذ حمله إلى أن ودعه قبل سفره إلى أسوان للمرة الأخيرة ، لم يمالئ حاكماً قط ولم يداهن حاكماً قط . إن أقصى ما يطمع فيه الحاكم المستبد ، أو يطمح إليه ، من العقاد : السكوت . وإنه لأمنية الحاكمين من صاحب الرأى الحر والقلم الجهير

وفي باب الأنفة تروى عن العقاد هذه القصة :

كان فريق من كبار رجال الصحافة أعضاء في مجلس الشيوخ . وأريد الإنعام عليهم بالباشوية ، لكن لما كان القانون يحرم الإنعام برتب أو نياشين على أعضاء البرلمان ، اشترط عليهم أن يستقيلوا من المجلس ليظفروا بالإنعام

السامى ثم يعاد تعيينهم فى المجلس !  
 قبلت الأغلبية الاستقالة من عضوية المجلس لتظفر بالباشوية ومنهم  
 خليل ثابت وأنطون الجميل وآخرون .  
 عضو واحد فقط رفض الباشوية . . هو العقاد !  
 وحدث عقب الإفراج عن العقاد من السجن أن أوفد إليه القصر  
 من يعرض عليه منصب مدير الإدارة العربية فى القصر بكافة مزاياها فرفض .  
 ثم بعد فترة - عرض على العقاد منصب مدير دار الكتب فرفض .  
 وارتقى العرض إلى مدير الجامعة فرفض .  
 وفى عهد تال عرضت عليه الوزارة فى الائتلاف الدستورى السعدى  
 فرفض وقال إنه لا يرضى عن قلمه بديلاً !  
 ويروى عن الأستاذ العقاد أن أحمد حسين أبلغه أن ( فاروق ) أصدر  
 أمره بإعادة كتابة اسم العقاد فى جدول الانتخابات . وكانت الوزارة الوفدية  
 قد حذفته .  
 وفى كياسة رجل البلاط قال أحمد حسين : إن الملك يقدر العقاد  
 ويرى أنه كاتب كبير لا ينبغى إغفاله . . .  
 وينتظر أحمد حسين فى تشوف جواب العقاد على هذا « التقدير  
 الملكى » فيجب العقاد ولكن بقوله :  
 إن قول فاروق إن عباس العقاد كاتب كبير شىء لا يقدم ولا يؤخر ،  
 أما أن يقول العقاد إن فاروق ملك كبير فشىء آخر ! وهو ما لم أقله حتى  
 الآن .

سئل العقاد يوماً لماذا هو ديمقراطي ؟ فأجاب : ( لأنني لست بالملكولست بالدليل ولست بالمؤمن بصلاحية الاستبداد في جميع الأحوال . وهذه هي الأسباب التي تبغض إلى الاستبداد حيث كان ، وتحجب إلى الديمقراطية حيث كانت ولو كانت بين أناس لا يستحقونها أحسن استحقاق .

فالحرية في أفصح أوصافها خير من الاستبداد . وقد شبع العالم من عيوب الحكم المطلق ألوفاً بعد ألوف من السنين )<sup>(١)</sup>.

وكان سعد زغلول في قمة زهوته يعمل للعقاد ألف حساب . ومن ذلك أنه كان لا يقترح عليه الكتابة أو الكف عنها . كان يتنسم رأيه بطرح الموضوع للمناقشة كمن يحس النبض فإذا وقف على رأيه ورآه يلتقي معه من تلقاء نفسه أفصح عن غرضه الحقيقي وتغنى عليه أن يعالج الموضوع .

يرويه العقاد في مجال ترحيبه بالاقتراح الأدبي يأتي من المجالات الأدبية وأصحابها لأنهم كما يقول أدرى بحاجة صحفهم إلى ألوان الموضوعات ، حين كان يرفض كل اقتراح سياسي بالكتابة في مسألة من مسائل السياسة .

وقد فسر العقاد شبهة الكبرياء فإذا بها ترفع ، هو بعض وفائه للقيم الإنسانية ، وعطائه للحياة الأدبية ، وصنيعه لكرامة الأدب والأدباء .

ومن اعترافات العقاد في كتاب أنا :

( أعترف بأنني لا أطيق التواضع الكاذب الذي هورباء في المتكلم وغفلة في السامع . فإذا بنحسني الباخسون حقاً فدعواي إذن أمام ضميري

---

(١) حياة قلم ص ٢٢ .

لا يزعمها إجماع الخافقين .

أعترف بأننى أحب الشهرة والخلود ، ولكننى أعترف كذلك بأننى لا أطلبهما بشمن يهبط من كرامتى ، وأننى إذا أحسست أن إنساناً يمتن على بشهادة يبذلها أو شهادة يمنعها فلا نصيب له عندى غير التحدى الذى يذهب به إلى الحائط . ولتذهب الشهرة وليذهب الخلود معها إلى الشيطان (١) .

ألف تبلغ به الألفة حد الضعف أمام العادة فلا يقدم على التبديل إلا بعد عناء طويل . ومثل من أمثلة أن البيت الذى كان يسكنه قد تغير له أربعة ملاك وهو الساكن فيه لم يتغير .

وأنه كان فى مصر الجديدة وكان حلاقه فى شارع محمد على لأنه من سنين كان يسكن هناك .

يلقى عنده المحافظة والتجديد من أثر نشأته فى أسوان (وهى أعرق مدينة بين مدن مصر القديمة بموروثاتها التى لا تبلى وهى فى الوقت نفسه مدينة أوربية فى الشتاء أو كانت كذلك يوم نشأ نشأته الأولى فأوربا كلها كانت تترأى هناك كل شتاء بملاهيها وأزيائها وعاداتها ومؤلفاتها وفنونها واختلاف أقوامها) (٢) .

وكذلك كان بيت العقاد بالقاهرة فيه أحدث كتاب وأحدث ما يعين على استجلاء فن كالتليفزيون . . . والريكوردر . وفيه أيضاً أقدم ما عرفت

---

(١) حياة قلم ص ٢٧ .

(٢) المرجع نفسه ص ٣٧ .

## البيوت من آلات خارج دائرة الفن .

أما بيته في أسوان فقد رأيت الحجرة الفسيحة التي كان العقاد يعقد بها ندواته في أسوان عصر الاثنين والجمعة من كل أسبوع . ورأيت المقعد الذي كان يجلس عليه والناس من حوله ، الواقفون يربون أضعافاً على الجالسين إلى جانبه والجالسين بين يديه . كان العقاد يحل بأسوان فما يكاد الناس يتسامعون بمقدمه حتى تندفق جموعهم على مجلسه ، وتهرع وفودهم إلى داره فلا يبقى في الطابق السفلي موضع لقدم . . إنه ابن أسوان وأبوها فكل من فيها يدعوه « أبويا العباد » .

ورأيت حجرة العقاد الخاصة وقد ترك فيها كل شيء كما خلفه آخر مرة . . ملابسه معلقة وعصاه . . كل شيء يبدو منتظراً كأنه قادم إليه من القاهرة . وما درى أنه سافر منها إلى أسوان منذ أمد قريب . . بعيد . . والدور العلوي مخصص للعقاد حين كان يسافر إلى أسوان . وتستطيع أن تكتشف هذا بنفسك . فكل شيء مرتفع القامة مثله . رفوف الزجاج على الأحواض . . ومراياها . . الأزرار في الجدران . . الشاعرات ( المشاجب ) ، الأثاث ، حتى الأدوات ضخمة غير نظائرها عند الناس . . وابستمت من بين دموعي . . لقد لحقت عملقته الأشياء التي تنتمي إليه . .

واستوقفتني في بيت أسوان صور أسوان . . كل معلّم من معالم أسوان تضمه لوحة زيتية . فالخزان والمقياس وأنس الوجود وجزيرة النباتات . . إلى هذا الحد كان « أبويا العباد » متعلقاً بمسقط رأسه . كما كان مسقط رأسه متعلقاً به إذا أخذنا بدلالة الصور هنا . ففي كل حجرة صورة للعقاد

وفى كل ردهة صورة . . للعقاد . . وكم من صورة رسمها له أوروهم فيها الفنان صلاح طاهر ، إن مدرسة العقاد فيها الرسام كصلاح طاهر والموسيقى كالشجاعي أليست جامعة ؟

وبين الصور ، صورة كان العقاد يعتز بها . . صورة زيتية من رسم صلاح طاهر أيضاً . إنها صورة طفلة نائمة أناملها الصغيرة البضة تمسك أطراف الغطاء ودوائر شعرها المخملى تلقى على وسادتها البيضاء ظلالاً رقيقة مثلها ، ووجهها كله تغسل براءته وطهره بحراً من آثام العالم . . كان العقاد المهيب يحب الطفولة .

وقد سمعت قصة غريبة صحت أم لم تصح فإن لها دلالة كبيرة على أعماق . . صاحبها . . روى لى ابن أخيه أن العقاد رجع من جنازة ابنه صفيّه المازني وقد اتخذت صرامته قراراً لا يحيد كالعادة وهو ألا يتزوج لكى لا يقف هذا الموقف الجريح . . لكى لا تدفن نفسه نفسه . . لكى لا يوسد الثرى بضعة منه أو أعز شيء فيه . وظل فترة يردد : كيف أحتمل المازني دفن ابنته ؟ كيف ؟ وكثيراً ما سئل العقاد عن سر عزوبته فكان يصنع للسائلين الجواب .

كان يحب الأطفال ( إنهم معلمون من الطراز الأول . . لأن أخلاق الإنسانية مكتوبة فى نفوسهم بالخط البارز الذى تقرأه لأول نظرة ، وهى فى نفوس الكبار ضامرة أو مصحفة أو ملتبسة بوشى الرياء وزركمة العرف وزخارف التكلف والتمويه .

إن معلمينا الصغار لا يكتمون شيئاً وكل ما كتموه أبرزوه وضاعفوا

١٦٥

إبرازه ، فمن لم يتعلم حقائق الضمير الإنساني من الطفل فما هو بمستفيد شيئاً من علوم الكبار ولو كانوا من كبار العلماء<sup>(١)</sup>.

(وجاهل بهذا الخطب من يحسب أن الحزن على الصغير أهون من الحزن على الكبير .

إذ الواقع أن الحزن على الكبار قد يهون عند الحزن على هؤلاء الصغار ؛ لأنك تحزن عليهم بمقدار تعويلهم عليك ، ومقدار الرجاء في غدهم وغدهم طويل مفتوح لآمال الخيال ، ونظرتهم إليك وهم مرضى على يدك تطالبك بالمعجزات وتعجزك بعد ذلك عن الصبر على ذلك الأمل الذى ضاع فيك وضاع فيهم ، فلا عزاء .

متعة نفيسة وثمن غال ، وما زهدني في اقتناء المتعة النفيسة علمي بغلو الثمن ولا إخالني مع هذا نجوت مما ابتليت به في طائفة من هؤلاء الأصدقاء الأعزاء<sup>(٢)</sup> .

فنان عاطفي حتى ليكيه الأداء المثقن أو المشهد الدرامي ومن ذكرياته أنه بكى في أول فيلم أجنبي ناطق ، كان يمثله الممثل القديم (آل جونسون) . وكان مع آل جونسون طفل صغير يمثل دور الطفل الذى حرم من أمه وظل هدفاً للإهمال حتى مات .

بكى ولم يستطع النوم في تلك الليلة .

عاطفي يتعلق بوالدته حتى في شيخوخته واستغناؤه المفروغ منه عن

(١) - حياة قلم ص ١٧١ .

(٢) - حياة قلم ص ١٧٤ .

الرعاية والحذب . ولكنه كان أول ما يفعله عندما يزور أسوان أن يهرع على أثر نزوله من القطار إلى غرقها ويسكن إليها فلما توفيت لم يدخل غرقها ما عاش كيلا يراها خالية منها .

إنه يذكرني بفريد الدين العطار الذي كان يقول عن أمه وهو وزير ( هذه السيدة التي هي أوهى من خيوط العنكبوت كانت لي حصناً ) .

( حتى الشوارع التي كنت أغشاها مع صديقي المازني - رحمه الله - لم أستطع أن أغشاها بعد مماته . وصرت أتجنب ما يذكرني بفجيعتي فيه حتى لا أحزن من جديد !! )<sup>(١)</sup> .

فنان يستهويه الجمال . وللعقاد في وصف النهار والفرح بالنور كلمات ما كتبت عن العقاد مرة إلا تأقت نفسي إلى ترديدها .

( كان النهار بساماً ، مدلاً بشمسه ، مزهواً بنوره ، كأنما يحس روعته في الأنظار وبهجته في الأرواح وكأنما يتوهج من نظر العيون إليه كما يتوهج الوجه الصبوح تحت لمحات الأحداق . كان نهراً مبتكراً عليه جدة لا تحسبها قد مضت عليها سوية من يوم . خلقاً مبتكراً يخيل إليك أنه يتلألأ في فضائه للمرة الأولى . . وهل هنالك فارق بين نور نهارنا هذا وبين النور في أبعد مكان من الفضاء وفي أبعد فترة من الزمان ؟ ها هنا شيء على الأقل تستطيع أن تقول إنه لم يفتك أن تراه قبل ألف ألف من السنين )<sup>(٢)</sup> .

---

( ١ ) حياة قلم ص ٣٨ .

( ٢ ) المرجع نفسه ص ٢٧٧ .



١٦٧

وهو يحب النور كجيتى الذى مات ( وهو يطلب المزيد من النور ، كما يقول العقاد فى كتابه عنه ، ويهتف بمن حوله وهو يجود بنفسه أن « افتحوا النافذة ليدخل النور » )<sup>(١)</sup>

وكان للعقاد دستور حياة .

( فلى وقت للعمل ، ولى وقت للرياضة ، ولى يوم كل أسبوع أكف فيه عن كل عمل وكل قراءة حتى مطالعة الصحف وفض رسائل البريد ، ولى مواعيد للطعام والنوم لا تختل فى يوم ، ولى قاعدة هامة تشمل العمل والرياضة والطعام والجد واللهو والبطالة وهى التوسط بين الإفراط . . والتفريط . )

ويراه الدكتور عثمان أمين متأثراً بكانط فى نظريته المعرفة ومذهب الأخلاق . وما قاله العقاد فى هذين لا يستلزم بالضرورة تبعية أو متابعة . فمذهب العقاد فى الأخلاق كما يقول الدكتور عثمان أمين نفسه يعتمد ( على أخلاق الضمير والفترة السليمة ، أخلاق الصراحة والوفاء والإخاء . ولاسيبيل إلى إنكار هذه الأخلاق ما دامت تعبر عن طبيعة الإنسان ووجوده ) . وقصة ابن طفيل « حى بن يقظان » تركى اتجاه الفترة السليمة فى مسار خلقى سليم بدون كانط أو نظريات .

أما عن علاقة الإنسان بالكون فإن الإسلام حددها حين قال بعد الدعوة الموسعة إلى التأمل والتفكير والتعلم : ( وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ) .  
إلا قليلا

هنا الدقة تستريح .

في الأساطير الإسلامية أن الله أخبر موسى أنه وهب « الخضر » من لدنه علماً . فذهب موسى يبحث عن الخضر حتى وجده في كهف وأمامه شبه بركة صغيرة من الماء . وسأله موسى :

– هل أعطاك الله علماً ؟

– حمداً له في كل حال .

وفي هذه الأثناء حط طائر وحسا حسوة من الماء . وهنا التفت الخضر إلى موسى وقال له :

ما عندي من العلم في حجم ماملاً فم هذا الطائر من الماء .

والقصة ترمز إلى تواضع العالم الحق . . وإلى أن الإنسان مأوًى من العلم إلا قليلاً .

إن T.W.A. لا تقاس بالطائر الصغير المهاجر الذي يطير مسافات شاسعة على جناحيه .

هذا هو معجزة القوة .

كم من ملايين الخلايا في جسم الإنسان تعمل بنظام محسوب ؟  
لقد استطاع الإنسان أن يصل إلى القمر ولكنه لم يستطع أن يخلق خلية حية .

ماهى الأرض التي يعيش عليها الإنسان ويتصارع فوقها ويزدهيه النصر  
في هذا الصراع ، إلى جانب الشمس ؟ ذرة من غبار في مدينة الشمس لو أن الشمس مدينة .

ما هذا كله مجتمعاً ومتفرقاً بالنسبة إلى الله ؟  
حدث في الانتخابات الأمريكية أن سأل رجل ، عالماً من علماء الفضاء :  
هل هناك كواكب أخرى مثل الأرض ؟ وهل هناك شمس أخرى ؟ فقال  
العالم : نعم .

قال الرجل : إذن لا يهمني من الذي نجح أو سقط .  
والقصة من عالم الواقع ترمز إلى ثقافة الاهتمامات اليومية صغيرة أم كبيرة .  
إن إنسان العصر يتحدث كثيراً عن إنجازاته العلمية حتى سمي عصره ،  
عصر التكنولوجيا . . . . هذا العصر نفسه له علامة أخرى : التلوث .

هذا التلوث مؤشر يدعو الإنسان أن يخفف صلفه وغروره .  
لقد أبدع الإنسان الصناعة فلوث دخانها الجو .  
وفى الزراعة ، قاوم الآفات فلوث النبات .  
وفى التجارة لوث الأفكار بالإعلان .  
وفى السياسة ، لوث ضمير الإنسان ، وهدم القيم ، وخرب البشر ، وقد  
آن الأوان لتنظيف بيته أى بيئته أى دنياه .

ليست دعوة ضد الصناعة والزراعة والتجارة . . .  
محال . . . ولكنها دعوة إلى الوعي بأنه مأوئى من العلم إلا قليلاً . .  
ودعوة إلى الإيمان بأنه فوق كل ذى علم عليم ، وبأنه لم يخرق الأرض ولم يبلغ  
الجبال طولاً . . . وإلى أن هناك خالقاً أكبر وأقدر وأعلم وأحكم . . كل شيء  
عنده قدره تقديراً . . .

يقول الأستاذ العقاد : إن العقل لا يفهم حقيقة الشيء فى ذاته ، فليس

١٧٠

أمامنا إلا أن نفترض أحد فرضين ، فإما ألا يكون هناك حقيقة تفهم ، وإما أن العقل يضع نفسه في غير موضعه حين يتصدى لاستكناه تلك الحقائق . والفرض الأول بعيد التصديق ، فلم يبق غير أن العقل غير منوط بفهم كل صلة بين الإنسان وهذا الكون الذى نشأ منه ، وأن الصلة موجودة وإن لم تكن معقولة .

إن الإيمان ليس الشهادتين .. إنه عملية صعبة .. إنه اتحاد بالكون .. استماع إلى المزوفة الكبرى والمايستر و الأكبر والأقدر والأعظم .

وينفتح القلب ويشرب النعم  
وتتوهج الروح إذ تلمسها الشرارة المقدسة  
ويبصر الإنسان بعد أن رأى .

إن الحضارة هى وصول الذات إلى مرتقى عالٍ من التوحيد والتكامل ، ثم ممارستها الحياة انطلاقاً من هذا الأفق كالوردة الكونية . ولعلها سميت كذلك لأنها تمثل خروج النفس من الفوضى الداخلية إلى كونه الكون . إن شدة اهتمام الغرب بعلم النفس مؤشر إلى معاناته النفسية من أمراض العصر . . من أمراض حضارته الصناعية العقلانية . . ولسنا ضد العقلانية ولكننا نؤمن بالتكامل . . أن يكون الإنسان عقله وقلبه وروحه وجسمه كلا واحداً لا يتجزأ .

يقول الأستاذ العقاد : لن تروى الكون حق رؤيته وأنت تحاول الخروج منه ، والانفصال عنه ، إنما تدرك حقيقة الكون وأنت « بعضه » أى وأنت متأثر به مؤثر فيه ، متصل بكل ما فيه من سر وجهر وسرور وألم . . إنما تدرك

١٧١

حقيقة الكون المقدورة لك ، وهو جسم حى يعاطفك وتعاطفه وتعطيه وتأخذ منه . ولن تدركها ألبتة وهو جثة ميتة على مائدة التشريح تُعمل فيها المضغ .  
وتهيئها للدفن فى التراب . ]

وهكذا نرى العقاد المولع بالمعرفة فى فروع شتى ، الموكل بالمنطق والقياس والتحديد العلمى ، مدركاً لجلال اللامحدود ، مؤمناً بخالق الكون الإيمان الواسع العميق البصير ، مسلماً حين يقرر محدودية العقل ، بأن الإنسان ما أوتي من العلم إلا قليلاً ، متكاملاً بالمعنى الجضارى للتكامل الذى يلتقى فيه العقل والقلب والرأى والضمير .  
نعود إلى حديث العقاد :

( وقبل ذلك كله كانت لى شيخوخة فى مقتبل الشباب .  
ولم يخل شبابي من الشيخوخة ، فمن الحق ألا تخلو شيخونحتى من الشباب ) (١) .

وحين ترهب فى محراب الفكر وجد من يقلب الحسنة النادرة ، سيئة !  
فزعمه قوم زاهداً فى الحياة .

وما أحب الكتب إلا لأنه يهوى الحياة مشغولاً بها صَباً ( إننى أحب الكتب لأن حياة واحدة لا تكفينى . ومهما يأكل الإنسان فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة . ومهما يلبس فإنه لن يلبس على غير جسد واحد . ومهما ينتقل فى البلاد فإنه لن يستطيع أن يحل فى مكانين ، ولكنه بزد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيات فى عمر واحد ،

( ١ ) حياة قلم ص ١٦٠ .

ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل ، وتتضاعف الصورة بين مرآتين<sup>(١)</sup>.

ومن الطريف أنه حتى الجنة لم يستطع تصورها خالية من الكتب . فقد تخيل الأستاذ توفيق الحكيم في بعض كتبه ، العقاد وقد دخل الجنة فلم يلبث أن أخذ يطوف بين أرجائها عسى أن يرى واجهة مكتبة يقف أمامها ويتأمل عناوين الكتب فيها ، فلما طال به المطاف ولم يجد مكتبة ولا كتباً ضجر منها وطفق يقول : ما هذا ؟ جنة بغير كتب ؟ .

وهنا ابتسم العقاد أولعله ضحك ضحكته المجلجلة وقال :  
صديقنا الحكيم لم يبالغ في تخيله لأنني فعلاً لا أستطيع أن أعيش في جنة لا أطلع فيها وليس من الضروري أن أقرأ في كتاب .  
يقصد بالعين . . بالسمع . . بالشعور . . بالملاحظة . . بالتعمق . .  
بالاستشفاف . . وسائل كثيرة للاطلاع غير القراءة .

ويسأل العقاد كالمستغرب : لماذا لا نطلع في الجنة ؟  
يجب أن نطلع في الجنة قبل غيرها لأن المكان الذي تسكنه ونحب أن تسكنه هو أحق الأمكنة أن نطلع عليه ونعرف كل ما قيل فيه ، وكل ما خطر بالبال عنه ، وكل ما خامر به النفوس غير نفسك من خوالج الغبطة والشوق والرغبة والاستطلاع .

يجب أن نطلع في الجنة لأن الساعة الحاضرة فيها لا تكفيها ومن حقها علينا أن نعرفها ماضياً ، وحاضراً ، ومستقبلاً ، وأن نحيط فيها بشعورنا

---

(١) المرجع نفسه ١١١ .

١٧٣

وشعور الآخرين الذين اختبروها غير خبرتنا وشهدوا منها غير ما شهدناه .  
فإن لم تكن لنا وسيلة إلى ذلك غير الكتاب، فليكن الكتاب في الجنة .  
ولا يعقل أن تنقص اللجنة حيث تكمل المدن العامرة في هذه الدنيا<sup>(١)</sup> .  
وفى حديثه عن مقاييس الشباب بين قائل بمقياس الشعور وقائل  
بمقياس القلب والهوى، وقائل بمقياس الهمة والطموح، كان المقياس الواحد  
لدى العقاد الذي يقيس به جهوده في جميع أدوار حياته هو النهم إلى  
المعرفة .

ولكن لا ضير فالعقاد نفسه كان لا يبالي بسخط الساخطين لأنه كان  
يعلم ( أن خطأ الكثيرين جائر وأن سخريتهم لا تضير فلم أحفل بتلك  
السخرية، ولعلى بالفت في قلة الاحتفال بها « وأخذت راحتي » جداً في  
بسط رجلي حيث أشاء<sup>(٢)</sup> .

وهو هنا يشير إلى قصة أبي حنيفة وكان كما قيل يبسط رجله في حلقة  
الدرس لأنه لم يكن يستطيع أن يثنيها من مرض أو من إعياء . فأقبل على  
درسه ذات يوم شيخ غزير اللحية وقور المشية هابه أبو حنيفة فثنى رجله  
على ألم ثم أخذ في درسه عن موعد صلاة الصبح ، فإذا بالشيخ يسأل :  
( وما العمل إذا طلعت الشمس قبل الفجر ؟ قال أبو حنيفة : « العمل أن  
أبا حنيفة يبسط رجله ويحمد الله » ) .

وقف العقاد في حياته كالطود الأشم في وجه العواصف والرياح . ومن

---

(١) حياة قلم ص ٥٩ .

(٢) المرجع نفسه ص ١٣٨ - ١٣٩ .

العواصف ما حاول أن يسنى عليه التراب، أو يكيّل له السباب. ولكنه في ثبات الراسخ الواصل من نفسه صدها بوقفته ، أوردتها خائبة لمناعته . وفي كل مرة تسكن الضججات وتختف الأصوات ليعلو صوته وحده ، حتى وهو في صمت الموت وهم في صخب الحياة !  
لقد حارب العقاد الطغيان وحارب الفوضى .

لقد حارب رؤوس الأموال وحارب مذاهب الهدم والبغضاء .  
لقد حارب التبشير وحارب التقليد الأعمى والدجل المريب باسم الدين .  
لقد حارب الجمود والرجعية ، وحارب الإنكار والجحود .  
لقد حارب الأحزاب وحارب الملوكة .

لقد حارب هتلر ونابليون وحارب المستعمرين في صفوف الديمقراطيةين .  
لقد حارب أعداء الأدب المسمى بالقديم وحارب أصدقاء الأدب المسمى بالجديد .

لقد حارب الصهيونية وحارب النازية أكبر أعداء الصهيونية .  
لقد حارب جميع هؤلاء فالتقى على محاربه أناس من جميع هؤلاء صهيوني إلى جانب نازي ، إلى جانب فوضوي ، إلى جانب رجعي إلى جانب ملحد ، إلى جانب حامل اللحية والعذبة باسم الدين ، إلى جانب الماركسي من اليسار والمبشر من اليمين .  
ولكن لا ضير مرة أخرى فقد كان العقاد يدعو الله ألا يحرمه من عداوة مدع أو دخيل على حرم المعرفة وحرمتها ، نكرانه للفضل على قدر شعوره بعرفان غيره . . وكفرانه بالحق على قدر صواب الحق ، لا على قدر خطئه .



١٧٥

فإن الذى لا صواب له يكفى الحاقدين مثونة النعمة عليه، واللجاجة فى مذمة عمله وبخس جهوده واجتهاده<sup>(١)</sup> .

سئل العقاد : هل ظفرت بما كنت تريده من الحياة ؟  
فكان جوابه : ( بلغت فيما أعتقد غاية ما يستطيع فى بيئتنا العربية ولم أبلغ الغاية التى رسمتها أمامى فى مستقبل حياتي ولا قريباً من الغاية .  
وإذا قدرت ما صبوت إليه مائة فى المائة ، فالذى بلغته لا يتجاوز العشرين أو الثلاثين )<sup>(٢)</sup> .

بعد كل هذا العطاء يرى العقاد أنه لم يبلغ العشرين أو الثلاثين فى المائة مما كان يصبو إليه . .

وسئل العقاد ما الذى يتمنى بعد السبعين .  
فكان جوابه ( لئن تمنيت شيئاً بعد السبعين لأتمنين أن أعيش فلا أعيش عبثاً ولا فضولاً ، وأن أعيش كما عشت بحمد الله على الدوام أحقاباً وأحقاباً إلى الأمام فيقول الناس اليوم ما كنت أقوله قبل عشرات الأعوام فذلك هو العمر الذى أحسبته سلفاً وأعيشه قبل حينه فلا يكلفنى انتظاره إلى الختام )<sup>(٣)</sup> .

وكان له ما أراد فلم يعش يوماً واحداً عبثاً ، أو عبثاً ، ولم يعش يوماً واحداً فضولاً .

غالبنا الردى فيه فانتزع منا والكتاب إلى جانبه ، والقلم إلى جانب

---

(١) حياة قلم ص ١٦٧ . (٢) كتاب أنا ص ١٣ .

(٣) كتاب أنا ص ٢٦٤ .

الكتاب . وعشنا بعده نردد اليوم ما كان يقوله قبل عشرات الأعوام . وسيظل هذا شأننا معه على الأيام . جيلنا على الأقل .

أقول غالباً الردى فيه لا تدبيج كاتب أو صناعة إنشاء ، ولكنى أقولها وبين يدي خطاب أرسله مصرى بسيط من غمار الشعب ، إلى الأستاذ العقاد يقول فيه :

أنا الموقع أدناه ببصمة يدي وتوقيع يوسف السيد غانم بطاقتي الشخصية رقم ٦٧٢ كرموز .

قد تنازلت عن دمي الذي يجري في عروقي تحت تصرف الأستاذ عباس محمود العقاد وليس بكثير أن أتنازل عن حياتي لأننا جميعاً مدينون لك بحياتنا ) .

(إمضاء)

قيمة هذه الكلمة المخلصة الطيبة تكمن في صدورها عن أحد أفراد هذا الشعب النبيل . . في صدورها عن رجل بسيط لا ينبغي بها منفعة أوجاهاً أو مالا . . وهل كان العقاد يملك هذا ليعطيه ؟ إن أنزه الناس أولئك الذين يكبرون العقاد لأنهم يكبرونه باعتباره قيمة كبرى وحسب ، ومعنى جامعاً .

ووددت أن أرى المصرى الذى تقدم ليفتدى العقاد . وسافرت إلى الإسكندرية وراء دلالة من يكون .

وهناك دلتى عليه بسطاء آخرون من قومنا كرماء . فقد كانوا يعرفونه بحبه للعقاد . . وآية هذا عندهم أن الرجل يكتب لهم العرائض . . أليس

هذا دليل فصاحة واطلاع ؟

ما أطيعهم . . وما أحبهم إلى . .

وبلغت داره . . دار ؟ إنها لا تزيد عن حجرة متواضعة .

وفي ركن من الحجرة الصغيرة منضدة خشب غطيت بورق الصحف  
رصت فوقها كتب الأستاذ العقاد وقد جلدت مجلداً شعيماً ولكنه يصور  
حفاوة صاحبه بصاحب هذه العبقريات .

أما مقالات العقاد فقد نسخها الرجل في كراسة وجمع كثيراً منها  
في ملف ١ ١ وأطلعني الرجل على كتابات أخرى صانها الرجل الطيب  
في حقيبة صغيرة كتب عليها ( عباس محمود العقاد ) .

وصارحت الرجل بمهمتي فأخذ يتدفق في الكلام كمن يجد رضا نفسه  
ويسمع عن ظهر قلب محفوظاته من كتابات العقاد .

وتقطع زوجته حديثه في سداجة محبة من أمثالها وتقول كأنها تريد  
أن تعطيني بدورها إضافة جديدة :

- أتدري يا ابنتي أنه لم يستطع أحد أن يخبره بموت العقاد إلا أنا ؟  
رأيت أولادى جميعاً في ذهول لا يدرون كيف يلقون إليه بالنبأ ولم أجد  
لى حيلة إلا الخروج من الكتمان .

وأصغيت إليها أتعجل النتيجة التي لم تصل إليها ببراءتها إلا بعد  
استطرادات شتى كشأن بنات البلد .

- ماذا كان من شأنه يا أماه ؟

- لا أراك الله مكروهاً يا ابنتي . . ماذا أقول وماذا أدع لقد انكفأ

يبكى بكاء مرًا .

ومما يضحك الثكلى قولها وهي تستعيد قولها له :

- بتبكي لي ؟

ويحها . . ألا تدري .

- دعيني أبكيه . . ده اللى علمنى الغلبة والعرائض !

\* \* \*

هكذا كان البسطاء ينزلون العقاد من نفوسهم . فكيف يكون وفاء  
من علمهم معنى الحياة ومعنى الشرف ومعنى الكرامة ، كرامة الأديب  
وكرامة الإنسان ؟

ما أكثر ما صنع وما أقل ما صنعناه .

يقول العقاد فى تذكار جيتى :

( من العبقرين من تعرف مداه بكتاب واحد أو قصيدة واحدة لأنه  
يرتقى إلى أوجه فى بعض أعماله فيأتى بخير ما عنده أو بكل ما عنده . وتعرفه  
حق عرفانه فلا تحتاج إلى تجربة له بعدها ولا تصيب فى التجربة الجديدة  
إلا تكراراً لا جديد فيه .

ومنهم من يعطيك جزءاً من عبقرية فى كل جزء من كتاباته ، فبعضها  
لا يدل على مداها كلها ، وتكرار القراءة فيها ينتهى بك كل يوم إلى جديد ،  
فلا غنى لك عن التجربة لسبر غورها ، والإحاطة بمداه ، والحكم عليها  
فى جميع أحوالها .

وجيتى من هؤلاء العبقرين الذين لا ينئى قليلهم عن كثيرهم ، لأنه

١٧٩

لم يجمع نفسه في قطعة واحدة ولا موضوع واحد ، فهو كثير الجوانب كثير التجزئة : الموضوع الواحد عنده لا يدل على كل موضوعاته ، والجزء الصغير لا يدل على جملة الموضوع . فكل فكرة له هي أصغر من الرجل في جميع أفكاره ، كما أن اليوم الواحد في غمار أيامه هو أصغر لا محالة من سنه الثمانين ) .

والعقاد أيضاً من هؤلاء العبقريين لتنوع آثاره وموضوعات كتابته وكأنما هي كلها من باب ( الفصول ) في كتاب العقاد .  
وعن جيتي أيضاً يقول العقاد :

( كان جيتي يغبط صاحبه شيلر لموته في العقد الخامس من عمره ، فذكره أبدأً مقرونة بذكرى الشباب المحبوب والنضارة المومقة .  
وقلما يصيب المرء في تمنيه ولو كان من الحكماء . فلو مات جيتي في سن صاحبه لضاع أكبر نصيبه من الشهرة، وهبطت مكانته في عيون قومه وعيون سائر الأقوام ، لأن طول عمره أقامه في الأدب الألماني الحديث مقام الأبوة والرجحان ، وأتاح له أن يتم ما بدأه من الكتب في أوائل الحياة .  
لكنه كان يتمنى ذكرى الشباب على خطأ أو على صواب ، فعزاء له ولا ريب أن تضمه الأرض إليها وهي في نضرتها وأن تلف ذكره في أكفان ربيعها ، فقد مات في الثاني والعشرين من شهر مارس خاتمة الشتاء ، فلا يذكره الذاكرون إلا بدرت إلى أذهانهم صور الربيع في مطلع وروده ورياحينه ) .

ألم يكن هذا توقيت الحياة لوداع العقاد ؟

واستقبلته أسوان فى الثانى عشر من شهر مارس حضارة حديثة، كما  
استقبلت من قديم الأزمان حضارتنا القديمة لتكون الأرض الواعدة والموعودة  
بالخلود .

سلام عليه .

وسلام عليها

منها خرج وفيها نشأ وإليها يعود .

وسوف يتسع العمران بأسوان ويزداد امتداداً . وسوف يقام فيها للصناعة  
صروح كثيرة . ولكن أعلى صروحها ، وأعلى ذخائرها ، سيظل ، عباس محمود  
العقاد بقدر ما تأصل فى نفس الفنان من إعلاء للفكر ، وإجلال للعقل ،  
واحتراف بالقلم ، وحُب للفن ، وتقدير للعلم ، وولاء للموهبة ووفاء لصاحبها .  
سيغير كل شيء فى أسوان . الحياة والأفكار والمجتمع ومعالم المدينة  
حتى الجبال ، ويظل ثابتاً كالعهد به عباس محمود العقاد ؛ لأنه تاريخ والتاريخ  
دائم ، ولأنه فكر والفكر قائم ، ولأنه قلم والقلم سائر ، ولأنه عصامية من  
طراز نادر ، ولأنه موهبة على مستوى رفيع ، ولأنه جامعة ، ولأنه شرف لجيله  
ومفخرة لمصرية لسائر الأجيال .

\* \* \*

وبعد ، فلعقاد موقف تجاه النفس وتجاه الآخرين . . . إنسان  
ثراؤه ليس خارجياً من ثقافة مكتسبة فحسب، ولكن داخلياً من مواهب  
الذات وقدراتها . شخص هو نفسه موضوع .

العقاد بما كتَبَ ، وبما كتَبَ عنه ثراء أغنى المكتبة العربية . وسيظل

يفنيها لأن بصمات العقاد على عصره ، لا يستطيع إخفاها كاتب في الأدب أو النقد سواء وافق العقاد أو خالفه . . مال إليه أو مال عنه . لقد غدا جزءاً من نسيج شخصيتنا الفكرية . . وحسب المرء من وطنه أن يغدو سمة من سماته ، أو قسمة من قسامته ، لا تخطئها عين القريب أو الغريب .

\*\*\*

بقيت كلمة : كان العقاد يبحث في شخصية شعب المترجم له تماماً كما يبحث في شخصية العظيم أو العبقري صاحب الترجمة . فلو طبقنا هذا المنهج في ترجمة العقاد وتساؤلنا ما الذى أخذه العقاد من الشخصية المصرية ؟ وجدنا أكثر من نقطة التقاء . . . أخذ العقاد من مصر :

الشخصية المصرية كيفها النبات إلى حد كبير وإذا عرفت النفس المصرية الزراعة منذ القدم عرفت التجدد والنماء وشق الطريق كما تشق البذرة الأرض في إيمان ووثوق وهو ما فعله العقاد إذ زرع نفسه وشق طريقه . . .  
وكالبذرة عرف النضج المشغول على مهل . . كالنبات عرف العقاد العمق كالجذور الضاربة في الأرض ، والارتفاع كالجدوع الصاعدة في السماء . .  
في مصر كل شيء باق ، مزروع أصلاً . . الفلاح يزرع في الوادي ، والراهب يزرع نفسه في الصحراء التي نشأت فيها الراهبة المصرية بالقراءة والحكمة والنمو بالذات إلى أفق المعنى وسماوات الروح والفكر . لقد ابتدعت مصر الراهبة في المسيحية ، كما وضعت أسس التصوف في الإسلام . . .  
وأخذ العقاد الخلود من مسيحية مصر وإسلامها معاً . فكما آض آباء الكنيسة المصرية إلى الصحراء احتجاجاً على مجتمعات المدينة في عهد الرومان ،

أخذ العقاد إلى بيته ومعبده ، حين تعب من الأحزاب والمعارك . وكما غدت  
الخلوة علامة في طبع مصر ، غدت الخلوة طابعاً في شخصية العقاد .

وكالراهب خلع العقاد للفن . . . . . وكالراهب زرع نفسه .

وكالمتصوف عكف العقاد على القلم ومن التصوف كل عكوف على  
عمل عظيم ، وإذ عرفت مصر الزراعة عرفت الأعماق والأشواق فارتفعت  
المسلات ثم المآذن طموحاً مشتاقاً يرتاد آفاقاً علوية ما تلبث أن تتجسد  
على الأرض عمائر ومناير وعلوم وفنوناً وحكمة . . . . . وكم آفاقاً ارتادها طموح  
العقاد حتى ارتفع شخصاً ، وشخصية ، وكأن بداخله مسلة أو مثدنة من  
سراوة العمود وتكثيف المجهود وعمق المعنى والدلالة . . . . . إن حامل المؤهلات  
متعلم ولكن الثقافة شيء آخر جرد بعيد . الثقافة نمو النفس . . خبرة مقطرة . .  
وفي العقاد من الشخصية المصرية ، المقاومة إلى حد الفداء إذا اعتقدت  
في شيء أنه الحق . . . . .

وفيه منها الاستعلاء على الأحداث .

وفيه منها طاقة التحدى . . . . .

وفيه منها حب الفكاهة التي تغسل بجرأ من الآلام ، إن الدعابة  
المصرية فيها رقة وصفاء من أثر التاريخ الطويل في الحضارة ، فالعقاد  
الذي يحسبونه صارماً عابساً كان يهش للنكتة ويضحك لها ضحكة  
مجلجلة . . . . . ويرويها أحياناً كثيرة .

وهكذا تدخلت في صنعه البيئة واللحظة المعينة .

حتى الصعوبة التي اتهم بها العقاد وهي جدية ، صفة مصرية قديمة



١٨٣

عندما كانت حضارة مصر طرحها فينان . . فالنفس المصرية بعبائها نفس  
أرستقراطية لا بالمعنى المادى أى الثراء الفاحش ، ولكنها أرستقراطية بالثراء  
العريض فى الفن . . . فى الإدراك . . فى الحكمة .

ومن العجيب أن غير العارفين بها حين يريدون الراحة . . السهولة . .  
يربطون الشعب بالعامية ، حتى يتخففوا هم أنفسهم من قيود الفن ومجاهداته .  
والعامية التى أقصدها ، العامية الفكرية لا لغة الحديث فإن لغة  
الشعب ، البعد عنها ، بُعد عن بواطن ومواطن الحكمة . . .

إن الفكرة الثابتة أو التسرع فى الحكم على الأعمال الفنية ، قتل . . .  
المتسرع قاتل للفنان وقاتل لنفسه أيضاً حين وكل لسانه بقطع رسائلها عنه . . .  
إن الثروة وإلقاء الأحكام بلا تثبت ، ترحم السكون بالضوضاء فلا يسمع  
المشاهد ، الأصوات الدقيقة الهامسة الآتية من أعماق النفس متلاقية  
أو متوازية ولكنها متحابة . . .

وفى العقاد من الشخصية المصرية تمجيد البطولة والمثل الأعلى منذ  
تعلقت مصر بإيزيس . . وأوزوريس . . وحورس . . ثم الملوك والمعبودات  
المختلفة .

وشخصيات العقاد التى ترجم لها تمثل نواحي من قوة العقل . . قوة  
الروح . . قوة الخلق . . قوة المبدأ . . حتى قوة الشر مثله فى الشيطان .

هل كانت كتابته عن العظماء صدى لإحساسه بالفرد أو بتفرده من باب  
جاذبية التشابه ؟

هل كانت كتابته عن الأبطال بتأثير عصر كان يتقدمه أفراد مميزون

١٨٤

تستوى زعامتهم الجموع فتسير خلفهم في السياسة أو الفن على السواء ؟  
قد يكون هذا كله مجتمعاً ومتفرقاً ولكنه في كل صوره يرجعها ينم عن  
إيمان راجح بالإنسان وقدرته على الوصول إلى قمة . . ولعل مقدمته لعبقرية  
محمد خير دليل . وكأنه توماس كارليل العرب .

## ترجمة حياة

الأستاذ عباس محمود العقاد ١٨٨٩ - ١٩٦٤

عصره - بيته - مولده - أبواه - أسوان -  
طفولته - المرض - مقومات شخصيته  
(فرديته - عصاميته - ارتفاعه على  
التقليد) - حربه الشيوعية - ثورته على  
الشعر العربي التقليدي - مقاييسه  
الفنية - احترامه للإنسان - العقاد  
وديون الأوقاف - ساعات بين الكتب -  
الإنسان الثاني - مجمع الأحياء - نفوره  
من الوظائف - تحديه للاستعمار -  
تاريخه معه - تاريخه في الصحافة -  
تاريخه في التدريس - تاريخه السياسي -  
حربه الملكية - سجنه - رفضه المناصب -  
اللغات التي علمها نفسه - أسلوبه -  
تعدد جوانبه ومواهبه - العقاد شاعراً -  
العقاد كاتباً - لازماته في الكتابة -  
العقاد والمرأة - ظاهرة النور في أدبه .

قصدت بكتابي هذا عن رجل الفكر والأدب الأستاذ العقاد أن

يكون كتاب رأى . لهذا تأتى ترجمة حياته آخرأ لا أولاً على عادة التراجم . . .  
تأتى تطبيقاً أو تفسيراً لصفات رأيته فيها لا مقدمة لها . . . إنها خطوط  
مكملة فى صورة العقاد الإنسان . . . وكثيرون يتطلعون إلى مثل هذه  
الخطوط فى صورة كتابهم المفضل أو قدوتهم المختارة بين نماذج البطولة  
والأبطال . . .

وقد سبق أن رسمت له صورة قريبة من هذه عندما أصدرنا ، تلاميذه  
ومدرسته ، بمناسبة عيد السبعين ، كتاباً . وعنوانها فى ذلك الكتاب كان :  
( لمحات من حياة العقاد ) . وقد « لمحها » فى كتابهم بعض من كتبوا عنه  
فى سلسلة أقرأ قبل هذا . . . ويبدو أنهم نسوا الإشارة إليها، كما نسوا الإشارة  
أيضاً إلى ما جاء بكتابي ( قعم أدبية ) عن العقاد . ولهذا يحسن ورودها هنا  
ليعم الاطلاع عليها بما تتيحه هذه السلسلة من ذبوع القراءة وتعدد القارئين

\* \* \*

لقد رأى العقاد عظمة شكسبير أعجوبة خارقة ورآه كاتب الأعاجيب  
وإن لم يكن فى سيرته خبر غريب . ولكن العقاد أعجوبة خارقة فى سيرته  
وفى أعماله على السواء . فقد ولد شكسبير فى عصر يعين على نماء البذرة  
الكامنة فى صاحب الموهبة وازدهارها . كان عصر شكسبير فى إنجلترا عصر  
الفن والمسرح والغناء ، ولكن العقاد ولد فى عصر تكتفه ، فى مصر ،  
الظلمات من كل ناحية . فى السياسة احتلال يكبل الحريات ، وفى الأدب  
عفن يجتد الأفلام ، وفى المجتمع ركود فى كل شىء تحتق فيه العبقريّة  
إلا إذا ظهرت من نفس صاحبها إرادة ماردة تتحدى وتتخطى وتستعلى على

الأحداث ، والناس ، واليأس ، والجحود ، كما فعل العقاد .

\* \* \*

منيت مصر بالاحتلال سنة ١٨٨٢ وولد عباس محمود العقاد في ٢٨ يونيو عام ١٨٨٩ . وكان مصر بعد الغاشية ولدت من جديد . فإن وليد أسوان كان حدثاً ضخماً في حياتها هز فيها كل شيء : الأدب والسياسة والوزارات والأحزاب والملك نفسه .

وإذا كان زمن المولد لا يني بمستقبل الوليد، فإن مكان المولد يبيته الخاصة والعامة يصلح ركيزة للشخصية الفريدة الواعدة . . ركيزة فحسب تمدد بالعرق أو الفطرة أو بالعوامل المساعدة بما يعينه على قطع الطريق الملىء بالجلاميد إلى أعلى القمم في تاريخ الفكر المصري والأدب المصري والخلق المصري والشخصية المصرية بكل ما يدخل في مضمون هذه الكلمة من وراثات التاريخ، وصفات الإنسان على هذه البقعة من الدنيا ذات الأثر . ولد العقاد في بيت عرف صاحبه بحب العزلة وطول الصمت والتقى . فقد كانت أمه من أسرة تنسب نفسها إلى النبي صلى الله عليه وسلم . وسواء أصبحت هذه النسبة أم لم تصح فإنها تضمنى على القائلين بها جواً خاصاً يليق بها . وهذه السيدة التي ولدت لمصر موسوعتها الحية، كانت لا تعرف القراءة والكتابة إلا أنها بالغة الدكاء خاصة في المسائل الرياضية : حازمة حتى لقد كان الأهل يطلقون عليها ( المشدة ) وهو مقدم الفعلة الذي يسوقهم بالقوة إلى العمل ، دموب ، ولوع بالنظافة ، حريصة عليها ، وعن هذه الأم أخذ العقاد الجانب الذهني كما أخذ ملامح الوجه .

أما والده فقد كان على رزائة فيه ، يؤدي عمله بلا إفراط ذكاء .  
كان أمين المحفوظات بأسوان . وكانت في عهده مستندات أملاك مديرتي  
إسنا وأسوان اللتين هجرهما أهلها أثناء حرب الدراويش مخلفين وراءهم  
أموالهم ثم عادوا . فكان الحصول على سند ملكية يهون لدى صاحبه في  
سبيله أى ثمن ، ومع هذا تعفف الرجل فلم يستغل وظيفته ، ومثل هذه  
الظروف محك لأخلاق الرجال .

وبهذه الصفات المميزة استطاعت هذه الشجرة المباركة أن تتمكن  
لنفسها في وادينا العجيب الخصب ، فثبت أصلها في الأرض وبلغ  
فرعها السماء بما غلته من مواهب العقل والقلب وصفات الإصرار والصبر ،  
وسمات التعفف والترفع والإيثار حتى اجتمع له من صفاته النوايا شعوراً  
بالمناعة يبلغ حد العجب أو الخيال .

\* \* \*

ونشأ العقاد في مدينة يلتقي فيها الماضي السحيق بالحاضر . ففي أسوان  
خاصة في الشتاء تلتقي أحدث صور الحضارة الحديثة بآثار الماضي العريق  
لا في المتاحف وحدها بل في البيوت ، فالحياة هي الحياة والوسائل هي  
الوسائل كأن كل شيء ثابت في مكانه لم يتحرك إلا الزمن .

وفي ملتقى الحياتين شب العقاد . فتح عينه الطفلة على الفتاة الباريسية  
والليدى الإنجليزية ثم المرأة الأسوانية المحجبة حتى ليعز على المرء أن يعرف  
أمه في الطريق . وهو وإن لم يعط هذا النقيض أهمية في طفولته إلا أنه قد  
لمسه في سن الوعي وملاً عليه إحساسه . فقد منحه بسطة في الأفق، كما

أعطاه قابلية الإحساس بسعة الحياة . وطبعه على الاستعداد للتقابل وعدم الإحساس بالتنافر .

ومرة أخرى تظهر مدينة أسوان في الصورة التي تراها وتقرأها وتلمسها عيوننا اليوم . فلما كانت مدينة سياحية بل مشى عالمياً فقد غصت بالمكتبات لمنفعة السائحين ، وهى بالطبع عامرة بكتب الآثار والتاريخ والقصص والمجلات . فكان العقد يتردد عليها ويعب منها ما وسعته الطاقة والرغبة . وكان ذا نفس طلعة يندس بين السائحين ويتحدث إليهم ليمرن على الكلام بالإنجليزية . وقد مكن له من طلبته أيضاً المجالس المختلطة التي كان يدعى إليها . فقد كان بعض الأجانب ممن يزورون معالم المدينة يدعون ناظر المدرسة والطلبة المتقدمين ، فتسنى للعقاد في حديثه أن يجالس صفوة الأجانب رجالاً ونساء .

ولا شك أن الأمر هاله بادئ ذي بدء ولكنه واجه الموقف واستفاد منه . يقول العقاد عن أسوان في مذكراته :

« كانت البلدة التي نشأت فيها بلدتي أسوان بأقصى الصعيد ، يكاد الناشئ في مثل سنى أن يأوى إلى صومعة من صوامع الفكر يقلب فيها وجوه النظر في كل ما يسمع أو يبصر من الشئون العامة ، بغير تضليل أو تهويل . . . وتهب الزوبعة القومية فلا تفاجئنا في وسط غبارها لتعمى البصائر عما فيها ، ولكنها تقترب منها رويداً رويداً فلا تصل إلينا حتى تنكشف على جلاء . . » .

يضاف إلى هذا كما يقول العقاد حالتان طارئتان على أسوان - في ذلك الحين - لم تجتمعا لبلد من بلدان السياحة . هما حملة السودان وبناء الخزان .

ففى أثناء حملة السودان كان الحاكم العسكرى ومحافظ المدينة وقاضى المحكمة وقادة الفرق الموزعون على المصالح طائفة من الإنجليز العسكريين أو المدنيين لا يعرفون العربية . وكان كل بيت فيه ( ولد من أولاد المدارس ) مرجعاً نافعاً لقراءة الأوراق الرسمية أو ترجمة العرائض إلى ( الحكام ) على حسب الاجتهاد . وكان ( نصف الفرنك ) نفحة سخية يحصل عليها ( الولد ) المترجم الذى يستطيع أن يخط فى الورق بضعة سطور تدل على معنى من المعانى مفهوم بالإشارة أو التخمين . فأما ( الولد ) الذى تتكرر الشهادة له بحسن الترجمة فنصف الفرنك قد يصعد فى معاملته إلى نصف ريال ، ويزداد التقدير مع زيادة القراءة أو الجوار .

أما بناء الخزان فقد جلب إلى المدينة مئآت من المهندسين والخبراء والمفتشين يقرءون الصحف الافرنجية طوال العام ، ويدفعنا حب الاستطلاع إلى النظر فى هذه الصحف وفى صحف السائحين ، فلا يفوتنا ( مع تتابع النظر ) أن نعرف أقسام الصحيفة وعناوينها وأماكن البرقيات والأخبار منها ، وأن نختطف عبارة هنا وتعليقاً هناك فلا يخفى علينا معناها بالمقابلة بعد المقابلة أو بالتصحيح بعد التصحيح . . . »

( آخر ساعة العدد ١١٩٣ - ١٩٥٧/٩/٤ )

\* \* \*

نستطيع أن نقول فى العقاد ما قاله فى كتابه عن برناردشو من أن نشأته فى أسوان ( ونشأته فى أسرته ، ونشأته فى أبويه ، ونشأته فى جيله السياسى ، ونشأته فى جيله الثقافى - كل أولئك على صلة وثيقة بعنصر من عناصر



حياته ، أو عنصر من عناصر استعداداته وعمله في حياته الفنية والثقافية ) .  
هذا الفتى الذى صنعته أسوان على عينيها رفض طفلاً أن يلبس البنطلون  
القصير كما رفض وهو في السابعة من عمره تلميذاً صغيراً أن يدعوه المعلم  
باسم ( عباس حلمي ) كما جرت عادة أهل ذلك العهد الذى كان الطفل  
فيه لا يذتر اسم أبيه بل يطلق عليه أحد الأسماء التقليدية ، حلمي -  
صبرى - لطفي - شكرى ( على حسب المطابقة لأسماء المشهورين أو الموافقة  
لجرس القلب وزينه في الأسماع ) .

وهكذا عرف الطفل في العقاد ، الرفض ، مبكراً . عرف الاعتزاز  
بالنفس والاعتداد بالذاتية ، هذه الصفات التى رسمت طريق حياته . .  
وحياتنا بالتطلع إليه، والاستمداد منه، والتأسى به . . . بل لعل موقف طفولته  
البطولى بالنسبة إلى سن السابعة وبالنسبة إلى الشائع بين لداته مما لم يميز  
عليه ولم يقبله يفسر قوله عن نفسه صادقاً في ( سارة ) ( أنه مطبوع على ألا  
يلقى قيمته في معارض الفخر والمباهاة على رأى إنسان من النساء أو من  
الرجال ) . وهو جبروت لم يتخل عنه حتى في السجن ، عالم السدود والقيود !!  
لم يتخل عنه جبروته ورغبة القدرة في تتبع الآخرين لها ولو كانوا هم  
الطلقاء !! . دخل العقاد السجن فجعلت نفسه الماردة - وهو ما لم يسمع  
به من سجناء . ( العالم الخارجى جزءاً لاحقاً بالسجن مضافاً إليه )  
ويرى العقاد تلك الشيمة في النفس - الإنسانية . والحقيقة أن ( الشيمة )  
لا يقدر عليها إلا نفس العقاد . . هى وحدها التى تستطيع أن ( تنقل مركز  
الكون كله إلى حيث تكون ) .

\* \* \*

وفى مطلع حياته كان يقرأ كرفاق صباه صحف عبد الله النديم ، ولكن على طريقته هو (ولفتنى العناوين البارعة فقرأت كل ما وجدته من صحف النديم ووجدتني ذات يوم أقطع الورق قطعاً على قدر المجلة وأعمد إلى مكان العنوان منها فأكتبه متأنقاً وأعارض عنوان « الأستاذ » بعنوان « التلميذ »). هنا تطل شخصيته . . تطل الذات لتأخذ (موقفاً) في موقف يغلب فيه التسليم والاتباع .

(أما المقالة الافتتاحية فقد كانت أيضاً من قبيل المعارضة لمقالة من أشهر المقالات التي تردد صداها زمناً في البيئات المصرية ، وهي المقالة التي جعل عنوانها « لو كنتم مثلنا لفعلم فعلنا » وافتتح بها الجزء الثاني والعشرين من السنة الأولى .

فكتبت مقالاً الافتتاحي وجعلت عنوانه « لو كنا مثلكم ما فعلنا فعلكم » . ومرة أخرى تطل الذات العقادية الشموس فيستشرف إلى أبعد من هذا ولا يرى نفسه تلميذاً في مدرسة النديم ولا يشعر بأن (الرجل قدوته المختارة بين أمثلة النبوغ التي يتمناها أو بين الشخصيات المثالية التي يحلها ويحب أن ينتمى إليها) .

على أن الرجلين يلتقيان في أكثر من وجه شبه فكلاهما تعلم صناعة التلفزيون ، وكلاهما اشتغل بالتعليم في مدرسة خيرية ، وكلاهما طورد من البوليس وتكر مستخفياً .

ولكن الأمر لا يعدو وجوه الشبه التي تصنعها المصادفات أو مقارنات

١٩٣

الكتاب في معرض التاريخ وكتابة السير . فإن العقاد يمتد امتناعه على الاقتداء فينسحب على غير النديم حتى ممن يفوقونه . فليس بين العظماء السابقين واحداً اتخذ منه العقاد مثله الأعلى على إعجاب بهم وتقدير . وتأثر ، يفرضه ولو بدون وعي ، الإعجاب والتقدير ، خاصة ، في مطلع حياته حين كان يحتفى بقراءة كارليل ، وماكولى ، وهازلت ، ولى هنت ، وأرنولد وغيرهم من أئمة المقالة في القرن التاسع عشر . وترك هؤلاء الكتاب انطباعاتهم عليه فترجم عنهم حيناً وترسم نهجهم حيناً آخر فيما كتبه عن أدباء العرب والفرس ومسائل النقد والتعليق .

وإذا كان العقاد لا يطيب له أن يكون هناك أشخاص في حياته يجري ذكرهم في قلمه أو يعرض حديثهم على لسانه ، فلعلها من الموافقة التي تلتقى في الهوى على غير خلاف، أن نذكر في باب المؤثرات شيئاً يحسب له لا شخصاً يحسب عليه عند الرجحان . والشيء الذي كان له في حياته مكان أو أثر هو المرض الذي ألم به في فجر شبابه وإن لم يذكره العقاد ، بل لعله يخصه بإغفال ، ومع هذا يرى له كاتب كالأستاذ محمود تيمور ( الأثر الأعظم في تكوين حياته وإبراز طابعه ) - فقد اضطره المرض أن يحيا حياة عزلة واعتكاف ، فانفسح المجال لميوله الأدبية كي تشبع نهمها إلى القراءة والدرس في ذلك المعزل .

وكان من أثر الاحتجاز في صومعة القراءة والدرس أن تمكنت في خصائص ( العقاد ) ملكة التأمل في الحقائق ، والتعمق في الأفكار ، فاكتست فصوله تلك الصبغة ، من أسلوب رصين وتفكير دقيق ، وإحاطة شاملة

وهذا المرض كان من أثره أن استقر في قلب (العقاد) حب الحياة والتشبث بها والكفاح في سبيلها ، فإنه لما وإتاه الظفر في عراك المرض ازداد تعلقاً بالحياة ورغبة في التمتع بأطاييبها ، فكرم نفسه ونعمها ما وسعه التكريم والتنعيم . فلم يجمع العقاد مالا ولم يدخره ، بل أنفقه على فكره ، وعلى نفسه ، وعلى من يلوذ بحماه . وكان من عتبي ذاك الظفر أنه أورثه زهواً وعزلة ، وثقة بالنفس ورهاقة شغور بالكرامة ، واذكبي بين جنبيه نزعة المغالبة والمصاولة والإصرار . فتجلى في حياته وفي إنتاجه هذا اللون من القوة والصراع وصلابة القناة فكان بصفاته الفريدة حدثاً ضخماً في حياته وفي حياتنا . كان العقاد يذهب إلى رئيس الحكومة ويجلس الوزراء منعقد فيخرج من الاجتماع للقائه في مواعده لأنه يعرف خطر موعد العقاد . كان دقيق التفكير . . دقيق النظام . . دقيق الموعد . . دعاه نائب قنا ثم تأخر عن استقباله بالمحطة . فلم يغادرها العقاد انتظاراً للقطار العائد . وعبثاً حاول الرجل استرضاءه . فلما أعيته الحيل نقل سراق الاحتفال إلى المحطة حيث هو .

\* \* \*

وعقيدة احترام الإنسان ، اقترنت في رأيه وضميره بالكرامة الشخصية ؛ فزهده بل نفرتة من الوظائف الحكومية التي تولاها ، والتي كان سرعان ما يضيّق بها . فحين عين بانقسم المالى بادئ الأمر في مديرية الشرقية ، فكر في الاستقالة لينشئ صحيفة اختار لها اسم (رجع الصدى) ثم عدل عنها .

١٩٥

وفي الفترة ما بين ١٩١٢ ، ١٩١٤ التي عمل فيها بديوان الأوقاف لم يكن راضياً كل الرضا مع أن عمله في قلم السكرتارية من ذلك الديوان كان مزيجاً من الصحافة والوظيفة . وكان ( ديوان الأوقاف في تلك الحقبة مجمع الأدباء والشعراء من شيوخ وشبان . كان فيه محمد المويلحي وأحمد الأزهرى صاحب مجلة الأزهر وأحمد الكاشف وعبد الحليم المصري وعبد العزيز البشري وحسين الجمل وإخوان هذا الطراز ) ومع هذا ما إن فاتح حافظ عوض ، العقاد ، في الإشراف على صفحة الأدب بصحيفة المؤيد حتى سارع إلى القبول . على أنه لم يلبث أن استقال لسمه من سمات الكرامة في نظره وتقديره ، وكانت استقالته رابحة فقد خلا بعدها إلى القراءة والتأليف .

ويفصف العقاد هذه الفترة بأنها كانت موسماً خصباً حقاً بشمرات التأليف ( لأننى انتهيت من كتاب : « ساعات بين الكتب » في نحو خمسمائة صفحة ، وأودعته ثمرة الاطلاع والتأمل في أهم مذاهب الفكر الحديث . وأولها مذهب داروين ومذهب نيتشه السوبرمان . وهذا الكتاب الذى ظهر بعد ذلك باسمه وأعيد طبعه مرات ، لأن « ساعات بين الكتب » التى كتبتها في أسوان ضاعت مرتين ولم يبق منها غير خمسين أو ستين صفحة . وفرغت من كتاب غير الساعات ، عن المرأة سميت « الإنسان الثانى » ولم يبق منه كذلك غير صفحات .

وأنتمت رسالتى « مجمع الأحياء » تلخيصاً للآراء في فلسفة النشوء وفلسفة القوة وفلسفة الفطرة التى تهذبها الرياضة النفسية والاجتماعية ،

وهو الكتاب الوحيد الذى تم ونشرته تماماً بعد تأليفه بفترة وجيزة .  
ونظمت فى هذا الموسم الأسوانى أكثر من نصف قصائد الجزء الأول  
من الديوان، ومنها قصيدة دالية مطولة نبذتها بعد ذلك لأنها تعبر عن دفعة  
من دفعات الفكر لم يبق لها فى نفسى سند سليم ولا مسوغ مقبول .  
ولعل كرهه للوظائف وعدم استعداده الطبيعى أو الخلقى لها هو الذى  
أقنعه بعدم التأهل لها بمؤهلاتها التقليدية من شهادات كانت فى زمانه ،  
خاصة لا تقصد فى الأعم الأغلب إلا لما تهيه لصاحبها من وظيفة تنسبه  
إلى الميرى وتحسب عليه . فاكتفى العقاد من مدرسة الدولة بالشهادة  
الابتدائية حين لم يقنع من مدرسة الحياة بما هو أكبر بكثير . فظل حياته  
طالباً فى تلك المدرسة وأستاذاً بها يتعلم عليه فيها حملة الإجازات بمختلف  
مراتبها وألقابها .

وهذا القلم الذى استقر نصف قرن بين أصابع العقاد فى ثبات واعتداد  
كان له درعاً وكان له سلاحاً، فحين نشبت الحرب العالمية الأولى ومست  
أسوان بالتجنيد الإجبارى والاعتقال المتكرر والإتاوات لتعلمات ملفقة ،  
شهر العقاد سلاحه الخاص : القلم . فكتب ونشر فى تحد ظاهر هو سمة  
من سمات العقاد حتى إن السلطات عند ما نفت ناظر مدرسة المواسة إلى  
جزيرة مالطة، تعمد أن يشغل مكانه ( تحدياً للأمر ) كما يقول .

ويبدو أن التحدى أفاده هذه المرة فإن مدير الإقليم حين ضاق به،  
عليه نفيه إشفاقاً أن يقال إنهم يضطهدون المدرسة الإسلامية الوحيدة  
فى البلدة ، وإن احتال للأمر فصدمه بمفتش الداخلية الإنجليزى حتى

١٩٧

اضطر العقاد إلى أن يرحل من أسوان متنكراً . ولكنه لم يكف عن حربهما حتى أودى بهما في النهاية . فإنه لم يكديطاً أرض القاهرة حتى لا ذ ( بجعفر والى باشا ) وكان صديقاً . وكان في ذات الوقت وكيلاً للدخالية فكان يصطحبه كل يوم إلى مكتب المستشار ليشهده على كذب التقارير ضده التي تفد كل يوم من أسوان منذرة بخطر وجوده في الإقليم ، مما أدى إلى إحالة المدير إلى المعاش قبل موعد الحركة الإدارية . فخرج من أسوان ولحق به المفتش . ومن الطريف أن المدير الذى خلفه كان يدعى « مقبل باشا » . فأبرق العقاد إلى أصدقائه في أسوان يقول :

شمر مدبر وخير مقبل

\* \* \*

وحيث كان العقاد يعمل في وظيفة بمصلحة الإيرادات بقنا - وهي مركز أدبي قديم - أنشأ مع أهل الأدب بها - جمعية أدبية كانت تجتمع يوم الخميس من كل أسبوع في مبنى الكنيسة باتفاق مع قسيسها البروتستنتي . ثم خلف الصعيد وسافر إلى القاهرة وعمل بالكتابة والصحافة . وتاريخ العقاد في الصحافة يبدأ بصحيفة « الدستور » التي أصدرها الأستاذ « محمد فريد وجدي » منذ نصف قرن . فقد كانت أول صحيفة يومية عمل في تحريرها وأول صحيفة أيضاً واطب عليها . فقد عمل بها من العدد الأول إلى العدد الأخير مضطرباً بنصف أعباء التحرير والترجمة والتصحيح وتهذيب الرسائل والأخبار . فقد كان هو المحرر الوحيد مع صاحبها .

وقد كان العقاد يوقع مقالاته الأولى باللقب وبالحرفين الأولين من اسمه : « ع. م. العقاد » متأثراً بالمجلات الأجنبية التي كان يقرأها . ومن الطريف أن هذا لفت إليه النكتة المصرية فكان رفقاؤه يسمونه « عم العقاد » ويتفكهون « ماذا تقول يا عمنا » . إلخ .

ولكنه في سني الحرب انصرف أكثر وقته إلى التدريس . ولكن علاقته بالصحافة لم تنته وإن كانت قليلة متقطعة على تعنادها وتنوعها . فقد اتصل بألوان من الكتابة الصحفية أتاحت له الوقوف على طرف من أسرارها وخباياها . وفي هذه الفترة كتب إلى المجلات الشهرية والصحف الأسبوعية كما اشتغل بالصحافة اليومية في غير القاهرة .

وقد عمل العقاد رقيباً نزولاً على رغبة « جعفر والى باشا » وكيل الداخلية . ولكنه لم يلبث أن اصطدم بالرقيب العام مستر « تيلور » في ذلك الوقت فالتى إليه باستقالته ولما يعرض عليه غير أسبوع .

\* \* \*

ثم اشتغل بالتدريس في مدرسة وادى النيل الثانوية على مقربة من مكتب المقتطف والمقطم حيث كان يكتب في فلسفة المعرى وفلسفة شوبنهاور مقارناً بينهما . وقد استدعاه ذات يوم الدكتور يعقوب صروف واقترح عليه الرحلة إلى الخطوط الأمامية في صحراء سيناء ليصفها بثاً للطمأنينة في النفوس . ولكن العقاد رفض لأن الدفاع في ذلك الوقت كانت تقوم به دولة الحماية وهو يناوئها .

ثم انقطعت به الأسباب حيناً قبيلاً انتهاء الحرب العالمية الأولى فأوى



١٩٩

إلى بيته الذى اختاره بحى الإمام الشافعى متعمداً ليكون بعيداً عن القاهرة بتكليفها ، فلم يكن يفد عليها إلا مرة فى الأسبوع هى يوم السبت . وفى إحدى هذه الزيارات علم أنه مطلوب للتحرير فى صحيفة « الأهالى » بالإسكندرية .

وكانت « الأهالى » إحدى ثلاث جرائد كانت شبيهة بالرسمية . فقد عمل على إنشائها « محمد سعيد باشا » رئيس الوزارة فى ذلك الحين لتكون لسان حاله . ومن الطريف أن اسمها هو نفس الاسم الذى كان إسماعيل أباطة باشا يصدر به صحيفته . وقد وقع الاختيار على هذا الاسم بداته ( لأن اسم « الأهالى » يقابل اسم « الشعب » واسم « الأمة » مصبوغاً بالصيغة التى تدل على معنى « الرعية » ولا يفهم منها معنى المقاومة والثورة كما يقول العقاد ) .

ولما شرعت صحيفة « الأهالى » فى مهاجمة رأى السياسى الذى كان يتشيع له العقاد ، تركها وعمل بجريدة الأهرام حيث كان يدافع بقلمه عن القضية المصرية . وقد حدث عند ما أعلن ملتر بلاغه أن ترجمته الحكومة فى بلاغها الرسمى ( أن الغرض من التحقيق إعطاء الاستقلال « تحت أنظمة دستورية » ) وشابعتها الصحف بإيعاز منها ما عدا الأهرام . فقد رأى العقاد هذه الترجمة مدلسة وانفرد بترجمتها « تحت أنظمة حكم ذاتى » . حدث هذا فى ظل الأحكام العرفية . وكان هذا التزوع إلى إشهار الحقيقة والبر بها ، أحد الأسباب التى عرضته للنفى يوماً .

\* \* \*

كما حارب العقاد الملكية في مصر بلا هوادة من أجل الدستور وإرساء قواعد الحياة النيابية . فقد حدث أن سلم عبد الخالق ثروت الدستور للسراى حيث ظل بلا إعلان لأن الملك فؤاد كان يريد أن يسقط من الدستور عبارتين أولهما ( الأمة مصدر السلطات ) ، والأخرى ( الوزارة مسؤولة أمام البرلمان ) . وفى سبيل هذه الغاية حاول استمالة بعض الوفديين ، فإذا العقاد يفتح عينه على المكيدة . فكتب مقالة يقول فيها إن الدستور كما تُحِبُّ يعلن . وإذا كانت به أخطاء فإن البرلمان يناقشها . وقدر لهذه المقالة إحدى اثنتين إما أن يرفض البلاغ نشرها فتتكشف الحقيقة ، وإما أن ينشرها فتحبط المؤامرة . ونشرت المقالة وأبطل التدبير الذى بُيِّتَ بلبيل . . .

ثم توالى الوقائع . حدث أن أقال الملك فؤاد الوزارة الوفدية وأقام وزارة يرضاهها . وهذا نذير يهدد بإلغاء الحياة النيابية . فوقف العقاد على منبر البرلمان يعلنها مدوية أن شعبنا قادر على سحق أكبر رأس تتعرض لحياته . وحفظها له الملك فؤاد .

على أن العقاد لم يكتف بهذا بل ظل يكتب مقالات عن الرجعية يرتد الهجوم فيها بلا مشقة إلى الملك فؤاد فأفضى به الأمر إلى السجن .

\* \* \*

وحياة العقاد سلسلة طويلة من الكفاح . . الكفاح بكل ألوانه . . الكفاح الأدبي والسياسي والمادى أيضاً . فقد صارع الرجل الزمن والأحداث والسلطات فى عهود شتى حتى استطاع أن يزحزح كل القوى المعوقة ، وينفذ

٢٠١

إلى مكانه الطبيعي في الحياة . وكان يقضى الليل يقرأ على ذبالة مصباح  
ويقضى النهار على وجبة واحدة من الخبز والجبن أو من الخبز والفول . .  
وتعقبه في أعقاب الحرب العالمية الأولى الاستعمار والسلطات المائلة له ،  
ولكنهم لم ينالوا منه شيئاً غير أن أخرجه من بلده أسوان ليعود . واضطهده  
الملكية حتى أودعته السجن ، وعرف مرارة الغبن والجحود فعاش منفرداً ،  
معتداً ، جميعاً بنفسه ، كثيراً بشخصه الفرد . . غير آبه بمن يعيرون عليه  
التفرد أو العزلة أو الاعتداد . خلص للأدب والعلم فخلصا له . وعاش بين  
كتبه لا يمل صحبتها ولا تمله . . كلاهما غنى لصاحبه وكفاء . . وقد انتظمت  
حياته على القراءة والكتابة فهو إما أن يستريد وإما أن يزيد . . رفيقه في  
العمر كتاب هو قارئه أو هو كاتبه فليس غيره على الحالين صاحب وخدين .  
وقد أوتى العقاد الكتابة بكل ملكاتها ومواهبها ففاض بالشعر ، وتوسع  
في المقال ، والنقد ، والتاريخ . . واللغويات ، والدين ، والفلسفة ،  
والعلوم ، وعالج القصة . وبهذه المواهب المتنوعة المتعددة ، مصحوبة  
بالقدرة على التأمل النافذ من ذهن موسوعى استطاع العقاد ، كما يقول  
الدكتور عثمان أمين ، أن يفتح في عالم الفكر (طريقاً طويلاً بلغ فيه بجهد  
وصبره غاية قلما يبلغها مفكر واحد في عصر واحد) .

ولما تنسك العقاد في مكتبته **رفض المناصب** وقد عرض عليه منها  
ما يغرى . إنه الاكتفاء الذاتي لو صح هذا التعبير في دنيا الأفراد . لكن  
العقاد أودع رفضه كل صفاته من جبروت وصرامة واعتداد واستعلاء وزهد  
في المناصب وما تضيفه . . إنه الأغنى بالقلم .

وهكذا عاش العقاد لقلمه وعاش به . . عاش ولوعاً بالمعرفة الإنسانية على اختلاف ألوانها . يخف إليها في مظانها . عصامي صنع نفسه على غير مثال في الرجال. وشق طريقه في الحياة بسلاح الذكاء الفطري والموهبة الأصيلة التي يزيدها الصقل والتجربة والطموح تألقاً ومضاء .

وهو يجيد من اللغات غير العربية ، الإنجليزية إجادة تامة . . روى لى مرة أنه كان إذا كتب في العربية تمثلت الجملة في ذهنه لأول وهلة ، إنجليزية ثم يخرجها على الورق عربية وذلك من طول قراءته للإنجليزية وتشربه لها . وإنه ليستعين بها على فهم الإيطالية والإسبانية اللتين يفهمهما بقدر ما هو مشترك بينهما وبين الإنجليزية .

أما الفرنسية فقد تعلمها أقصد علمها نفسه أثناء سجنه .  
وفى الأدب العربي كان العقاد يؤثر من كتابه ابن المقفع وصاحب الأغاني ومن الشعراء ابن الرومي .

وعملاق الفكر العربي والأدب العربي كان أسلوبه بخصائصه المتميزة يمثلها ويعلن عنه . أسلوب العقاد أسلوب منطقي يعتمد على المقدمات والنتائج حتى لتحس إزاء مقالته أن أفكارها مرتبة ترتيباً يتميز فيه البدء والختام قبل أن يخط فيها حرفاً . وأدب العقاد كما يقول الدكتور عثمان أمين ( أدب الفكرة الواعية في أرفع منازلها ) . وقد كان ملاك الرأي عند العقاد في الفن والأدب هو أن ( الفن والأدب وجدان إنسان ، ولن يكمل الإنسان بغير ارتفاع في طبقة الحس وارتفاع في طبقة التفكير ، وأن التمام في مزياه الإنسانية أن يتم له الحس ويتم له التفكير ) .

٢٠٣

الصرامة والجد والتوفر طابع جلى فى ( أدب العقاد ) شعره وترسله .  
وأسلوب العقاد أسلوب علمى ما لم تغلب عليه طبيعة الموضوع إن  
كان أدباً خالصاً . الجملة عنده بنیان مرصوص . والكلمة فى مقاله لها  
موقعها الذى لا موقع غيره يكفل لها الجلال والخطر ، فهو بحق إمام من  
أئمة العارفين بمقامات الكلام .

وهو لا يرتاح إلى الجمل المعترضة ومن ثم يدخلها فى السياق . ويتحكم  
فيه السياق نوعاً ما حين يملئ عليه التعبير المختار أو يوحى به . .  
ومع ما لأسلوبه من الطابع العلمى إلا أنه يميل إلى الإيقاع ونهاية  
الفواصل فى غير حشو أو فضول . وهو يؤثر المعنى على اللفظ وإن كان  
يستهو به السجع أحياناً فى موضوعات التهكم والدعابة ، كما يختاره فى  
الموضوعات الوجدانية وما إليها مما يلحق بالأغراض الشعرية . ( فإن السجع  
ينبه الذهن إلى المعانى فى هذه الأغراض ويزيدها جلاءً وتوكيداً ، كأنه  
الللحن الذى يضيف إلى الكلمات ومعانيها قوة ليست للكلام الذى يسمع  
بغير تلحين ) .

\* \* \*

وهو متعصب للفصحى ولا يقبل التساهل فيها ، ويرى أن الكتابة  
الإنسانية ما كانت باللغة الباقية ذات القواعد .  
ولكن تعصبه للفصحى فى الحقيقة كان رد فعل للهجوم عليها من  
جهات عدة . وكان العقاد يرى ( الحملة على اللغة فى الأقطار الأخرى )  
إنما هى حملة على لسانها أو على أدبها وثمرات تفكيرها على أبعد احتمال ،

ولكن الحملة على لغتنا نحن حملة على كل شيء يعنينا ، وعلى كل تقليد من تقاليدنا الاجتماعية والدينية ، وعلى اللسان والفكر والضمير في ضربة واحدة . لأن زوال اللغة في أكثر الأمم يبقها بجميع مقوماتها غير ألفاظها ، ولكن زوال اللغة العربية لا يبقى للعربي أو المسلم قواماً يميزه من سائر الأقوام ، ولا يعصمه أن يذوب في غمار الأمم فلا تبقى له بقية من بيان ولا عرف ولا معرفة ولا إيمان .

ولم يقف العقاد عند هذا الحد بل انبرى يبرز المزايا العلمية لهذه اللغة في كتاب كامل حين مست الحاجة إلى إبراز هذه المزايا غاية المساس ، لأنها في يقينه ( قوام فكرة وثقافة وعلاقة تاريخية ، لا لأنها لغة كلام وكفى ) .

\* \* \*

وهو يزور عن النقد المتشائم ويعزف عن أصحابه . وإن كان لا ينكر على النقد أنه أصدق المذاهب على أن يدافع فيه العطف وتمتدح به الرحمة . Humanity Sympathy كالذي تطالعه العين في أدب المعري وشوهور .

والعقاد في نقده يراه قوم متعصباً لرأيه . فأفكاره قضاء من حقه التسليم . ونسوا أن أفكاره هذه ، حياته .. أنها زوجه والولد .. أنها نور عينيه .. أنها دنياه وعالمه ، حين يفكر الآخرون ولكن ساعة من نهار ، أوسانحاً من خاطر ، أو حتى اهتماماً مقصوداً ، ولكنه أحد اهتمامات كثيرة هي في مجموعها لا تلهيهم عن مناعم دنيا تعف عنها العقاد ، وترفع عليها ، واستبدل بها عالم الفكر ومحاربه ليتعبد فيه ويتهجد ، وكأنه الكاهن حثور كما كان يلقبه تلاميذه الصغار حين كان هو نفسه صغيراً في حساب السنين . .

٢٠٥

يقول العقاد : ( إن للعظمة خصائص تدعو إلى العجب ، وإن كانت معروفة الأسباب ، وناهيك بالعظمة التي ترتقي هذا المرتقى .  
من تلك الخصائص أنها قد توصف بالقيضين في وقت واحد لأنها متعددة الجوانب فيراها أناس على صورة ، ويراها غيرهم على صورة أخرى ، وربما رآها العين الواحدة على اختلاف في الوقتين المختلفين .  
ولأنها تبعث الحب الشديد كما تبعث البغض الشديد ، وبين الطرفين مجال للاعتدال يستقيم للراشدين ، ومجال للمغالاة من هنا وللمغالاة من هناك .  
ولأنها عميقة الأغوار فلا يسهل استبطانها لكل ناظر ، ولا يتأتى تفسيرها لكل مفسر .

ووصفه هذا للعظمة ينطبق عليه ، فقد كان كابن سينا المعجبون به على الجملة أكثر من محبيه ، لأنه رزق أسباب الحسد من جميع نواحيه . فكان رجلاً عظيم الذكاء عظيم الاعتداد بالنفس عظيم النشاط ممتلئاً بالحياة . لكأنما كان يصف نفسه من خلال ابن سينا .

\* \* \*

وآثر فنون المعرفة عند العقاد بترتيب :  
\* الشعر عربياً وأجنبياً وما يلحق به من نقد ودراسة .  
\* البحث فيما وراء الطبيعة .  
\* العلوم .

\* \* \*

لقد شارفت كتب العقاد المائة .

ومن عجيب أن هذه التحليلات التي أغنت أدبنا وتاريخنا ، هذه الآفاق التي أحسنت إلينا ، أساءت إلى ربها شاعراً ! فشعر العقاد قيمة إنسانية كبرى بما أعلى من شأن ( الإنسان ) وليس شعراً عربياً فحسب . وكانت أحب صفات العقاد إلى نفسه صفة « الشاعر » . ولكن بحوره في الكتابة على اختلاف ألوانها غلبت صفة الكاتب ، وصفة المفكر ، وصفة الأديب . يضاف إلى هذا أن العقاد شاعراً يقترن في أذهان الناس برفيقه الشاعرين المازني وعبد الرحمن شكري عضوى مدرسة الديوان . والذي حدث أن المازني زهد في الشعر وخلص للنثر ، « وشكري » زهد في كل شيء : الشعر والناس والحياة . وآص إلى عزلة رهيبة أسلمته إلى العزلة الكاملة .

هذه العوامل مجتمعة ومتفرقة ألهمت الناس وأنسهم ما لا يُنفَل عنه في مجال التاريخ والتقدير ، وهو مثالية العقاد في الشعر ، وتفرد العقاد الشاعر . وقد سبقني إلى هذا القول الدكتور طه حسين الذي أعلن سنة ١٩٣٤ على الملأ : أني لا أؤمن في هذا العصر الحديث بشاعر عربي كما أؤمن بالعقاد . ولم يقل الدكتور طه حسين وهو أعلم بمواطن الكلام هذا القول ، تحية بمجامل فطالما تعارض الرجلان في الأدب وفي غيره مما تتشاجن فيه الآراء ، ولكنه قال عن علم رجل الأدب بالعقاد الذي خلق لنفسه بالدرس المتصل الطويل الذي لا يعرف حداً ، ( قوة لم يعرفها غيره من شعرائنا ، قوة خاصة خارقة لا يعرفها شعراء العرب لأنهم من أقل الناس قراءة في هذا العصر . خلق العقاد لنفسه قوة شاعرة لا تجد لها نظيراً إلا في أوربا حيث يلتمس الشعراء الفن لا في الأدب وحده ، بل في العلم ، وفي كل شيء آخر ) .



٢٠٧

وحين يحدد الدكتور طه حسين مكان العقاد في الشعر ومتى ؟ منذ ربع قرن يعلن مرة أخرى ( أن المدرسة القديمة قد ماتت بموت حافظ وشوقي ، وأن المدرسة الجديدة - أي مدرسة العقاد - قد أخذت تؤدي حقها وتنهض بواجبها فترضى المصريين والعرب جميعاً ، فإذا الشعر الجديد يفرض نفسه على العرب فرضاً ، وإذا الشعور المصري والقلب المصري والعواطف المصرية أصبحت لا ترضى أن تصور كما كان يصورها حافظ وشوقي ، إنما تريد وتأتي إلا أن تصور تصويراً جديداً . وهذا التصوير هو الذي حمل الملايين على إكبار العقاد ) .

لماذا أكبر الدكتور طه حسين العقاد وآمن به وحده دون غيره من الشعراء في هذا العصر ؟

( لأنني حين أسمع شعر العقاد إنما أسمع الحياة المصرية الحديثة ) .  
ثم لماذا أيضاً ؟ ( ثم لأنني إذا قرأت شعره مرة ومرة ومرة - لم أستطع أن أقول لنفسي : قد قرأت هذا الكلام من قبل أو أين قرأت هذا . أفى شعر البحترى أم عند أبي تمام أم سبق أبو نواس إلى مثل هذا الكلام ، كلا . . إنما تقرأون العقاد فتقرءونه وحده ، لأن العقاد ليس مقلداً ، ولا يستطيع أن يقلد ، ولو حاول التقليد لفسدت شخصيته . وشخصية العقاد فوق الفساد . خلدوا ما شئتم من دواوين الشعراء المعاصرين الذين أكبر منهم كثيرين وأحب منهم كثيرين . أنا واثق أنكم لن تملضوا في قصيدة حتى تذكروا شاعراً من المتقدمين ، أو أن تذكروا شاعراً من الغربيين المحدثين ولكن انظروا في العقاد خلدوا بيتاً من العقاد أو قصيدة أو مقطوعة فلن تروا إلا العقاد ) .

هذه أقوال أفذاذ لم تستطع المعاصرة أو المنافسة أن تحجب كلمة الحق  
أوحى زهو الفخر وإشادة التقدير . . .

\* \* \*

**وكان العقاد يخطط لحياته فلا ينجز مشروعاً حتى يرسم آخر فلا يستريح**  
بينهما إلا أسبوعاً . والراحة هنا معناها أنه يتخفف في القراءة فيختار  
الموضوعات الخفيفة والشيقة . فإذا فرغ الأسبوع الموعود شرع في وضع  
الكتاب الجديد . وكان آخر اهتماماته سلسلة أتم بعض حلقاتها . وهذه  
السلسلة كتب أربعة عن :

الله - الكون - الإنسان - الشيطان .

وقد أنجز العقاد منها كتابه ( إبليس ) وكتابه ( الله ) الذي احتشدت له  
ملكاته كلها . وبعد رحلته الفلسفية الطويلة فيه . انتهى إلى القول بأن  
( الإيمان ظاهرة طبيعية في هذه الحياة . لأن الإنسان غير المؤمن إنسان  
« غير طبيعي » فيما نحسه من حيرته واضطرابه ويأسه وانعزاله عن الكون  
الذي يعيش فيه ، وأن الحس والعقل والوعى والبدنية جميعاً تستقيم على  
الإيمان بالذات الإلهية ، وأن هذا الإيمان الرشيد هو خير تفسير لسر الخليفة  
يعقله المؤمن ويدين به الفكر ويتطلبه الطبع السليم ) .

كما انتهى بحثه فيه إلى أن ( العقيدة الدينية هي أقرب الفلسفات  
إلى المعقول وليس قصارى الأمر فيها أنه أمر تصديق وإيمان .

لا بد من وقفة في كل تفسير للوجود .

فوقفة المؤمن أصح من وقفة الفلاسفة في النهاية : كل ما هو محدود

٢٠٩

فقد يحيط به القياس ، ولا إحاطة بما ليست له حدود . « البارى »  
قديم سرمد لا يحده الزمان ولا المكان . ليس كمثله شيء وهنا يحسن  
الوقوف .

ألأنه عقيدة وكفى ؟

كلا ، بل لأنه منطق سليم ، ولأنها نهاية شوط العقول .  
ومن مشروعاته فى الكتابة لو أن العمر امتد به ، الكتابة عن الغزالي  
وعن بعض الشعراء مثل توماس هاردى وهابنى .

\* \* \*

وإذا كان الدكتور زكى نجيب محمود يشبه شعر العقاد بأنه ( أقرب  
شيء إلى فن العمارة والنحت وأن القصيدة عنده بناء من الصوان ،  
والقلم فى يده هو إزميل النحات ، وأنه لا يصوغ قطعة من العجين اللين  
ولا يقيم بناء من الطين الطرى المطواع فلا الفكرة عنده قريبة المثال ،  
ولا المادة سهلة التشكيل . القصيدة عنده هى المسلة القديمة قدت من حجر  
الجرانيت لترسخ فى الأرض وترتفع فى السماء فها هنا العمق . . والسموق  
معاً ) .

إذا كان الدكتور الباحث يقصر هذا الوصف على شعر العقاد ،  
فإن هذا الوصف يصدق فى غير زيادة أو تحريف على أدب العقاد  
كله شعره ونثره على السواء . فكل كتاب للعقاد وراءه جهد دارس  
متعمق محيط . وكل كتاب للعقاد بصورته التى هو عليها من حيث التناول  
والصياغة ومادة الموضوع ونفاذ الرأى والتحليل ، ( مسلة ) قدت من حجر

الجرانيت لترسخ في الأرض وترتفع في السماء . وليس بكتاب للعقاد ما احتوى على فكرة قريبة المنال أو مادة سهلة التشكيل .

**ولكن أقرب كتبه إليه كتابه ( ابن الرومي ) .** إن بينه وبين الشاعر تجاوب الفن حتى ليراه في النوم على صورة واحدة كما حدثني مرة . . وهو يرى في ابن الرومي شاعراً وصافاً لا نظير له . في آداب الدنيا على كثرة ما فيها من وصف ووصافين . فهو حين يكتب عنه يجد رضى نفسه في الكتابة . إنه يرتاح حين يعطيه حقه ويرفعه إلى حيث يجب أن يكون . . لقد كتب العقاد عن عمر ، الذي نال بكتابه عنه جائزة الآداب . ولكنها كتابة الإنسان الذي يؤدي واجبه ويقول ما يعتقد . ولكن كتابه ( ابن الرومي ) فيه ذاتية واضحة تحب في إعجاب وتتعصب في حماسة . .

\* \* \*

وقد تُرجم كتاب ( الله ) إلى الفارسية كما ترجمت بعض كتب الأستاذ العقاد في ألمانيا وروسيا وفرنسا .

وترجمت إلى الإيرانية والأردية والملايوكتبه :

( عبقرية محمد ) ، ( أبوالشهداء ) ، ( عبقرية الإمام ) .

\* \* \*

ولكن كتابه الأول ( خلاصة اليومية ) قصة هويروها :

( كان يأساً من معنى الحياة . . كل غاية في الحياة . . لأنني قبل ذلك بشهور عكفت على القراءة في كتب ( الفلسفة المادية ) وأكثر من النظر في مذهب النشوء والارتقاء فلاح لي أنه أصدق من أقوال خصومه

المتعصبين الذين تصدوا للرد عليه بين الأوربيين باسم الدين . ولاح لي من النظرة الأولى على غير رؤية فيه أنه يهبط بالإنسان إلى حضيض الحيوان ، ولا يبقى بينه وبين السماء معراجاً واحداً يرتفع عليه . وكذلك كتبت في مقدمة كتابي ( خلاصة اليومية ) أن الإنسان حيوان راق ولكنه حيوان .

وقصة ( الخلاصة ) هذه هي قصة الأمل الذي بقى عندي يومئذ في شهرة الأدب وفي عدد الأيام التي أقضيها قبل ظهور هذا الكتاب . وكنت أظنني مبالغاً إذا حسبتها بأكثر من الأيام . هو الموت إذن كما استقر في خلدي بلا أثر ولا خبر ، وهو الموت إذن أمضى إليه صفر اليمين من مجد الأدب ومن مجد الدنيا ومن كل مجد يبق بعد ذويه .

\* \* \*

و « اليومية » هذه هي دفتر صغير كنت أقيد فيه الخواطر والتعليقات وأبادر إلى إيداعه أبيات الشعر التي نظمتها ولم أتممها قبل أن أنساها ، أو رموس الموضوعات التي نظرت فيها ولم أفرغ من دراستها ، أو ملاحظات الطريق ونوادير الأحاديث العابرة التي أعاودها في مناسباتها . وقد اجتمع عندي من هذه اليوميات دفاتر ثلاث سنوات . فلما وقع في وهي أنني سأذهب بغير أثر ولا خبر تصفحت هذه الدفاتر ونقلت منها صفحات متفرقة تشمل على جميع نماذجها وبعثت بها إلى صديق في القاهرة أقول له إن هذه الصفحات هي كل ما أتركه إذا تركت الحياة : فإن وجدني أهلاً

للذكر ووجدها أهلاً للنشر فتلک کرامة الصديق الراحل على الصديق الباقي ، وإلا فلا حرج عليه أن يهمل نشرها ويسلمها للنسيان . . يطويها حيث طواها في زاوية من زواياه .

ثم طبعت خلاصة اليومية بعد أن أضفت إليها وحذفت منها ، وكان من التوفيقات التي لم أترقبها أنها نفذت في أقل من ستة شهور ، فلم يبق من أثنى نسخة طبعتها منها غير مائة أونيف ومائة ، وهو نجاح غريب لكتاب ولدته فكرة يائسة من الحياة ) .

ولكنه لم يخرج من الدنيا في ذلك الوقت الذي قدره لأن الله أراد بنا خيراً فعاش العقاد ليملاً الدنيا لمصر مجداً ، وعاش ليملاً حياتنا أديباً وعلماً وفكراً ، وأملاً في ( الطموح ) ، وفي ( الكرامة ) وفي ( الإنسان ) . . في الإنسان الذي كان العقاد بشخصه ، وسيرته ، وكتابته ، أشرف مثل له وأكرمه على الحياة والناس .

\* \* \*

وللعقاد مدرسة ولكنها لم تبلور إلا في الأعوام الأخيرة . فقد كانت قبلاً شبه علاقات متفرقة بأفراد متفرقين ثم اتضحت معالمها . ومن أبرز أبنائها الأستاذ على أدهم والدكتور زكي نجيب محمود . والدكتور عثمان أمين والدكتور محمد غلاب والأستاذ أنيس منصور والأستاذ عبد الرحمن صدقي والفنان صلاح طاهر والموسيقى الشجاعى والأستاذ عبد الفتاح الديدي والدكتور نظمي لوقا والشاعر محمود عماد والشاعر محمد طاهر الجبلأوى تلميذه وصديقه .

٢١٣

ومن أصدقاء مدرسة العقاد الشاعر عزيز أباظة والمرحوم الأستاذ كامل الشناوى والأستاذ طاهر الطناحى .

\* \* \*

**وأدب العقاد على جديته وصرامته لا يخلو من المرأة حبيبة ، وصديقة .**  
فالعقاد من ذلك الرهط الذى كان يؤم صالون (مى) الأدبى ويغشى مجالسها ، ومى هى بعينها (هند) فى (سارة) وفى الديوان . وظاهرة فى أدب العقاد أن كل اسم فى (الديوان) أو (سارة) من حيث الوزن العروضى له نظيره الحقيقى حتى تلك التى يدعوها (يابنية) فى ديوانيه (أعاصير مغرب) و (بعد الأعاصير) .

وكانت (سارة) شخصية مستوفية ثقافة وجمالاً . ذات أنوثة متصلة عارمة طاغية حتى ليؤثر عنها قولها (لو خير لى أن أكون رجلاً لأبيت) . ولعل هذه المستويات الرفيعة من الثقافة والنماذج الرائعة من الجمال هى التى زهدت العقاد فيها هو أدنى ، أولعله التنسك فى محراب الفكر حتى لا يعطى من نفسه أحداً سواه . يعزز هذا ما رآه العقاد من تمزق صديقه المازنى عند وفاة ابنته فآل يومئذ على نفسه ألا يواجه هذا الموقف المروع وأشفق عليها من مجرد احتمال الشكل . وكان العقاد مرهف الإحساس شديد التأثير لا يطبق الألم فى نفسه أو نفوس الآخرين ونخاصة الألم الذى لا قبل للإنسان بدفعه أو تفاديه .

وجوهر الرأى عنده فى قضية المرأة كما جاء فى أكبر كتبه عنها ( المرأة فى القرآن الكريم ) : أن :

ملاك العدل والمصلحة بين الجنسين أن تجرى الحياة بينهما في الأمة على سنة التعاون والتقسيم ( لا على سنة الشقاق والتناضل بالمطالب والحقوق ) .  
وليس الخلاف بينهما بالخلاف الذي ينفض بالصراع على كفاية واحدة يدعيها كلاهما في مقام الخصومة ، ولكنه خلاف على كفايتين أيهما أصلح لهذه وأيهما أصلح لتلك ، وإن صلح كلاهما لكفاية الآخر في كثير من الأحيان .

وهو حين يرى وظيفتها المثل التي تستقل بها : حماية البيت في ظل السكينة الزوجية من جهاد الحياة ، وحصانة الجيل المقبل لإعداده بالتربية الصالحة لذلك الجهاد . . حين يرى هذا يعلن في غير مواربة أن حصتها هذه ليست بأصغر الحصتين . ليس تدبير السكينة في الحياة بأهون من تدبير الجهاد ، وليس العمل الصالح لسياسة الغد بأهون من العمل الصالح لسياسة اليوم .

\* \* \*

وقبل أن أضع القلم أريد أن أقف وقفة قصيرة عند ظاهرة لا مخطئها عين الدارس لأدب العقاد بل القارئ العادي وأعني ظاهرة ( النور في أدب العقاد ) .

والنور ظاهرة من ظاهرات كثيرة في تراث الرجل الكبير فقد أحب النور ، واختار بيته في مدينة النور ، وفتح للنور كما فتح عقله الكبير للنور . . كل النور . . من الشرق والغرب فغداً عقلاً نورانياً موسوعياً في عصر التخصص والتحديد . وهو بهذه الصفة ظاهرة فذة بين الأعلام المعدودين



٢١٥

وهو بهذه الصفة عاش قروناً طويلة لا تقاس في عداد السنين بالستين والسبعين ، التي نعرفها .

والنور الذي أحبه العقاد النور العادى والنور المعنوى على السواء .

فقد أحب العقاد النور لأنه كان صريح النفس لا يخاتل ، صريح الرأى لا يخافت به ولا يجمع فيه بل كان حراً كالنور ، نافذاً مثله يكشف المعميات والخوائى . على غواره . واختلف الناس في طبيعة النور الذى أشرق على مصر من أسوان اختلافهم في معنى العظمة والعظيم فقال المبصرون هو النور والإشراق ، وقال المدعورون بل النار والإحراق . ثم غدا العقاد سيرة مجيدة . وإذ هدا روح الخائف تعلق بما كان ينكره ، والتقى معنا على تمجيده والوفاء له . وحق له الوفاء والتمجيد .

إنسان شفاف مضى يحب النور ويعيش في النور بل كان يتعشق النور حتى ليقول : ( أحبه صافياً وأحبه مزيجاً ، وأحبه مجتمعاً وأحبه موزعاً . وأحبه مخزوناً كما يخزن في الجواهر ، وأحبه مباحاً كما يباح على الأزاهر . وأحبه في العيون ، وأحبه من العيون ، وأحبه إلى العيون .

ويوم سكنت في هذا المكان ، ونظرت من هذه النافذة ، أعجبني أنني أفتحها فلا أرى منها إلا النور . . والفضاء .

والحق أنه لا فضاء حيث يكون النور . .

وكيف يكون فضاء ما يملأ العينين ، ويملأ الروح ، ويصل الأرض

بالسما ! (١)

(١) في بيتى ص ٥ .

إنسان عميق لا يرى الأشياء سطوحها ولكنه ينفذ خلالها كالشعاع حتى النهار الذي يتكرر في حياة الإنسان كل يوم ما عاش فلا يثير التفاته بله تفكيره شأن المكرر المعاد . . هذا النهار ينظر إليه العقاد نظرة متوهجة غنية مبتكرة فهو نهار مبتكر ( عليه جدة لا تحسبها قد مضت عليها سوية من يوم ١ . . خلقاً مبتكراً يخيل إليك أنه يتلأل في فضائه الأول للمرة الأولى . . وهل هنالك من فارق بين نور نهارنا هذا وبين النور في أبعد مكان من الفضاء ، وفي أبعد فترة من الزمان ؟ ههنا شيء على الأقل تستطيع أن تقول إنه لم يفتك أن تراه قبل ألف ألف من السنين <sup>(١)</sup> .

وقد غنى العقاد للنور في كتابيه ( أنا ) و ( في بيتي ) غناء عذبا .  
والبعثة المحمدية « مطلع النور » ورسالة محمد ( رسالة النور ) ص ١٢٩ .  
النور عنده مصدر كل شيء حتى الربيع : ( إن الربيع ليغنى لأنه حي ولا سبب للغناء غير ذلك ولا حاجة إلى سبب غيره لمن يحس ويعيش .  
والربيع حي لأنه موسم الحرارة والضياء . وهل الحياة إلا حرارة وضياء ؟  
إنك لتؤمن بالروح وحده أو بالجسم وحده ثم تقول إن النور هو مصدر كل شيء وأصل كل حياة فلا تكون إلا على صواب ، وما كان نور العين ولا نور الروح إلا شيئا واحداً في العنصر والقرار ، وإلا عنصراً واحداً لكل ما يظهر في هذه الدنيا للبصائر والأبصار <sup>(٢)</sup> .

وقد يكون هذا القول مجملاً أو مكتئزاً على عادة أقواله . ولهذا أراي

(١) في بيتي ص ١١ .

(٢) ساعات بين الكتب ص ٣٩ .

٢١٧

بحاجة إلى التماس مزيد من إيضاح أو تخريج فيعين كتابه ( الفصول )  
على الغرض فيسأل معنا : ما هو الربيع ؟ أليس هو فصل الحب ؟ أليس  
هو الموسم الذى تشرق فيه ألوان الأزهار فتتزوج كما يتزوج الأحياء ؟  
ألا تنكشف للعشاق علاقة هذه الأزهار بالغرام فيتراسلون بالأنوار الندية ،  
والرياحين الشدية . ويخرجون إذا أقبل الربيع إلى المنازه والخلوات فيختارون  
من الأماكن ما تحف به الورود المتعانقة والطيور المتعاشقة . وتفاجئهم  
بهجة الحب داخل نفوسهم ومن خارجها فى نفثة واحدة من نفثات الطبيعة  
الحية ؟ وأى ميلاد يؤلف بين نسبها ونسبنا ، وأية قربنى تمت بها الأزهار إلينا  
ألصق من القربنى التى تجمع فى موسم واحد بين توالدنا وتوالدها ، وحياتنا  
وحياتها وامتزاج الجمال والحب فيها بامتزاج الجمال والحب فينا ؟

ولم يحقق لنا العلم ما هو سر تأثير ألوان الزهر على أبصارنا ولا ما هو  
سر تأثير الزهر بذاته فى شعورنا . ولكننا قد نرى علاقة النور بالألوان . ونرى  
علاقة الحرارة بالنور ، ونرى علاقة الربيع بالحرارة ، ثم نرى علاقة  
العواطف الغرامية بالربيع . فكلها عناصر ربيعية تظهر بباعث واحد فى  
زمن واحد ولا نرى منها إلا ما هو من الحرارة قابس ، وبالضوء مزدان  
ولابس ، وفى الحب مغروس وغارس ) .

وليس هذا من حلى الأسلوب كما يوحى التوافق بين أواخر الجمل فى  
الصوت والحروف فإن العقاد يمضى قائلاً :

الحرارة تتبعث من الشمس إلى جوف الأرض فتتخللها فتنبث البقل  
والثمرات - ذلك هو الربيع .

والحرارة تبسط نورها على الأزهار فينسج على أوراقها اللطيفة ألوانه  
ويحليها بأصباغه ونقوشه . ذلك هو سحر الألوان وبهجة الأزهار .  
والحرارة تجري الدم في العروق فتثقف العواطف التي أنامها الظل .  
وتتحرك الحياة الكامنة فيملكها الشوق إلى تجديد الحياة في مخلوق جديد ،  
ذلك هو الحب . فالربيع والأزهار والحب أشقاء لم يولد بعضها بعضاً  
ولكنها تولدت على السواء من أم واحدة هي الحرارة . أو هي الشمس أم  
الحب والحياة في هذا النظام ) .

كان العقاد يحب النور وما أكثر ما قرأ العقاد في صباه على ضوء  
شمعة أو فتيل مصباح !! . وما أكثر ما في حياة هذا القلم من عجائب  
ومقابلات .

\* \* \*

أنا لم أقل كل شيء عن ظاهرة واحدة من ظاهرات عديدة في أدب  
العلاق إن هي إلا لحة من نوره تسعى على ضوء ذكرى حياة طويلة جهريرة  
كبيرة العطاء ، وحياة عريضة غنية لها تاريخ في التاريخ . وهي - معلمي من  
معالم النهضة الأدبية الحديثة يقف صاحبها بين أعلامها قمة شامخة باذخة .  
حياة ثرة المنابع كثيرة الجوانب كالنهر العظيم تتفرع عنه في سيره الجداول  
والعيون . أملت له ، في العمر ، الأيام وأملى لها ، وأمده وأمدتها ، وعاشت  
في أدبه وعاشها . وعلى جلال السن وهالة المشيب رحل عنها وهي ما زالت  
ترجمية ، وما زال عنده الكثير مما هو بسبيل كتابته والبحث فيه . كانت  
الكتابة روح حياته ومعناها فلم يحل بينه وبينها إلا سفره إلى أسوان . وهو

معنى ضخم لا ينفذ إليه إلا الأقلون ليعيشوه . وحتى هؤلاء ، يقف بينهم  
بذكره العريض ، نموذجاً وحده ، عباس محمود العقاد .

\* \* \*

إن العقاد كقمة الهرم الأكبر لا يرقى إليها صاعد إلا من قاعدة واسعة .  
فالعقاد لم يكن شاعراً فحسب ، أو كاتباً فحسب ، أو ناقداً فحسب ،  
أو عالماً فحسب ، بل كان هذا كله مجتمعاً ، وكان أكثر منه .  
إن القول في العقاد يطوف ما يطوف ثم يقصر عن الإحاطة أو ما دونها .  
إن هي إلا لمحات جانبية لأن القول الحق فيه والتقييم الدارس لا يتأني  
إلا بالوقوف على الأصول التي درسها العقاد ، وورود المناهج الثقافية التي  
عب منها العقاد . وهو أمر تشكل ضخامته صعوبة كبيرة للدرس والتقييم  
إلا أن يسعف صبر صابر وتفرغ مخلص وجد دؤوب . ولعل هذا يفسر طواف  
معظم الدراسات والكتب بمشاهير الكتاب والشعراء دون العقاد من تهيب  
لمجالاته وتقدير لوعورة الطريق .

حين ترجم العقاد لابن الرومي قال (لأن تكون ترجمة ابن الرومي  
صورة خير من أن تكون قصة ، لأن ترجمته لا تخرج لنا قصة نادرة بين  
قصص الواقع أو الخيال) . ولكننا إزاء العقاد . نجد أنفسنا أمام قصة  
نادرة بين قصص الواقع تكاد تكون أسطورة بما اجتمع لها من ألوان التفرد  
والترفع والامتياز .

\* \* \*

## مؤلفات الأستاذ العقاد

وبعض تراث العقاد في حياتنا الفكرية ما أذكره على سبيل المثال لا الحصر

الشعر :

- ديوان العقاد ( أربعة أجزاء ) ١٩٢٨
- يقظة الصباح ١٩١٦
- وهج الظهيرة ١٩١٧
- أشباح الأصيل ١٩٢١
- أشجان الليل ١٩٢٨
- وحى الأربعين ١٩٣٣
- هدية الكروان ١٩٣٣
- عابر سبيل ١٩٣٧
- أعاصير مغرب ١٩٤٢
- بعد الأعاصير ١٩٥٠
- ديوان من دواوين ١٩٥٨
- ما بعد البعد ١٩٦٦

الأدب والاجتماع والتاريخ :

- الفصول ١٩٢٢
- الشنور ١٩١٥

٢٢١

- مطالعات في الكتب والحياة ١٩٢٤
- مراجعات في الأدب والفنون ١٩٢٥
- اشتات مجتمعات في اللغة والأدب ١٩٦٣
- ساعات بين الكتب ج ١ ١٩٢٧ ج ٢ ١٩٤٥ الجزءان معاً سنة ١٩٣٧
- عالم السدود والقيود ١٩٣٧
- يسألونك ١٩٤٧
- بين الكتب والناس ١٩٥٢
- إبليس ١٩٥٥
- على الأثر ١٩٥٣
- مطالعات ١٩٥٦
- عقائد المفكرين في القرن العشرين ١٩٥٨
- جمعا الضاحك المضحك ١٩٥٦
- في بيتي ١٩٤٥
- القرن العشرون ما كان وما سيكون ١٩٥٩
- ١١ يوليو وضرب الإسكندرية ١٩٥٢
- اليد القوية في مصر ١٩٢٨
- جوائز الأدب العالمية ، مثل جائزة نوبل ١٩٦٤

القصة :

- سارة ١٩٣٨

### الدراسة والنقد واللغة :

- الديوان في النقد والأدب مع الأستاذ المازني ١٩٢١
- ابن الرومي حياته وشعره ١٩٣١
- شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ١٩٣٧
- رجعة إلى أبي العلاء ١٩٣٩
- قمم في الميزان ١٩٣١
- أبو نواس الحسن بن هانئ ١٩٥٣
- شاعر الغزل ( عمر بن أبي ربيعة ) ١٩٤٣
- جميل بثينة ١٩٤٤
- شاعر أندلس وجائزة عالمية ١٩٦٠
- اللغة الشاعرة ١٩٦٠
- التعريف بشكسبير ١٩٥٨

### الترجمة :

- ( عرائس وشياطين ) مجموعة من الشعر العالمي ١٩٤٥
- ألوان من القصة القصيرة في الأدب الأمريكي ( ١٩٥٤ )

### المذكرات :

- خلاصة اليومية ١٩١٢



٢٢٣

- اليوميات ج ١ ، ١٩٦٣ ، ج ٢ ١٩٦٥ ، ج ٣ ١٩٧١ ، ج ٤ ١٩٧١ ، ج ٤ ١٩٧٤

#### الفلسفة :

- مجمع الأحياء ط ١٩٦١
- الله ١٩٤٧

#### السياسة :

- الحكم المطلق في القرن العشرين ١٩٢٨
- هتلر في الميزان ١٩٤٠
- أفيون الشعوب ١٩٥٦
- فلاسفة الحكم في القرن الحديث ١٩٥٠
- الشيوعية والإنسانية ١٩٥٥
- الشيوعية والإسلام ١٩٥٦
- النازية والأديان ١٩٤٠
- الصهيونية العالمية ١٩٥٥
- لا شيوعية ولا استعمار ١٩٥٧

#### العقريات والشخصيات الإسلامية :

- عبقرية محمد ط ١ ١٩٤٢

- عبقرية الصديق ١٩٤٣
- عبقرية عمر ١٩٤٢
- عبقرية الإمام ١٩٤٩
- عبقرية خالد ١٩٤٥
- عبقرية المسيح ١٩٥٣
- أبو الأنبياء . . الخليل إبراهيم ١٩٥٣
- داعي السماء ( بلال ) ١٩٤٥
- ذو النورين ( عثمان بن عفان ) ١٩٥٤
- الصديقة بنت الصديق ١٩٤٣
- أبو الشهداء ١٩٤٥
- عمرو بن العاص ١٩٤٤
- معاوية بن أبي سفيان في الميزان ١٩٥٦
- فاطمة الزهراء والفاطميون ١٩٥٣

#### الإسلاميات :

- الإسلام والاستعمار ١٩٥٧
- مطلع النور ١٩٥٥
- الديمقراطية في الإسلام ١٩٥٢
- أثر العرب في الحضارة الأوربية ١٩٤٦
- الفلسفة القرآنية ١٩٥٧

- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ١٩٥٧
- الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان العبرين ١٩٦٠
- التفكير فريضة إسلامية ١٩٥٧
- الإنسان في القرآن الكريم ١٩٦١
- الإسلام في القرن العشرين ١٩٥٤
- ما يقال عن الإسلام ١٩٦٣

#### التراجم :

- حياة قلم ١٩٦٣
- سعد زغلول ١٩٣٦
- روح عظيم (غاندى) ١٩٤٨
- تذكار جيتي ١٩٣٢
- بنيامين فرانكلين ١٩٥٦
- محمد علي جناح ١٩٥٢
- برنارد شو ١٩٥٠
- الشيخ الرئيس ابن سينا ١٩٤٦
- عبد الرحمن الكواكبي ١٩٥٩
- سن يانسن ١٩٥٢
- فرانسيس باكون ١٩٤٥
- ابن رشد ١٩٥٣

- الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ١٩٦١
- رجال عرقهم ١٩٦٣

### المرأة :

- الإنسان الثاني ١٩١٢ .
  - هذه الشجرة ١٩٤٥
  - المرأة في القرآن الكريم ١٩٥٩ .
- أما الكتب التي قدم لها ، أو عرف بها أو نقدتها . . . أما المقالات والبحوث في شتى المعارف فقد سجلتها دار الكتب في نشرة بيبليوجرافية باسم عباس محمود العقاد .

## كتب للأستاذ العقاد صدرت بعد وفاته

- أنا ( ١٩٦٥ )
- ردود وحلود ( ١٩٦٩ )
- دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية ( ١٩٦٩ )
- انحراب العالمية الثانية ( ١٩٧٠ )
- المرأة ذلك اللغز ( ١٩٧٠ )
- بحوث في اللغة والأدب ( ١٩٧٠ )
- خواطر في الفن والقصة ( ١٩٧١ )
- قيم ومعايير ( ١٩٧٢ )
- عيد القلم ( ١٩٧٣ )
- مع عاهل الجزيرة العربية عبد العزيز آل سعود ( ١٩٧٣ )
- الإسلام والحضارة الإنسانية ( ١٩٧٣ )
- آراء في الآداب والفنون ( ١٩٧٣ )
- دين وفن وفلسفة ( ١٩٧٣ )
- الإسلام دعوة عالمية ( ١٩٧٣ )
- مواقف وقضايا ( ١٩٧٤ )
- فنون وشجون ( ١٩٧٤ )

## فهرس كتاب العقاد

الصفحة

### الباب الأول

|   |                |
|---|----------------|
| ٥ | الجمال والحرية |
| ٩ | العقاد         |

### الباب الثاني

|     |   |
|-----|---|
| ٣٧  | الشخصية الإنسانية                       |
| ٣٩  | الفصل الأول : عبقریات العقاد            |
| ٧٣  | الفصل الثاني : عبقرية المسيح            |
| ٨١  | الفصل الثالث : عبقریات العقاد الإسلامية |
| ١٠٩ | الفصل الرابع : العقاد والمرأة           |
| ١٣٥ | الفصل الخامس : الإنسان في شعر العقاد    |
| ١٤٩ | الفصل السادس : العقاد يترجم للعقاد      |
| ١٨٥ | ترجمة حياة                              |
| ٢٢٠ | مؤلفات العقاد                           |
| ٢٢٧ | كتب للعقاد صدرت بعد وفاته               |

|                    |                 |
|--------------------|-----------------|
| ١٩٨٣/٢٧٦١          | رقم الإيداع     |
| ISBN ٩٧٧-٠٢-٠٤٢٦-٩ | التراقيم الدولي |

١/٨٣/١٠٨

طبع بمطبع دار المعارف (ج.٢٠٠٠)



## هذا الكتاب

يناقش هذا الكتاب ثلاثة خطوط رئيسية في أدب العقاد :

- خط الحرية وفهمه لها بألوانها ، ومواقفه منها .
- خط الجمال والفن «الموسيقى والفنون التشكيلية» .
- خط «الإنسان» .

وهذا الخط يشغل جزءاً كبيراً من الكتاب حيث ناقش عبقریات العقاد الإسلامية . . كما ناقش عبقرية المسيح .

وتناول هذا القسم من الكتاب التراجم الإنسانية التي كتبها العقاد من أمثال غاندى والشيخ محمد عبده . وشكسبير وبرناردشو وجيته وابن سينا وابن رشد وفرانسيس بيكون وسعد زغلول . ومن شعراء الطبيعة كابن الرومي ، وشعراء الغزل كجميل بثينة وعمر بن أبى ربيعة .

ومن هذا المنطلق ترجمت الكاتبة حياة العقاد نفسه :

«العقاد الإنسان . . العقاد الشاعر . . العقاد والمرأة» . . في موضوعية علمية تجمع مع دقة التحليل وبراعة العرض والكثير من الجديد الذى يكتب لأول مرة ، الأسلوب الأدبى الشيق والجميل .

١٠/٨٨٧٧١

١٥٠